"لو كانت هذه معجزة، فماذا يكون العقاب إذن؟".

جوي سبيدبوت

تومي فيرينيجا

ترجمة: محمد عثمان خليفة



روايات مترجمة





جوي سبيدبوت

جوي سبيدبوت

تومي فيرينيجا

ترجمة: محمد عثمان خليفة

الطبعة الأولى: 2016

رقم الإيداع: 2016/13389

الترقيم الدولي: 9789773192846

الغلاف: خالد شريف

مراجعة لغوية: محمد حامد بكر

تحرير: شريف بكر



60شارع القصرالعيني – 11451 – القاهرة

ت 27921943 – 27954529 فاكس 27947566

www.alarabipublishing.com.eg

Nederlands letterenfonds
dutch foundation for literature

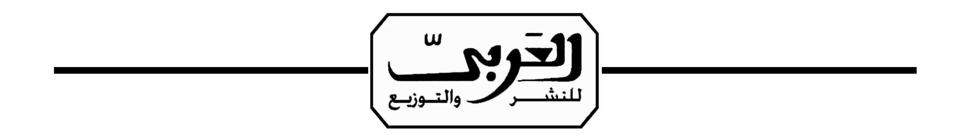
The Publisher gratefully acknowledges the support of the Dutch Foundation for Literature

تومي فيرينيجا

جوي سبيدبوت

رواية من هولندا

ترجمة: محمد عثمان خليفة



بطاقة فهرسة

فيرينيجا تومي

جوي سبيدبوت: رواية من الأدب الهولندي/ تأليف تومي فيرينيجا، ترجمة محمد عثمان خليفة.

- القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، 2015،

ص؛ سم.

تدمك 9789773192846

1- القصص الهولندية

أ- عثمان خليفة، محمد (مترجم)

ب- العنوان 839.313

إهداء

إلى... أحذية روتجر

"الساموراي له في هذه الدنيا رحلتان؛ رحلة بالفرشاة، ورحلة بالسيف".

مياموتو موساشي

(أعظم مقاتلي الساموراي على مرِّ العصور)

الجزء الأول

الفرشاة

1



كان ربيعًا دافئًا.. هم في المدرسة يصلُّون لأجلي، لأنني بقيت بعيدًا عنها لأكثر من مئتي يوم.. انتشرت تقرُّحات الفراش في أنحاء جسدي، وهناك قسطرة ملتصقة بحنجرتي. أنا في مرحلة سمَّاها الطبيب في حديثه لأبي وأمي "السبات السهري"... "كوما ڤيجيل"... استعدت وعيًا محدودًا بما حولي. يقول إنني بدأت أتفاعل مع المحفزات، مثل الألم والضجيج، وهو أمر طيب. فالتجاوب مع الألم علامة أكيدة من علامات الحياة.

هم دومًا حول فراشي... بابا، ماما، "ديرك"، و"سام". أسمعهم منذ لحظة أن يخرجوا من المصعد – أتخيلهم سرب عصافير نشطًا يسد أفق السماء. رائحة زيت وتبغ؛ إنهم حتى لم يهتموا بخلع ملابس العمل، التي تحمل إعلانًا عن خدمات الشركة: **"هرمانز وأولاده لجميع خدمات الهدم"**. "سكراب" هو الاسم الأوسط.

نقوم بتفكيك السيارات المحطمة، والمعدات والماكينات الصناعية، وديكورات المقاهي، هذا إن تصادف أن كانت الحماسة تغمر "ديرك". هو ممنوع من دخول كل بار ومحل وحانة في "لومارك"، ولكنه لم يمنع في "فيسترفيلد"، حتى الآن. يعرف فتاة هناك. ويعود إلى المنزل في كل ليلة والروائح تفوح منه. وليس بيدي سوى أن أشفق على تلك الفتاة.

يتحدث "آل هرمانز" في أغلب الأوقات عن الطقس، نفس الكلام المعاد المتكرر؛ فأعمالهم متعثرة، والسبب هو الطقس، أيًّا كانت حالته. يسبون ويلعنون ويهزون رؤوسهم، أولًا بابا، ثم "ديرك"، وبعده "سام". يتنخم "ديرك" بصوت عالٍ، فأدرك أن في فمه الآن كتلة من المخاط. لا يعرف كيف يقوم بتصريفها، وليس أمامه سوى أن يبتلعها، و... هوب... لا من شاف ولا من دري.

على أنهم صاروا يتحدثون في الأيام الماضية عن "لومارك" أكثر من حديثهم عن الطقس. ففي أثناء غيبوبتي، حدث أن خرجت عربة "فان" طائشة عن مسارها وارتطمت بمنزل من الطراز الجملوني، وفزعت البلدة كلها بصوت انفجار رهيب أتاها من بعيد. ويبدو أن لتلك الحادثة علاقة بشخص اسمه "جوي سبيدبوت". وافد جديد على "لومارك"؛ وأنا لم أره من قبل.

وجدتني أشحذ كل حواسي منتبهًا لكلامهم عن "جوي سبيدبوت" – لو أنك سألتني لقلت لك إن من الواضح أنه إنسان طيب، ولكن أحدًا لم يسألني. هم متأكدون من أن "سبيدبوت" هو من صنع المتفجرات. ولا يعني هذا أنهم قد رأوه بأعينهم، ولكن موضوع المتفجرات هذا لم يظهر إلا بعد ظهوره هو. الصراحة أنها مسألة أصابتهم جميعًا بالغضب والسخط. وجدت ماما تقول:

- اسكتوا الآن، فقد يسمعكم "فرانكي".

لكن تنبيهها لم يسكتهم. قال لها بابا:

- خارج أدخن سيجارة.

ممنوع التدخين هنا.

سأل "سام"، أخي الذي يكبرني بعامين:

- هل هذا هو اسمه حقًا... "سبيدبوت"؟

لم يسبق لي أن شعرت بالقلق من "سام" أبدًا.

أجابه "ديرك" بفظاظة:

- لا يوجد شخص بمثل هذا الاسم.. "سبيدبوت".

"ديرك" هو الابن البكر. وغد حقيقي. ولو حكيت لك عنه لطال الكلام. قالت لهما ماما:

- ذلك الولد فقد أباه منذ أيام. دعوه وحاله.

تمخط "ديرك" بصوت أعلى.

- "سبيدبوت"... من بين كل الأسماء الغبـ...

شعرت برغبة عارمة في الهرش. رغبة شديدة في أن أهرش تلك البقعة التي لا أطالها. "جوي سبيدبوت". تبًّا.

***

مرَّت أسابيع، وأنا والعالم على حالنا؛ ممدان في إنهاك بلا حراك. العالم بسبب الحر، وأنا بسبب الحادث. وماما تبكي. تبكي من الفرحة هذه المرة... تغيير يعني.

- أوه... أفقت من الغيبوبة. حبيبي، رجعت إلينا ثانيةً.

اعتادت أن تشعل شمعة في كل يوم، وهي تعتقد مخلصة أن هذا يساعدني. زملائي في الفصل بدورهم يعتقدون أن دعواتهم قد استجيبت. حتى ذلك المتغطرس "كوينسي هانسن"، كان يصلي معهم لأجلي... وكأنه لم يصلِّ من قبل لأجل أن أموت. ولا يعني هذا أنني الآن قادر على النهوض من فراشي أو شيء من هذا القبيل. فأنا عاجز عن ذلك حتى لو حاولت. لا تزال هناك فحوصات على عمودي الفقري؛ أما الآن، فكل ما بوسعي تحريكي هو ذراعي اليمنى. وعلق "ديرك" على هذا تعليقًا جنسيًّا ساخرًا:

- على الأقل تقدر "تريّح" نفسك.

لم أرد عليه. فأنا عاجز عن الكلام حتى الآن. وعن هذا علق "سام":

- هو أصلًا قليل الكلام في كل الأحوال.

رمق "ديرك" ليرى إن كان قد ضحك على دعابته أم لا، ولكن "ديرك" لا يضحك إلا على دعاباته هو. وهو معذور، فلا أحد يضحك عليها سواه. عنفتهم ماما:

- ولد أنت وهو!

هكذا الحال الآن: أنا، "فرانكي هرمانز"، ذراع سليمة في جسد مشلول وزنه أربعون كيلو. أسوأ حال ممكنة. ولكن ماما سعيدة؛ وممتنة لأنني صرت أسمعها... على الأقل.

لا بد أن أخرج من هذا المكان. إنهم يصيبونني بالجنون، وهم حولي هكذا، ولا كلام لهم إلا عن الشركة والطقس.

فهل طلبت منهم ذلك؟...

... سأحكي لك.



2



كبرت عامًا وأنا في غيبوبتي، واحتفلوا بعيد ميلادي في المستشفى. حكت لي ماما عن التورتة ذات الأربع عشرة شمعة والتي التهموها حول فراشي. استمرَّ نومي 220 يومًا، وبحساب الأسابيع القليلة الأولى التي أمضيتها في إعادة التأهيل، فإني الآن عائد للمنزل لأول مرة منذ عشرة أشهر.

نحن الآن في منتصف شهر يونيو. وقد فرضت معجزة عودتي إلى الحياة – كما تصر ماما على تسميتها – ضغوطًا كبيرة على الحياة في المنزل. فقد صرت أحتاج إلى من يطعمني، وينظفني، ويحركني في الأرجاء. أود أن أشكركم جميعًا، ولكن الكلمات عاجزة عن الخروج من فمي.

ذات يوم، اصطحبني أخواي إلى الكرنفال، بأوامر من ماما. يدفع "سام" الكرسي المتحرك؛ فيحتضنني الهواء الطلق كصديق حميم. يبدو أن العالم تغير في فترة غيابي عنه. كل شيء نظيف جميل، وكأنهم يستعدون لزيارة من "البابا" أو شيء من هذا القبيل. يدفعني "سام" عبر الشارع متعجلًا، فهو لا يود أن يستوقفه أحد ليسأله عني. أسمع صخب الكرنفال الصيفي؛ الصياح، ووقع الأقدام المتسارعة نحو ذلك الكرنفال، وقرع أجراس الألعاب – يكفي أن تصغي لكل تلك الأصوات، فتعرف. تلك هي فرحة الكرنفال.

يتقدمنا "ديرك". أعرف من ظهره أنه يخجل من نفسه لتورطه في هذا المشوار. ينعطف في شارع "زونس"، قبل أن يمر على مقهى "ذا صن"، ويتبعه "سام" بصحبتي. لكن الكرنفال يتلاشى من مخيلتي الآن. فلم أعد أسمع إلا صدى أصوات على البعد. يبدو أن الكرنفال ليس مقصدنا. أدرت رأسي نحو "سام"، الذي انهمك في دفعي بسرعة، وكأنه في سباق. وصلنا إلى منزل "هوفنج" القديم عند طرف القرية. هناك توقفنا. كان "ديرك" يفتح باب الحديقة. لم أحضر إلى هنا منذ زمن. صاح "سام":

- ألا تأتي لتساعدني؟

فلن يكون بوسع الكرسي أن يتحرك وسط العشب الطويل بما فيه من أزهار ونباتات. يعود "ديرك" أدراجه، ويحملان الكرسي ليعبرا به حديقة منزل "رينوس هوفنج" الراحل. ومنذ رحيله والمزرعة مهجورة، وستبقى كذلك إلى أن يملّ ورثته من الجدال حول الطريقة الأمثل للانتفاع بها. حملا الكرسي وأنا جالس فيه، وعبرا مدخل المنزل. سجادة من التراب والغبار تغطي بلاط الأرضية الأحمر. لاحظت آثار أقدام. عبرا بي المطبخ ومن بعده الصالة، قبل أن يتوقفا بي أمام باب زجاج جرار يؤدي إلى الصالون. قال "ديرك":

- ضعه إلى جوار النافذة. حتى يجد ما ينظر إليه.

- ضعه أنت هناك.

يبدو "سام" متشككًا. ولا يبدو "ديرك" كذلك، فهو أغبى من أن تكون لديه شكوك.

- لا يمكننا أن نقوم بهذا.

- إنها غلطتها. ولو أنها صدّقت أن من الممكن أن آخذه إلى الكرنفال فتلك قضيتها هي، وليست قضيتي.

طبعًا يتحدث بهذا الأسلوب عن ماما. وطبعًا هو لا يكن لها الاحترام الكافي، ولكنها تمتلك ورقة رابحة: فهي ذراع بابا اليمنى.

ظهر رأس "سام" في مجال نظري. قال لي:

- سوف نعود سريعًا يا "فرانكي"، خلال ساعة.

تركاني وانصرفا. عظيم.. عظيم. ها أنا ذا مركون على جنب، مثل كومة أغصان جافة لا قيمة تذكر لها. بل إن للأغصان نفعًا معروفًا. وأنا كنت أتوقع منهما حركة مثل هذه، ولكني انتظرت حتى تحول التوقع إلى واقع. لم تختلف الحقائق عن شكوكي. والواقع يقول إنني داخل منزل مُعتم أشعر بثقله يكاد يجثم على عنقي. لا أرى أمامي سوى حافة نافذة يغطِّيها الذُباب الميت، وشباك العناكب، وكرات الغبار. واستيقظت مخاوفي.. استيقظت تمامًا. أصواتها تتعالى، وتتعالى! ولكن كم من الوقت يمكن للإنسان أن يبقى خائفًا في حال لم يقع أي شيء؟ بدت الأمور بالنسبة لي غريبة، وكنت أسخر من نفسي لأن شيئًا لم يحدث. ولكن مهلًا، هناك صوت! أقسم لك أني أسمع صوت باب يغلق بعنف، أو شيء يسقط.. أدرت رأسي، وهي حركة تقتضي مني الكثير من الجهد لدرجة أني أتأوه بشدة، كأنك تحاول أن تدفع شجرة بجبهتك. وجدته هناك، يقف عند المدخل. بادرني محييًا:

- مرحبا.

الصوت صوت صبي. أحدق خلال النور القادم من المطبخ وراءه، فلا أرى سوى ظلال جسده عند الباب. يقترب مني. شكرت الرب لما أدركت أنه مجرد صبي. أخذ يجوب أرجاء المكان أمامي وهو ينظر إليَّ نظرةً لا تبتعد عن وجهي. تأمل الدعامات الفولاذية التي تحيط بقدميَّ، وجلد الكرسي الأزرق الأصلى، ثم الأنابيب الفضية والرافعة الخشبية على يميني، التي تستخدم في توجيه العجلات الأمامية والفرامل في العجلات الخلفية يدوية. اشتروه لي حتى "أكبر فيه" على حد وصفهم. وهو لا يغادر مكانه في الجراج إلا أيام الأحد. يقولون إنه سيكون بمقدوري التحرك به وحدي يومًا ما، أما الآن فأنا عاجز حتى عن هش ذبابة عن وجهي.

– مرحبًا.. هل يمكنك أن تتكلم؟

وجه لوحته الشمس وعينان صافيتان. وشعره له قُصّة تشبه قَصّة شعر الأمير "فالينت". أخذ يجوب المكان وينظر عبر النافذة. حديقة "هوفنج"؛ أزهار البرسيم الحمراء، ونباتات القراص، والخشخاش الجميل فاتح اللون، الذي يسعده أن تراه، ولكن يسوؤه أن تقطفه، فيؤذي يدك لو لم تنتبه له.

قال لي وعيناه على "لومارك":

– تركاك هنا وانصرفا، أليس كذلك؟

يبرز أعلى عجلة الملاهي الدوارة فوق المنازل. يومئ الصبي برأسه.

– أنا سمعت عنك. أنت من عائلة "هيرمانز"، أصحاب شركة الهدم. يقولون إن الرب كان رحيمًا بك بمعجزة. ولكني لا أرى أي معجزة أمامي، وأرجو أن تعذر لي صراحتي. لو كانت هذه معجزة، فماذا يكون العقاب إذن؟ صح؟

أومأ برأسه، وكأنه يؤمن بنفسه على كلامه.

– اسمي "جوي سبيدبوت". انتقلت إلى هنا. نحن من "آختروم"، أتعرف مكانها؟

يداه كبيرتان، وأصابعه قصيرة غليظة. قدمان كبيرتان، يقف عليهما مثل محارب ساموراي قديم. ذلك شيء أعرفه؛ الساموراي. وكذلك أعرف السيبوكو، طريقة الانتحار التي تحفظ لمحارب الساموراي شرفه، بأن يغرس سيفًا قصيرًا في بطنه ويسحبه لأعلى، من أسفل اليسار لأعلى اليمين. ويقاس مدى شجاعة المرء بطول ذلك القطع الذي يحدثه في بدنه.

أستطيع أن أتبين ما يمكن أن يثير غضب "ديرك". إن الجرأة تشع منه. هذا الفتى لا يخشى أحد. "جوي سبيدبوت"، زارع القنابل، ومبدد السكون – بهذا الجينز المقطع، والصندل الجلدي القبيح. أين كنت من زمان؟

– انتظر، علي أن أحضر شيئًا.

سمعته يصعد درج السلم في مكان ما من هذا المنزل، ثم سمعت وقع أقدامه في الأعلى فوق رأسي. أهناك تكون ورشته؟ التي يصنع فيها قنابله؟ غرفة التحكم الخاصة بـ"سبيدبوت"؟ ولما عاد مجددًا وجدته يحمل مؤقتًا خاصًّا بغسالة فول أوتوماتيك وبطاريتين "إيفريدي".

جلس إلى حافة النافذة، وكان مستغرقًا في تركيز شديد، يحاول ربط أقطاب البطاريتين. ثم أوصل القضيب المعدني الصغير بالساعة وضبط المؤقت على الصفر. نظر إلي بغتة.

- واجهنا مشكلات أثناء الانتقال. حادثة. يوم أن مات بابا.

عاد بعدها لينشغل بما يفعله.

كانت أول مرة تسمع فيها "لومارك" عن "جوي" وعائلته كانت يوم أن اصطدمت الشاحنة "السكانيا" في ذلك المنزل العتيق لعائلة "مانداج" في شارع "بروج". اخترقت صالة المنزل الأمامية تمامًا، حيث كان "كريستوف" الصغير جالسًا يلعب "بلاي ستيشن". ولكنه لم يجفل أبدًا. وعندما التفت أول مرة إلى حيث استقرت الشاحنة رأى ضوءًا يرمقه مثل عين غاضبة من خلال سحابة الغبار والركام. وأخيرًا انتبه إلى أن هناك شاحنة اخترقت للتو منزله. وخيم الصمت التام، إلا من صوت إيقاعي لكرة تتراقص عبر أرجاء الشاشة.

يتدلى من واجهة "السكانيا" جسد رجل، ذراعاه متدليتان وكأنه خيال مآتة سقط للتو من السماء. النصف السفلي لجثة الرجل محشور في داخل كابينة الشاحنة. ولكن لا تزال هناك حركة في الداخل. انفتح باب ببطء وشاهد "كريستوف" الصغير صبيًّا في عمره تقريبًا.. 12 أو 13 سنة.. يهبط من الكابينة في هدوء. يرتدي قميصًا ذهبي اللون، وصندل وبنطلون برمودا غريب. من هو الأب المجنون أو الأم المعتوهة التي تسمح لابنها بارتداء مثل هذه الملابس؟! كان الصبي ينظر حوله في لا مبالاة، بينما يتساقط الركام الأسمنتي

من على رأسه وكتفيه. بادره "كريستوف" - الذي لم يترك الـ"جوي ستيك" من يده حتى اللحظة - قائلًا:

- أهلًا.

هز الصبي رأسه، وكأنه تذكر أمرًا مهمًا للتو.

- إنت مين؟

- اسمي "جوي"... "جوي سبيدبوت".

***

هكذا ظهر مثل شهاب في قريتنا، مع مجرى النهر الذي تغمر مياهه الضفتان شتاءً، وعلى امتداده حيث تتصاعد همسات النميمة والشائعات، وعلى مرأى من طائر النهر، نفس الطائر الذي تعقب بشراسة قافلة من الفايكنج من عند بوابات "لومارك" منذ ألف عام، بينما كان أسلافنا قد لجأوا يصلون في الكنيسة، لأجل أن يحميهم المسيح. حتى إنهم يقولون هنا "كان الطائر أشجع ما فينا". وصار هو التميمة التي تحفظ أهل القرية على مدار الأجيال. ولكن "جوي" ظهر بقوة يستحيل على أي شيء أن يصدها.

صار بعد الحادثة نصف يتيم؛ فتلك الجثة المتدلية هي جثة أبيه. بينما استقرت أمه في الداخل فاقدة الوعي، ووقفت أخته الصغيرة "إنديا" تحدق في نعل حذاء والدها. تبادل "كريستوف" و"جوي" النظرات مثل مخلوقين من مجرتين مختلفتين جمعتهما الصدفة - يقف "جوي" مستندًا إلى سفينته الفضائية، بينما يمد "كريستوف" يده إليه تمهيدًا للمصافحة التاريخية الأولى بينهما. هو الآن أمام كائن يجد فيه الأمل في الخروج من هذه القرية الخانقة، حيث لا يصدر أي صوت عال إلا من صياح الديك؛ تلك التي يكرهها ويصادف تماثيلها في كل مكان؛ عند أبواب مبنى المطافئ، وفوق مدخل مجلس البلدية، علاوة على ذلك التمثال البرونزي لها في ساحة السوق. الديك الرمز.. يظهر في

حجم ضخم خلال كرنفال البلدة، ويطل عليك من ديكورات الأسقف، ويباع طعامًا لكلبك في المخابز تحت اسم بسكويت "كوكي" (مع رقائق الجرانولا). وتجد نسخ كريستال، وأخرى سيراميك، مصغرة منها في كل بيت. فلا حدود لإبداعات القرية عندما يتعلق الأمر بذلك الديك.

يتلفت "جوي" مندهشًا من هذا المنزل الذي رماه فيه القدر (قدر في هيئة قيادة سيئة وصلت ذروتها بتجاوز السرعة القانونية داخل منطقة سكنية). لم تكن هناك في ذلك المنزل الذي عاش فيه، ذلك الذي باعوه واشتروا بدلًا منه منزلًا في "لومارك"، أي لوحات بورتريه زيتية تطل عليك بجرأة من الجدران، وكأنك لص سارق. وحتى لو كنت قد سرقت شيئًا، فتلك الوجوه ستبقى تنظر إليك، لذا عليك ألا تخشاها، وأن تتبسم لها في ود، بل وتدعوها إلى الابتسام: "هو عيب لو ابتستم ولو مرة؟!".

وجد أيضًا أن الشمعدان جميل، وكذلك الترولي العتيق الذي يحمل زجاجات "إيجون مانداج" الكريستال وفي داخلها أنواع من الويسكي تتنوع مصادرها من "لوخ لوموند" حتى "تاليسكر". لم يكن في منزل "جوي" الآخر إلا قنينات متواضعة تحمل النبيذ "البيتي" قرمزي اللون، ذا الفلة التي تخرج فقاقيع مثل مريض يعاني الغازات. وكان النبيذ مصنوع إما من كروم لم ينضج تمامًا أو أوشك أن يفسد. "ولكن مذاقه مميز جدًا، أليس كذلك، حبيبي؟" (أمه هي من كانت تقول لأبيه، وليس العكس). كانت الجملة هي الإشارة التي تعلن بدء مباراة تنافسية بين من يشرب أكثر، وتكون نهايتها المحتومة هي أن يفرغ كل منهما جوفه في صباح اليوم التالي؛ أما صداع الشرب الناتج عن ذلك النبيذ فقريب في وصفه من حالات الموت الوشيك التي قد يعانيها روسي تحلو له سرقة السكارى.

سيكتشف "جوي" لاحقًا أنه قد حط في صالون عائلة "مانداج"، أهم عائلات "لومارك"، وأصحاب مصنع الأسفلت بجوار النهر. يشتغل لدى "إيجون مانداج" خمسة وعشرون عاملًا في المصنع، علاوة على مربية المنزل، تساعدها أحيانًا خادمتان من البلدة وراء الخنادق.

وقف "جوي" يحدق فيما حوله.

لاحقًا ذكر "كريستوف" أنه قد فعل ذلك لكيلا يرى الجثة المتدلية من مقدمة الشاحنة. وحينما رفع في النهاية عيناه عن "كريستوف" وما يحيط به، استدار ونظر إلى أبيه. مر بيده على شعره بلطف، وتفوه بشيء لم يفهمه "كريستوف". هز كتفيه ثم مشي نحو الفجوة التي صنعتها الشاحنة في الجدار الأمامي. تسلق متجاوزًا الركام إلى الخارج، تحت ضوء الشمس. مشى عبر شارع "بروج" وقفز فوق السور إلى النهر. كانت الأبقار الصغيرة تتواثب في المنطقة الضحلة؛ بينما تتدلى كومات من العشب المبتل التي تخلفت من بعد فيضان الشتاء فوق السلك الشائك مثل لحية شعثاء لبحار فايكينج. وصل "جوي" إلى الطريق المؤدي لمرفأ العبارة من ورائه. ما إن صار على متنها حتى صعد إلى فوق الدرابزين، وترك ساقاه تتدليان فوق الماء، ولم ينتبه إلى "بيت هوننج" حينما خرج من شباك الكشك ليحصل التذاكر.

***

بدا أن مسألة الصداقة بين "جوي" و"كريستوف" قد أضحت مسألة محتومة، تمامًا مثل تناول السمك أيام الجمعة. وبدأت بالتماعة عين "كريستوف" لما نظر في فضول إلى ذلك الصبي الذي غطاه الغبار وهو خارج من الشاحنة. تدفق ضوء الشمس عبر الجدار المهدم من خلف "جوي" إلى الصالون، ومعه دخلت نسائم الربيع. لم يسبق لـ"كريستوف" أن رأى مثل ذلك. ملأه مشهد الصبي الواقف أمام الضوء المتدفق، بإحساس غامر يلح عليه أن يتخلى عن حياته الرتيبة.

ولكن "كريستوف" خجول لدرجة تمنعه من الإقدام على خطوة كهذه. كما أنه شكاك بطبعه. فهو في حلمه لأن يكون مثل صبي الشاحنة يشعر كذلك بنوع من الحسد تجاهه؛ ذلك النوع الذي تود معه لو نجحت في امتصاص كل قطرة حياة من الشخص الذي تحسده.

لقد كان للحادثة تأثير قوي في شخصيتهما. فقد عززت حب الحياة في شخصية "جوي"، وأحيت شعورًا قديمًا في نفس "كريستوف"؛ شعور مقلق. فلو تحدثت "جوي" عن بناء طائرة، لقال له "كريستوف":

- أليس من الأفضل أن تصلح دراجتك أولًا؟

وإذا انطلقت صافرات الإنذار عند الغارات الشهرية فوق ضفاف النهر في ذات اللحظة التي انتهى "جوي" فيها من تركيب الجهاز الذي سيتيح له أن يستولي على محطة البث الخاصة بالطائفة الإنجليكانية - أو كما يسميها أهل القرية "راديو الرب" - ويستبدلها بأخرى تبث أغاني الميتال. فإن "كريستوف" لا يستحسن فكرة الشوشرة على المحطة الدينية. أما "جوي" فلا يجد أي مشكلة في هذا.

أما أنا فأجد أن "جوي" قد احتفى بأول لقاء لنا بصخبٍ شديد. ففي نفس تلك الليلة التي التقينا فيها في مزرعة "هوفنج"، أيقظ كل "لومارك" من منامها. إنها هدية. فنبحت الكلاب، وأضيئت الأنوار، وتجمع الناس في الشارع. وصار اسم "جوي" على كل لسان. أما أنا.. فبقيت راقدًا في الفراش، وقد ارتسمت على وجهي ابتسامة عريضة.. عريضة للغاية.

ذهب رجلان لتفقد موقع الانفجار. لقد فجّر محولًا كهربائيًّا. وكان هذا كفيلًا بأن يعم الظلام أرجاء الكرنفال، وكثيرًا من المنازل أيضًا.

داعب نور القمر قضبان السرير..

وانشغلت أنا بتمرين ذراعي..

3



الآن، يمكنني أن أتحرك مرة أخرى. أمر لا يصدق، ولكن يمكنني أن اتخذ مسارًا مستقيمًا، وأن أنعطف بهذه العربة. أحركها عن طريق سحب تلك الرافعة ومن ثم دفعها. نموذج للتحرك بقوة العضلات. من دونها تتغلب علي التشنجات، ولا أستطيع التحكم في أي شيء أحاول الإمساك به، ولكنني أستطيع أن أفعل ما أريد في الفترات الفاصلة بين كل تشنج وآخر. ولكن عليَّ أن أتمرن. وتمكنت خلال الشهر الماضي من العودة إلى المدرسة؛ فلم يتضرر عقلي، على الرغم من أنني ما زلت عاجزًا عن الكلام. عليَّ أن أعوض ما فاتني، وهو ما يعني أنني في نفس الفصل مع "جوي" و"كريستوف".

الفرامل هي الجزء الأصعب، وخاصة عندما أهبط عبر الحاجز إلى الأراضي مرورًا بـ"لانج نك"، فالانحدار يزيد من سرعة العربة. وهناك عند الحاجز يراقبني كبار السن الذين يتحسرون على طيش شباب هذه الأيام، وهم لا يعرفون حقيقة ما يجري. هم دائمًا جالسون إلى تلك المصطبة، وقد ركنوا دراجاتهم إلى جوارهم. يراقبون كل شيء، أولئك المزارعون العجائز نحيلي الجسد، أغلبهم عايش أحداث الحرب العالمية الثانية. ولكني لا ألتفت إليهم. فأنا لا أحبهم.

رجال الإطفاء منشغلون بملء خزانات شاحناتهم بالمياه في "بيثليم ديب"، وهي بركة مياه إلى جوار مصنع الأسفلت. يرتدي الرجال ملابس داكنة

وقمصانًا بيضاء تتبدى منها أذرعهم الضخمة. أسمعهم من مكاني وهم يضحكون على النكات التي تقال عن رجال الإطفاء. يلمحني أحد رجال الإطفاء فيلوح لي. منافق كذاب.

تراقصت فوق رأسي أغصان أشجار الحور، وفي المراعي على يمين "لانج نك" مجموعة من عشرة مهور أقزام ضلت طريقها وسط العشب المرتفع. يشربون مياه خضراء داكنة من حوض مجاور للأسلاك الشائكة. ربما هي ملك "رينوس" القذر. لقد تم تغريمه من قبل لإهماله الحيوانات.

ثم تمر على مصنع الأسفلت في "بيثليم"، مصنع "إيجون مانداج". حيث تقضم الجرافات من التلال الصخرية في الساحة. وفي الليل يمكنك أن ترى المصنع من بعيد، كأنه فقاعة برتقالية من الهواء؛ وعندما تكون هناك أشغال طرق دؤوبة مستمرة، فإن المصنع يعمل على مدار الساعة. يقولون إن أسفلت "بيثليم" هو الذي يسند اقتصاد "لومارك" ويبقيه واقفًا على قدميه، ولكل أسرة في القرية عامل في مصنعه.

أتصبب عرقًا مع ألم شديد في ذراعي، ولكنني كدت أصل إلى النهر الآن. أستطيع أن أرى شجرتي صفصاف كبيرتين على الجانب الآخر. يقول "بيت هونينج" دائمًا: "المعدّية هي مجرد استمرار للطريق ولكن بوسيلة أخرى"، ويجد في هذه الفكرة ما يضحكه. والآن وبعد أن صرت عاجزًا عن المشي، يتركني أعبر مجانًا. يبرر "بيت" ذلك بقوله إنني رأيت كلًا من الموت والحياة، ولكنه لم يستفض في الشرح. وبعد تلك المرة الأولى لم يطلب قرشًا واحدًا.

يجذب "بيت" المعدية إلى الشاطئ البعيد، إلى أن تلامس مقدمتها المهبط الخرساني. هناك في مجرى النهر قارب احتفالي يبحر مع التيار، ويمكنك سماع الموسيقى وخشخشة الأكواب على متنه. هل يمكن للمرء أن يغار من قارب نهري بسبب الطريقة التي يتحرك بها؟ تصنع مقدمته موجتين رغويتين، وكأنهما مرسومتان على جسم القارب. منبع النهر في ألمانيا، حيث تحلق المناطيد

فوق التلال. لا بأس في المناطيد، ويبدو أن الكل لا يجد مشكلة معها. هل تعلم، مثلًا، أن تلك الأشياء الغريبة التي تطفو أمام عينيك عندما تحدق في شيء ما هي في الواقع بروتينات على سطح مقلتي عينيك؟

ينزل "هونينج" البوابة، ويرفع الممشى ويجذب عتلة المحرك. تستقر المعدية عند المرسى. رايات شركة "توتال" الممزقة تتراقص مع النسيم.

يهبط الليل على المناطق فيما وراء التلال والمناطيد. واختفى القارب الاحتفالي بعد منعطف، والله وحده يعلم إلى أين يتجه. مثل تلك السفن تتجه دائمًا نحو المصب، بينما تتجه المراكب في الاتجاه الآخر، إلى ألمانيا، ويزأر محركها بشدة ضد التيار.

يربط "بيت" المعدية، ويصعد إلى الشاطئ: "هيا، صديقي الصغير...". يقبض على عربتي ويدفعني إلى خارج المعدية. أنا لا أحب أن يدفعني أحد، ولكن ما باليد حيلة. يأخذني إلى حيث يخزن ملح الطرق والمكانس.

يطوي المساء النهار كجريدة انتهت مهمتها. أشم الزيت والماء. نتجه إلى الجانب البعيد، حيث تطلق سيارة فلاشات متتالية. هناك تهبط العتمة من فوق الصفصاف على الأبقار أسفلها. كم هي غبية تلك الأبقار، تقف دومًا في مكانها، غارقة في أحلامها العدمية. أفضل الجياد عليها؛ هي على الأقل عندما تقف في مكانها يبدو عليها الاستغراق في التفكير في شيء ما، في مشكلة تتعلق بالجياد عمومًا، ولكن الأبقار تبدو تمامًا مثلما تبدو لنا السماء: كبيرة... سوداء... خاوية.

تبث الطريقة التي تتمايل بها المعدية الخوف في قلوب البعض. ولكنها قوة الأمواج فحسب، ولا خوف منها. هذه المعدية تعمل منذ العام 1928، فهي عجوز فقط. فلا خوف. وقد صنعت في الواقع لتناسب الممرات المائية الهادئة، وليس لنهر متقلب المزاج. قال لي بابا ذات مرة:

– هذا الشيء خطر على العامة. كان من اللازم تكهينها وإرسالها إلى مصنع "هيرمانز" وأولاده من زمان.

وكأنه يهتم أصلًا بسلامة الناس، كل همه هو المكسب، حتى ولو تظاهر بخوفه على الناس. ولكن "بيت" مستمر في تشغيل المعدية، مهما كلفه ذلك، حتى ولو لم تكن في الحقيقة سوى غرفة لقائدها وسطح معدني كبير كفاية ليحمل ست سيارات.

ولو سألت "بيت" لأخبرك أن هذه المعدية ذات الجنزير كانت شغالة من دون محرك إلى أن جاء وقت تزايدت فيه سرعة الزوارق والمراكب؛ وصار من الخطر أن يتم تشغيلها اعتمادًا على قوة التيار وحدها. فالمعدية ذات الجنزير لا تعتمد في الحقيقة إلا على شدة تيار النهر. وهي مرتبطة بثلاث بكرات، وتكون البكرة الثالثة مثبتة إلى شط النهر بمرساة ضخمة. وفي الطرف الآخر تكون المعدية. وتجري المعدية فوق سطح النهر بنفس آلية تحريك عقرب الثواني في الساعة. فمع رفع إحدى البكرات وإرخاء الأخرى يسحب التيار المعدية إلى الجانب الآخر من النهر؛ ولكن هذه الأيام يحتاج "بيت" إلى محرك ليتقي شر وحوش النهر. وأحيانًا ما تصطدم سفينة بالجنازير وتسبب له بعض الأضرار. وقتها يتوقف عمله ليوم، يقوم خلاله بإصلاح ما تعطل.

يخرج "بيت" من الكشك ثانيةً:

- طاب مساؤك، يا صديقي.

أنظر إليه بينما يندفع البصاق من فمي. لقد تعبق صدري بلترات من هذا الشيء. وكأن جبل من الرمال جاثم على صدري.

يتنهد "بيت":

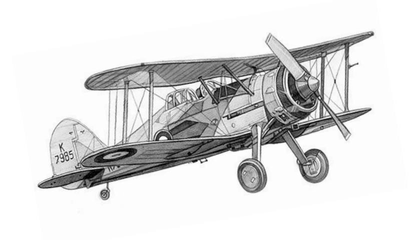
- هذا المرسى القديم يحتاج إلى شيء من الاهتمام. زمان كانت توجد قاعة للانتظار وكانتين للكيك والقهوة. ولما يكون الجو باردًا كانوا يتجمعون حول الموقد إلى أن أصل إليهم. ولكن كل هذا انتهى مع بناء الجسر وإنشاء الطريق السريع. انظر إلى الحال الآن. ولكن انتظر إلى أن تختنق الطرق بالسيارات، وعندئذٍ سيعرفون أن هذه المعدية هي أسرع طريق بين جانبي النهر.

استقر الحزن على وجهه في الفترة الأخيرة. مر المركب علينا. ظهره مكشوف لنا، وأكوام الرمال متعالية ومتدرجة، مثل الحراشف فوق ظهر التنين. وكأنها مرتفعات صغيرة قررت الرحيل إلى ألمانيا. لا عجب في أن بلادنا مسطحة هكذا، طالما أننا نقوم بتصدير كل شيء مرتفع فيها.

سحابة واحدة في السماء، على شكل قدم. تساءلت إن كان يسكن تلك السماء أي كائن.

أي كائن.

تدرك قصدي؟



4



لم يخبر "جوي" أي أحد عن اسمه الحقيقي، ولا حتى "كريستوف"، الذي صار في ذلك الوقت صديقه الصدوق. عرفنا أن اسم عائلته "راتزينجر"، ولكن اسمه الأول بقي سرًا. المرء في العادة لا يشعر بأي فارق عندما يكبر فيعرف أن له اسمًا يميزه. فهو في النهاية اسمك ولن تشتكي منه. والحقيقة أن ليس بيدك أي شيء تفعله حيال ذلك: أنت اسمك، واسمك أنت، وأنتما الاثنان واحد؛ وبعد أن تموت يبقى اسمك حيًا لبعض الوقت في عقول البعض، ولكنه سرعان ما يخبو فيها قبل أن يمحوه الزمان من على شاهد قبرك. مصير محتوم. ولكن "جوي" لم يكن ليكتفي بذلك. أتحدث معك الآن عن الماضي قبل أن يأتي للعيش في "لومارك". كان يعرف أنه لن ينجح في تحقيق ما يحلم به وهو بذاك الاسم الحقيقي. وباسم مثل اسمه لا يمكن لأحد أن يصير شخصًا مهمًا أو حتى أي شخص آخر. إنه مثل المرض الذي يبقيك محبوسًا داخل المنزل. كان سوء فهم، أدى إلى أن يولد بالاسم الخطأ. واختار لنفسه الاسم... "سبيدبوت". لا أدري من أين أتى به، ولكنه يليق به تمامًا. ليس لديه اسم أول بعد، ولكن هذا لم يشغل باله؛ يكفيه اللقب الآن، وسوف يأتي الاسم الأول وحده بعد ذلك.

ولم يستغرق هذا طويلًا. فذات يوم، وبينما كان يمشي مارًا على سقالة يصعد عليها العمال لإلقاء مخلفات البناء في حاوية، فأصاب بعض الغبار عينا "جوي" – ولم يكن هذا اسمه حتى تلك اللحظات – فتوقف لتنظيفهما. فوق

السقالة جهاز راديو شوهت ملامحه بقع الدهان، وفي تلك الثواني بالذات سمع اسمه الأول، لأول مرة: "جوي". اسم الأغنية "هاي جوي" لـ"جيمي هندريكس": "هاي جوي... إلى أين أنت ذاهب بهذا المسدس في يدك/ هاي جوي، قلت إلى أين أنت ذاهب بهذا المسدس في يدك/ سأطلق النار على حبيبتي القديمة/ فقد وجدتها تخونني مع رجل آخر".

إذن هو "جوي". "جوي سبيدبوت". هذا اسم يليق بك أمام العالم.

أما صنعته فوجدها في الساحة الأمامية الصغيرة للمنزل في "آختروم". كان ذلك في أوائل الربيع الذي أعقب أول شتاء له في "لومارك". كنت وقتها في المستشفى أتعافى. يجمع "جوي" أوراق الشجر الميتة في كومة؛ وضوء منعش بارد يسقط على تلك البقايا المتعفنة لفصل انقضى. ويظهر من أسفل الأوراق عشب أصفر مائل للبني، وقواقع نصف شفافة لحلزونات. عندئذٍ أتى صوت من بعيد، من عند "فيسترفيلد" – صوت شيء ينشطر ويتشقق. سرعان ما تصاعدت قوة الصوت. ارتاع الفتى في مكانه وارتجف بعصبية. وقبض على الجرافة وأسند صدره إليها، وانتظر، بنفس الوقفة الكلاسيكية لعمال تنظيف الحدائق في كل مكان في العالم.

ما هي إلا دقيقة حتى رآها: سبعة سيارات براقة موديل "أوبل مانتاس"، سوداء جدًا، وشكماناتها تطلق نارًا ودخانًا. يقودها فتية وجوههم متجهمة، والشعر غزير على أذرعتهم. يتدفق دخان السجائر من نوافذ السيارات، وقد استندت الأذرع على أبوابها في لامبالاة، و"جوي" يحدق فيهم في اندهاش، بينما يمر عليه موكب السيارات مثل رعد بطيء الإيقاع. أسقط الجرافة ورفع يداه يغطي أذنيه. الشكمانات تلمع وكأنها آلات ترومبيت، والعالم بدا يرتجف أمام هذا الصخب الذي يتعمد هؤلاء الشبان افتعاله، وكأنهم يثبتون للجميع أنهم موجودون في هذه الدنيا... "الدوشة دليل الوجود".

كان هذا هو أول درس يتلقاه "جوي" في علم القوى المحركة، وفي جماليات الحركة، الناتجة عن محركات الاحتراق الداخلي.

غاب موكب السيارات سريعًا، وخلف وراءه فقاعة صمت، وسطها سمع "جوي" صوت أمه وهي تصيح ساخطة عبر النافذة المفتوحة: ... حمقى!

***

ترهق "ريجينا راتزينجر" (هي تنهر بود حازم كل من يناديها عن دون قصد "السيدة سبيدبوت") نفسها جدًا وهي تعتني كل صباح بمنزل عائلة "تاباك"، وتقضي كل ظهيرة في شغل التريكو لصنع سترات صوفية لأهل القرية. سترات جودتها ممتازة، وكانت هذه الجودة نقمة عليها؛ حيث أن بقاءها على حالتها الممتازة كانت تعني أنها لن تجد ما تبيعه عندما يأتي اليوم الذي يكون كل أهل القرية قد اشتروا سترات منها. ويعود نجاح تلك السترات أيضًا إلى أنها تقوم بتزيين كل سترة برسم جميل يصور ديك "لومارك" على صدر كل سترة.

يمتلئ منزلهم بشلال صوف التريكو، وهو ما يجتذب حشرات العثة. لذلك تقوم بتعليق أشرطة لاصقة في أماكن معينة داخل المنزل معبقة برائحة جاذبة للعثة. وأحيانًا ما يسمع الزوار "ريجينا راتزينجر" وهي تصيح:

- عثة! عثة!

يعقبها صوت صفعة، ثم صيحات استهجان، وفي النهاية ضحكات "جوي".

أما "كريستوف"، فقد كاد يجن لجهله اسم "جوي" الحقيقي. وذات يوم راح إلى "ريجينا راتزينجر":

- سيدة "سبيد" – آسف، سيدة "راتزينجر"، ما هو اسم "جوي" الحقيقي؟

- لا يمكنني أن أخبرك به، "كريستوف".

- ولماذا لا؟ لن أخبر أي...

– لأن "جوي" لا يريد ذلك. يعتقد أن على كل شخص أن يكون له سره الخاص في هذه الحياة، كبيرًا كان أم صغيرًا. آسفة، "ستوفي"، ولكن ليس بيدي أن أساعدك.

كانوا قد سموا "كريستوف" بها الاسم على اسم جده، الذي تجده مصورًا في واحدة من الوحات في ذلك المنزل في شارع "بروج"؛ وفي خلفية اللوحة أطلال كلاسيكية، تلك اللوحة المعلقة في البهو الذي دمرته الشاحنة. تناديه "ريجينا"، "ستوفي"، ولكن "كريستوف" يفضل أن ينادوه "جوني"؛ "جوني مانداج". وهو اسم لا بأس به على الإطلاق، طالما أنك لا تعرف أن اسمه الحقيقي هو "كريستوف"، وأنه قرر أن يغيره ليقلد "جوي سبيدبوت".

ولكن هذا الاسم لم يصمد. ولم يكن هناك من يناديه به إلا "جوي"، وقد توقف عن ذلك بعد وقت.

ظل "كريستوف" ضيفًا دائمًا على منزل "جوي" طوال عطلة الصيف، حيث تسود أجواء أكثر تسامحًا. تراهما الاثنين يستقلان نفس الدراجة، حيث يقف "كريستوف" فوق مسند الحقيبة مثل بهلوان في سيرك كوري، وهما يقصدان "سبار" لشراء زجاجة "دوبرو" أو إلى "سناك بار فينكس" لشراء الشيبسي. لذلك، وذات يوم، كانا يمران على المنزل الذي شوهته الشاحنة في شارع "بروج"، والذي لا يزال خاضعًا لأعمال الترميم والتجديد وراء ستار بلاستيكي أسود. ولاحقًا، وبعد انتهاء تلك الأعمال، قام "إيجون مانداج" ببيعه، متعللًا بأن النوم يجافيه في ذلك المنزل منذ الحادثة. وقام ببناء فيلا فوق مساحة مرتفعة من الأرض خارج "لومارك"، بعيدًا عن ارتفاعات المياه. ولكنه في ذلك اليوم ظهر من خلال الستار البلاستيكي الكبير عند الباب وهو ينظر في دهشة إلى ابنه الواقف بهذه الطريقة فوق الدراجة. حياه "كريستوف":

– هاي!

– هاي، "كريستوف".

وكان ذلك هو الحوار الوحيد الذي دار بينهما طوال ذلك الصيف.

يتناول "جوي" و"كريستوف" الكثير من الشيبسي. سألتهما الفتاة الواقفة وراء الكاونتر في "سناك بار فينكس"، وهي ذات وجه جميل مريح وقوام جذاب:

- ما طلباتكما اليوم؟

- طلب شيبسي، إكسترا لارج، مع مايونيز وبصل. وشوكتان. بالمناسبة، تعرفي سبب تسمية المكان "فينكس"؟

هزت الفتاة رأسها في حيرة.

- إنه طائر خرافي، يخرج حيًّا من جديد من رماده المحترق. غريب أنكِ لا تعرفين.

- آسفة.

نظرت حولها في اهتمام، وكأنها تشاهد شيئًا لم يكن هنا من قبل.

- هل هذا هو المكان الذي شاهدوا فيه الطائر آخر مرة. أقصد لهذا سموه؟

- صح. كان يبني عشه في هذا المكان بالذات.

صوت قلي البطاطس يعلو في المقلاة الكبيرة، بينما تطن ذبابة زرقاء ضخمة عند النافذة. وبينما كانت الفتاة تخرج البطاطس لتجففها، تسمرت عيون "جوي" و"كريستوف" على ظهرها الرشيق الذي يتحرك حركات منتظمة. كان لظهرها تأثير المغناطيس عليهما. رشت الملح فوق البطاطس وقلبتها، فترسخت في مخيلة كل من "جوي" و"كريستوف" صورة منفردة لقوامها الخرافي.

- طلب شيبسي بالكاتشب والمايونيز والبصل للسيد "كريستوف".

سارع "جوني" بالتصحيح:

- اسمه "جوني". شوية مايونيز تاني، لو سمحتي.

5



بعد أن ضاع مني عام دراسي كامل بسبب الحادث، عدت إلى سنة ثالثة ومع أولاد لا أعرفهم. ورغم أني أكبر منهم عمرًا، ولكنني أقصر من أقصر واحد فيهم.

في أول يوم للمدرسة، سألنا "فيرهوفين"، أستاذ اللغة الهولندية، عما قمنا به خلال عطلة الصيف.

- وماذ عنك، "جوي"؟

سألني بعد أن تحدث قرابة نصف عدد تلاميذ الفصل عما فعلوه.

- ما الذي كنت تفعله في الأسابيع الأخيرة؟

- كنت أنتظر، سيدي.

- تنتظر ماذا؟

- أن تبدأ المدرسة، سيدي.

أتيحت لي أخيرًا فرصة أن أكون حوله في كل وقت. ولكن ذات صباح، طلب "جوي" من السيد "بينتما" اذن لكي يذهب للحمام. وما هي إلا دقائق حتى

سمع كل من في المدرسة صوت انفجار هادر في بقعة ما من المبنى. تمتم "كريستوف" معلقًا:

- "جوي".

كان جالسًا في دورة المياه، يجهز قنبلة. تمزق نصف يده تقريبًا، وسالت الدماء على أرضية الحمام، وهرع مدير المدرسة يركض خلفه. حاول "جوي" أن يهرب مثل فأر جريح، ولكن المدير أمسك به في ساحة المدرسة، ولسانه ينهمر عليه بأفظع السباب. لم يكن "جوي" يستمع لتلك الشتائم؛ فقد سقط على الأرض وكأن أحدهم سحب بساطها من تحت قدميه. ووصلت سيارة الإسعاف، وكانت هناك جلبة كبيرة، ولم نرَ "جوي" من بعدها لفترة. فقد كان لتلك القنبلة التي انفجرت بالخطأ أثرًا لا يستهان به عليه.

***

بدأ الفصل يعتاد على وجودي تدريجيًا. وقد أعفيت من الامتحانات الشفوية، لأنني كلما حاولت أن أجيب أستغرق ما لا يقل عن الساعة لكل سؤال، وحتى بعد ذلك لا يفهمني أحد. مشقة ما بعدها مشقة.

الأشد مشقة بالتحديد هو كوني لا أستطيع أن أتبول بمفردي، وكان "إنجل إيلفيلد" من يساعدني في ذلك عن طيب خاطر. وهو شخصية فريدة من نوعها. فتى من النوع الذي قد لا تنتبه إلى وجوده أبدًا، وكأنه مجرد خيال، ولكنك تنتبه إليه فجأة فلا يسعك إلا أن تكون صديقًا له.

وكانت فكرة "إنجل". أنا لا أعرف كيف تبين له أني بحاجة إلى تلك المساعدة، ولكن لا بأس طالما أنها مساعدة. نذهب إلى الحمام معًا، فيخلع بنطلوني ويسند عضوي إلى حافة المبولة المحمولة التي أحملها معي دومًا في العربة. في المرات الأولى كنت أشعر وكأني سأموت من شدة الشعور بالخزي، وخاصة عندما يدخل عضوي في ذلك الأنبوب، وكذلك عندما يسكب ذلك البول

في الحوض. ما أدهشني هو أن أحدًا من التلاميذ لم يحاول أن يسخر من "إنجل" بسبب مساعدته لي في التبول، أنا لم أسمع بذلك على الأقل.

ربما تتساءل طبعًا عمن يساعدني عندما أريد أن أتبرز، وعما إذا كان "إنجل" يساعدني في ذلك أم لا. مستحيل طبعًا! فأنا لا أتبرز إلا في منزلي. وماما هي التي تساعدني. فأنا لن أسمح لغيرها أبدًا.

قاموا بإصلاح باب الحمام بعد ذلك الانفجار، وأخبر حارس المدرسة - كل من وجد وقتًا ليقف ليسمعه (لا أحد تقريبًا، ولكنه كان يحكي على كل حال) - أنه لم يرَ شيئًا مثل هذا من قبل. ولكنني كنت أريد أن أعرف: ما هو الشيء الذي كان "جوي" ينوي تفجيره؟ أو من هو الشخص؟

لما عاد "جوي" – يده في ضمادة، وغرز في جبهته – كان الكل قد نسي ما فعل. ماتت الحادثة ودفنت. غريب حقًا، وكأن ذاكرة الكل قد محت أي شيء يتعلق بحماقة "جوي". وقد ضايقه ذلك. أدركت أنني أحب أن أراه وهو يلقن هذا العالم درسًا؛ فلو أن هناك من يقدر على تلقين العالم درسًا فإنه "جوي".

التزم "جوي" الهدوء لفترة، وكان "كريستوف" يراقبه. وعندما نزع "جوي" الضمادة، وكان هذا في الفصل وفي وجود الكل، كان "كريستوف" من يتابع ذلك بكل فضول.

- "جوي"... خطر تفك الضمادة.

استمر "جوي" في خلعها وهو يرد عليه:

- الخطر يأتي من حيث لا تتوقع.

ثم أتاني ومد يده أمام وجهي.

- انظر، "فرانكي"؟ هذا هو ما يسمونه الغباء.

انقلبت معدتي. كانت يده اليمنى مثل كتلة لحم اختلطت في الألوان؛ أصفر وأخضر ووردي، وقد جمعت أشلاءها ثلاثمئة غرزة على الأقل. أما إصبعه الصغيرة والإصبع التي قبلها، فلم يعد لهما وجود.

علّق "إنجل إيلفلد" في ذهول:

- أوه يا ربي، "جوي"!

وكادت "هيلين فان باريدون" تتقيأ.

- تعرضها للهواء سيفعل بيدي العجب، وسترون.

سأله "كوينسي هانسن"، الأحمق الذي صار في فصلي لأنه سقط مرتين:

- أنت من صنع بقية القنابل إذن؟

"كوينسي هانسن" كان لا تبتل حبة فول في فمه.

- طبعًا، أنا.

صرخت "هيلين":

- طبعًا، أنت!

طبعها شرس، لو سألتني عنها.

أجابهم "كريستوف" بنبرة نفاق له:

- كلا، لم يكن هو.

تبًّا، لا تعترف أبدًا بأي شيء فعلته. وثار الجدل، الذي أصاب "جوي" بالملل سريعًا. فنهض وانصرف.

صاحت "هيلين" فيه وهو يخرج:

- من فعلها إذن؟ هاه؟ "فرانكي"؟

عندئذ، توقف "جوي" والتفت إليَّ ثم إلى "هيلين".

- لدى "فرانكي" من المهارات والأعاجيب أكثر مما تتخيلون.

وخرج، يلاحقه "كريستوف". الآن كلهم ينظرون لي. صنعت فقاعات بلعابي، فضحكوا. لا بأس.

اضحكوا... فالضحك علاج الروح.



6



أنا حقًا لا أشارك في أي من ذلك. كيف يمكن لي؟ كل ما أقوم به هو التأكد من أظل في وضع حركة في كل وقت: مثل رجل عصابات بذراع واحدة ورؤية خارقة. لا تفوته شاردة. يلتهم العالم بنفس طريقة التهام ثعبان "الإناكوندا" لخنزير صغير. فإذا لم تستطع الانضمام إليهم فالتهمهم؛ وكيف تمكن منك ذلك؟ فوق التلال وفي الوديان، وتحت الأمطار أو أشعة الشمس، ومع رغوة في الفم ومن دونها. يقف للحراسة في عربته الحربية، وهو يرتدي معطفه عندما يسوء الطقس، وسترته التي تقيه شر الرياح، أو قميصه المشجر في الشمس الحارقة. لا تخف. فلك عينان.

أرى "جوي" و"كريستوف" متوجهين إلى النهر فأزحف وراءهما مثل الحلزون. يصدر صوت طاحن نتيجة احتكاك الرافعة اليدوية بالعجلات الأمامية. ليس الأمر أنني أتبعهما إلى حيث ذهبا. فهذا يتطلب قدرة على بذل نشاط كبير، وأنا لا أملكها. حدودي هي الطرق المعبدة، لذلك أعتقد أنني يجب أن أكون ممتنًا لأعمال سفلتة كل طرق ودروب "بيثليم". يضع "جوي" صندوقه فوق الدراجة، بينما يقف "كريستوف" فوق العارضة على العجلة الخلفية. اعتادا أن يمضيا الوقت عند الشاطئ.

في هذه الأيام يقوم المزارعون بنثر الأشواك حول القش خوفًا من النوارس. ونحن الآن في ذروة الصيف. ويمكنني أن أختار بين طريقين: إلى اليسار جوار الأخدود الرملي وعبر حقول الذرة حتى النهر، أو إلى اليمين بطول "لانج نك" ووسط أشجار الحور حتى العبارة. قامرت واخترت اليسار، عبر الطريق الوعرة. هذه هي المنطقة التي يجلب منها المصنع ما يحتاجه من رمال. لا أحد يعرف مدى عمق الحفرة التي فيها، ولكن ما بها من ماء يبقى باردًا كالثلج حتى في حرارة الصيف.

أما ما وراء الحفرة فهو مسرح كل الأحداث، حيث يأتون من القرية عند غروب الشمس على الدراجات، ليتبادلوا القبلات ويمارسوا تلك الأفعال. هناك ترى أدلة متناثرة في كل مكان: أكياس البانجو الفارغة، أعقاب السجائر، والولاعات الفارغة، والأوقية الذكرية.

تغمر المياه كل هذه المنطقة في الشتاء، لذلك تجد الطريق مليئًا بالحفر. وخلال الربيع، ومع اختفاء المياه، يملأون الحفر بالزلط والطوب المتكسر، ولكن هذا لا يقلل من وعورة الطريق.

تنطلق أسراب العصافير نحو السماء من حقول الذرة وأنا أمر عليها، وقد بدأت أتأوه من آلام ذراعي وكتفي؛ ويمكنك أن تتخيل طريقة حركتي لو رسمت في مخيلتك صورة رجل بذراع واحدة يدفع جثة حصان ميت إلى حيث منزله. أنا لا أبالغ، هي الحقيقة وحسب. لم يقم "ديرك" بتزييت عربتي، رغم أن ماما نبهته كثيرًا للقيام بذلك. يفضل بدلًا من ذلك الخروج مع رفاقه الحمقى حتى يقوموا بكل ما تميل إليه نفوسهم القذرة. ومن ذلك تعذيبهم للحيوانات. شرير هو. سبق أن حبسوه في منزل تأديب بعد أن ربط "رولي تاباك" إلى شجرة وأخذ يغرس الأغصان المسننة فيها. ولما خرج زادت أخلاقه سوءًا. وهو ثعبان، لا بد أن تحترس منه على الدوام.

تحرق الشمس مؤخرة عنقي. تنتشر حول أطراف الحفرة لافتات تحذيرية. أرض خطرة. احذر السقوط. يقف على واحدة منها خيال مآتة، يشبه وحشًا مخيفًا، يصدر مع حركته صوت يشبه صوت مفصلات بوابة حظيرة قديمة. يحدث كثيرًا أن ينهار جزء من هذه المنحدرات، كما حدث ذات ليلة خريف منذ عامين، وقتها اختفى الطريق المؤدي إلى العبارة وكأنه لم يكن. ويبدو أن من يستخرجون الرمال لمصنع الأسفلت قد بالغوا في سحب الرمال من منطقة معينة، وهكذا انهمرت الرمال من حولها لتغطي الفجوة. هذا ما يحدث عادةً عندما تحفر حفرة كبيرة مثل هذه، حيث تبدأ الرمال من حولها في الانجراف للداخل، تجاه النقطة الأعمق. يسمون هذا "انسحابًا". ولكن حفرة "بيثليم" صارت عميقة ومتسعة لدرجة أنه لم تعد هناك رمال حولها كافية لتملأها. شريط كامل من الأرض على جانب النهر و"لانج نك" تلامس المياه، وفي أعقابها حزمة أشجار كاملة. وسوف تجن من الذهول لما تأتي في الصباح لتجد الطريق وقد اختفت هكذا، ولم يبقَ سوى عربات وآلات متناثرة وأعمدة إضاءة متداعية. يقولون إن الأرض أمان الآن، بعد أن توقفوا عن سحب الرمال بهذه الطريقة. ويكون عليك أن تثق في كلامهم.

عيدان الذرة مرتفعة على جانبي درب الحصى، وتكاد عرانيس الذرة تقفز من عيدانها. الأعمدة هنا مائلة؛ فكل ما يقومون بإصلاحه في الصيف يعود ليخرب في الشتاء. عرض هذا الممر متر ونصف. تناديني أوراق الذرة كي أجذبها، فأحاول حتى أتعب. سوف تصاب ذراعي بالإنهاك بهذه الطريقة قبل أن أصل، وماذا أفعل حينئذٍ؟ ولكن الذرة تلوح لي بأصابعها كي تشجعني على الاستمرار. يشق "فرانكي" المياه في طريق الهرب من أعدائه – ولكن جانبي هذا البحر الأخضر على وشك أن ينقضا عليه... هيا، "فرانكي، هيا! تستحثه أصابع الذرة... لقد كدت تصل!

***

يتسع منحدر السد الصيفي تدريجيًّا. فلو أن "جوي" و"كريستوف" ليسا على الجانب الآخر، فهذا يعني أني قد قطعت كل هذه المسافة من أجل لا شيء. لقد وصلت إلى أعلى نقطة. وتوشك ذراعي على الانهيار. هناك في الأسفل شاطئ صغير، رماله صفراء بلون فطريات ظفر الإصبع الكبيرة في قدم بابا. تستقر البجعات جوار هدوء واحدة من كاسرات الأمواج. وهناك عند نهاية الشاطئ أرى ظهرين محنيين يحملان حقيبتين، يمتد هوائي من كل منهما، ويمسحان سطح الماء بحثًا عن أي إشارة: "جوي" و"كريستوف".

لم أهبط في هذا الطريق منذ فترة طويلة، لأمر إلى جوار الماء، والحاجز، والحقول الخضراء. تلك المساحات التي شذبوها مؤخرًا تبدو مثل رأس حلقت للتو. تقبع مئات من طيور "اللابوينج" عند المرفأ القريب. التقطت صنارة "جوي" سمكة لامعة من الماء. بينما يتقافز "كريستوف" من حوله في انفعال.

الحقيقة أنني الأنسب لمصادقة "جوي". "كريستوف" لا يصلح له، فهو حريص زيادة عن اللزوم. يعيق "جوي"، وهذا رأيي. وكأنه فرامل تكبح سرعة "جوي"، وهذا غلط؛ ينبغي أن تكون كل الحرية لجوي حتى يحلق ويحلق. لقد وقعت حادثتي قبل أوانها، فاختل النظام الطبيعي للأشياء. كان ينبغي أن أكون أنا من يجلس بجانبه، وليس "كريستوف".

تهب الرياح في ظهري نسمات، فأشعر بشيء من البرودة، وأتقوقع أكثر في مقعدي. الآن يراني "كريستوف"، فقد توقف فجأة، ووكز "جوي" وهو يشير تجاهي. كانا يظنان أنهما وحدهما، والآن أراهما وكأنهما في حالة تلبس. طارت "اللابوينج" كلها في وقت واحد، لتلامس صفحة النهر بأطراف أجنحتها. سمعت حكايات الناس عن القاذفات البريطانية، وكيف كانت تطير فوق النهر مباشرةً، متوجهة صوب ألمانيا لتقصفها وتسويها بالأرض. تعالت أصواتها هنا على طول الشاطئ، ولكن كثافة الطيور تماشت مع تعتيم السحب لضوء الشمس.

حدث الكثير في هذه المنطقة في الماضي. ومنها حكاية عائلة "إلفيلد". كانت واحدة من أكبر عائلات "لومارك". واكتسبت شهرتها في سبتمبر عام 1944. كان أفرادها كلهم يختبؤون في ملجأ من الغارات الجوية تم تجهيزه أسفل أشجار الجوز، حينما سقطت قنبلة هائلة للحلفاء، كانت تقصد قصف الجانب الآخر، فوقهم مباشرة. وهكذا قضت قنبلة على اثنين وعشرين فردًا من عائلة "إلفيلد" بضربة واحدة. وتوجه ما تبقى من العائلة إلى "لومارك"، ظنًا منهم أنهم سيجدون الأمان هناك. وما هو إلا أسبوع حتى هوت القنابل من جديد، هذه المرة على "لومارك"، وسقطت أولاها فوق منزلهم بالضبط. هرع أطفالهم من المنزل وبين أياديهم أحشاؤهم. ماتوا في التو. ولم يبق من عائلة "إلفيلد" سوى ثلاثة أشخاص. انتقلوا إلى المدينة، لتحاصرهم القذائف الألمانية في الشهر الأخير من الحرب. صرعت اثنين. وانهت الحرب، ولم يبقَ سوى شخص واحد: "هندريك إلفيلد"، والذي أسموه "هنك القبعة". أما ابن "هنك القبعة"، فهو والد "إنجل".

حكاية غريبة. انتهت المباراة بين الأقدار وتلك العائلة... 27/ صفر. وعلى كل حال، تذكر كلما التقيت "أنجل" أنه الوحيد الذي تبقى من نسل عائلة غفيرة، لم يعد لها وجود إلا في هيئة نصب تذكاري من أيام الحرب.

يقترب "جوي" بصحبة "كريستوف" مني. فتمسكت أكثر برافعة العربة. أسمع "كريستوف" يقول:

- إنه يتبعنا.

قال لي "جوي" ما أن صارا أمامي:

- هاي، "فرانكي". وصلت هنا وحدك؟

- انظر. يشبه الحصان بكل هذه الرغاوي على فمه.

ضحك "كريستوف". بينما اقترب "جوي" مني وتناول ذراعي. بيسراه، لأن يمناه لا تزال متأثرة بما أحدثته القنبلة فيها.

- مالك، "فرانكي"؟

عندئذٍ اتسعت عيناه.

- يا رباه، تعالَ تحسس هذه.

وتحسس "كريستوف" ذراعي.

- فيها أسمنت أو شيء مثله؟

تعجب "كريستوف"، فبدا لي أشبه بالبومة. شعرت أنهما يبالغان في ردود أفعالهما؛ ولم أرتح لذلك. فليس في ذراعي شيء غريب لهذا الحد. كما شعرت بالحرج.

- إنه يخجل.

- ممكن ألقي نظرة؟

سألني "جوي"، وهو يشمر كمي لأعلى، ويطلق صفيرًا هادئًا.

- وحْش.

نظر "كريستوف" إليه مستغربًا، فهو لا يفهم أمورًا كهذه. والحقيقة أنني نفسي لم أكن أتصور أن عضلات ذراعي قد تضخمت إلى هذا الحد. قال "كريستوف":

- ضخمة، لو قارنتها بجسده.

معه حق؛ يبدو أن نمو جسمي قد اقتصر في الأشهر القليلة التي مضت على ذراع واحدة، وهي تبدو مثل ذراع رجل كبير، وتميزها كل هذه العروق. ذراع عملاقة، لو صح تعبيري. استغرق "جوي" في الضحك، وهو يقلد مذيعًا في حفلة:

- سيداتي سادتي، أقدم لكم... "فرانك الذراع"!

"فرانك الذراع"! أجل! هز "كريستوف" كتفيه في لامبالاة، فهو لم ينسَ بعد المصير البائس للقبه الذي اختاره لنفسه. أشعة الشمس تسقط على نظارته،

فيحدق ليرى أفضل. بمن تذكرني سحنته؟ لا أستطيع أن أحدد. ربما واحدة من الشخصيات التاريخية، ولكنني قرأت الكثير من كتب التاريخ حتى صرت عاجزًا عن تحديد شخصية بعينها. سوف أرجع إلى الكتب إذن. قال "كريستوف":

- المهم هو أنه يتعقبنا.

وكأنني لست حرًا في الذهاب حيث أشاء.

- هو حر. يروح في أي مكان.

- تتعقبنا، "فرانكي"؟

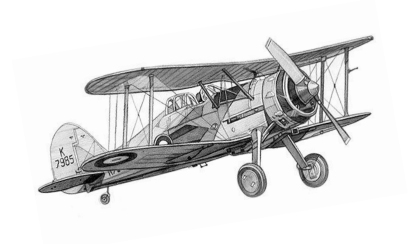
هززت رأسي، لأنفي ذلك بقوة.

- شفت؟ لا مشكلة. نراك قريبًا، "فرانكي".

عادا إلى حيث كانا يصطادان ولم يلتفتا إليَّ ثانيةً. ألقيا خيطا الصنارتين وجلسا فوق البازلت في هدوء. أدفع نصف عمري لأعرف عن ماذا يتحدثان. أم هما ساكتان، جالسان يتأملان المياه من دون كلام؟

تلك هي نوعية الأسرار التي أهوى التعرف عليها.

كم أشعر بالوحدة هنا.



7



الحيوان أفضل صديق لشخص وحيد. ولكن ليس أي حيوان. خذ الأرانب مثلًا؛ فلا نفع منها لأي أحد، ولا فائدة ترجة منها، فهي بليدة تمامًا. كما أن الكلاب تزعجني جدًا. كنت أرغب في اقتناء غراب، ذلك النوع من الغربان فضي العنق وصغير الجسد، أزرق العينين. غراب الزرع لطيف، والصوت الذي يخرج منه شديد الشبه بتمتمة إنسان. وخاصة في المساء، ساعة أن يحط سرب كامل منها فوق أشجار الجوز على امتداد "بليبرج"، ومن ثم تبدأ في الثرثرة، حتى يحل الظلام تمامًا، فتسكت هي عن الكلام المباح. كما أنها طيور نظيفة تعتني بنفسها. ترى الغراب منها يقف إلى جوار بركة ضحلة في أحد المراعي، ويميل على الماء حتى يبلل ظهره وجناحيه، حتى يتأكد من تنظيف جسده تمامًا.

أعرف أمكنتها. فهي تعشش في كل ربيع في مجموعة من الأشجار البائسة، حول بركة تخلفت وراء انهيار حاجز منذ زمن بعيد. في الماضي، كان انهيار جزء من الحاجز الذي يصد النهر بمثابة مأساة تتسبب في غرق كثيرين. حيث تندفع المياه بقوة لتتجمع في الحفرة العميقة التي نتجت عن انهيار ذلك الجزء. وعند إعادة بناء الجزء تبقى تلك الحفرة، ولكنهم يحيطونها بسياج شائك حتى لا يسقط فيها أي تعيس.

لذلك تحب غربان الزرع أن تعشش في فجوات الأشجار هناك حول البركة، ولذلك عمدت ذات مساء أربعاء إلى إقناع "سام" برغبتي في اقتناء واحدة من تلك الغربان.

- حاضر.

هكذا راح يدفعني أمامه، وهو لا يتوقف عن الثرثرة عن أموره التافهة. أحيانًا يخيل لي أنه يعاني من إعاقة ذهنية... من نوع لا أعرفه.

تطلعت عبر الأرض السبخة. كانت مياه النهر قد انحسرت عن منطقة الحاجز. ويبقى في الأشجار هناك ما يشبه الحلقات الداكنة، والتي يشير ارتفاعها في جذع الشجرة إلى الارتفاع الذي وصلت إليه مياه النهر أيام الشتاء. أرى فوقها تلك النقاط السوداء. أتحمس كثيرًا. الولاء والإخلاص... سبب آخر يدفعني إلى اقتناء غراب الزرع، فلا يفارق زوج غراب الزرع بعضهما البعض أبدًا، ولو أنك ربيت غراب زرع منذ الصغر فإنه يظل مرتبطًا بك ما حييت. هذا إن تمكنت من اقتناص غراب زرع وهو صغير.

- تتوقع مني أن أذهب إلى هناك؟!

سألني ما أن وصلنا إلى منطقة الأشجار. ولم أرد عليه.

أخذ يغمغم في سخط لثوانٍ، ولكنه في النهاية اتخذ طريقه في جانب الحاجز، على يديه وركبتيه. توقف عندً شجرة أغصانها منخفضة، ونظر لأعلى، حتى لمح غرابًا يدخل عشه. فبدأ يتسلق الشجرة. طارت الغربان في عصبية. تحوم حول الأغصان، وهي تعرف تمامًا أن مصيبة على وشك أن تحدث. شعرت بالبرد؛ فالشتاء لا يزال يعاند الرحيل. بدأ الظلام يتزايد، وصارت الرؤية أصعب. بدت لي الأشجار مثل أشخاص تناولت سمًا وتحتضر؛ اللحاء على جذوعها يتساقط، ليتركها عارية في مواجهة البرد. وصل "سام" إلى غصن في منتصف المسافة تقريبًا نحو الأعلى، ولا يزال يتسلق من دون خطة محددة. لا أعتبر "سام" ذكيًا أو نبيهًا. أبدًا أبدًا. الحقيقة أن لديه خصلة واحدة... الطيبة. هذا لو اعتبرت

الطيبة خصلة، ولم تعتبرها نقيصة... يلجأ إليها من عجز عن أن يكون شرسًا عنيفًا... مثل "ديرك".

وصل "سام" إلى قرب العش المنشود، لما توقف فجأة عن الحركة. دققت النظر، ولكني لم أتبين سبب توقفه. وسرعان ما أخذ يصيح؛ صياح ممتزج بالشتائم. هو مرعوب. ليس وقت أو مكان رعب على الإطلاق. مثل هذه المواقف هي التي تصيبني بالغضب. ها هو ذا، معلق بلا حراك بين السماء والأرض، وها أنا ذا، متسمر في الطريق: ليس بيدي أي شيء سوى أن أدور بالعربة وأعود أدراجي إلى القرية لأطلب النجدة، مع أمل أن يتمكن هو من الصمود حتى أعود إليه بها. هكذا أسرعت أتحرك بالعربة. حتى صرت على مسافة بعيدة منه، ولكني ما زلت أسمع صوت صراخه، وهذه المرة ممتزجًا بصيحات الغربان الغاضبة التي تحوم حول "سام"... المسكين.

عدت إلى القرية في الطريق التي تمر عبر "آختروم". منزل "جوي" أول منزل في ذلك الشارع. أنواره مضاءة؛ تذكرني بأنوار الصوب الزراعية. ضربت بيدي على الباب بكل قوة، حتى فتحت لي "إنديا". الدهشة واضحة على وجهها. لم أتمعن في ملامح وجهها من قبل، ولكنني الآن أدرك أنها جميلة. جدًا. وأدركت أيضًا في تلك اللحظة، أنها ستصل إلى نوع خاص من الجمال عندما تبلغ عمرًا معينًا، وأن الناس سينظرون إليها وهم ينتظرون وصولها إلى ذلك العمر على أحر من الجمر، مثل الفلاح الذي يراقب زرعه وهو ينمو، في انتظار يوم الحصاد. تختلف هيئة "إنديا" عن أخيها، فهي أنحف منه بكثير، ولكن العيون واحدة.

- أي خدمة؟

ابتلعت ريقي بشدة، ورفعت رأسي بعد جهد:

- آآآآآ... ججججج... وووو

- "جوي"؟... أنادي "جوي"؟

– آآآآآ... ييييووو...

تخيلت نفسي "تشيوباكا"... ذلك الوحش في فيلم حرب النجوم. عادت "إنديا" للداخل، وتركت الباب وراءها مفتوحًا. وكأنهم يصهرون معادن بالداخل، فالحرارة الخارجة من المنزل شديدة، والنور قوي. المنزل أشبه بالسخان الكهربائي في حمامنا. صاح أحدهم يطلب منها أن تغلق الباب، وهو بالتأكيد نفس الشخص الذي يدفع فاتورة الكهرباء.

– "جوي"! فيه واحد عايزك ع الباب!

أخبرني "جوي" من قبل أنهم سموها "إنديا" على اسم البلاد التي ولدت فيها. الهند. أما اسمها الأوسط فهو "لاكشمي"؛ إلهة هندوسية تجسد السعادة والحكمة. وأنا لا أعرف أي شيء عن الهندوس؛ فقط بعض أمور عن الساموراي. تزوج والداها في الهند، لأنهما يجدان ارتباطًا روحانيًّا بينهما وبين تلك البلاد. هكذا قال لي "جوي". كانا يعانيان خلال مراسم الزفاف من "الدوسنتاريا". وبينما كانت زهور اللوتس تتناثر فوقهما، كانا يكابدان حتى لا يسيل الإسهال على ساقيهما. واضطرت "ريجينا زاتزينجر" إلى أن تبقى في الحمام طوال أغلب الفقرات الموسيقية، لتفرغ ما في جوفها بكل معاناة الدنيا.

سمعت "جوي" يهبط درج السلم هادرًا. ووقف أمامي. ينظر إليَّ بجذل غريب.

– "فرانكي"... ازيك؟

نظرت إليه ساكتًا.

– طيب... ممكن أعرف إنت هنا ليه؟ فيه طريقة تعرفني بيها؟

أشرت بذراعي ناحية الحاجز النهري، وأشرت له أن يتبعني.

تذكرت الكلبة "لاسي"...

– طيب... لحظة... ألبس الكوتشي.

***

دفعني "جوي". يداه كلها طاقة. كنا في الساعة التي يتحول فيها لون كل شيء إلى الأزرق الغامق. قبل أن يهيمن السواد على كل شيء.

– بعيد عن هنا؟

أشرت إلى أمامي. انشغل "جوي" بالتحدث عن عجائب الفيزياء الحديثة، وهو موضوع يشغل باله كثيرًا هذه الأيام. "جوي" موهوب في التحدث لنفسه. مونولوجيست.

وفجأة، توقف في منتصف الطريق.

– ما هذا؟

كان يربت بإصبعه على وسادة أضع داخلها التيليسكوب. هدية من ماما؛ لأنها عرفت أن انشغالي بالنظر إلى الأشياء سيصرف عقلي بعض الشيء عن أي أفكار كئيبة بسبب إعاقتي. كان التيليسكوب ضمن بقية الأشياء التي أضعها جواري في العربة. سرعان ما سحب "جوي" التيليسكوب.

رفع عين التيليسكوب إلى عينه اليسرى.

– واو!!

أعرف أنه يرة من هنا الجانب البعيد من النهر والمنازل في تلك البقعة. هذا تيليسكوب من النوع الحديث الغالي. موديل "كوا 823" بقدرة زووم 20–60 وعدسة عريضة 32.

– دي هوايتك؟ تراقبنا؟ وفي الوقت نفسه مفيش حد عارف اللي بيدور في رأسك.

صوّب المسدس إلي كالبندقية. احمر وجهي من الحرج؛ وكأنه أمسك بي في حالة تلبس – أنا، من ظننت أن أحدًا لا ينتبه إلي، الآن حبيس نظراته. كم

شعرت بالفرحة والامتنان – هناك من يراني وينتبه إليَّ، ومن... الشخص الوحيد في هذا العالم الذي رغبت دومًا في أن ينتبه لي...

– أوكيه... ما تخافش. اهدأ.

وكيف لي أن أهدأ؟

أشرت له أن علينا أن نستمر في طريقنا، فمن المؤكد أن "سام" قد سقط الآن من فوق الشجرة، بينما نقف نحن هنا. ولكننا لم نجده فوق الشجرة، أو تحتها، لما وصلنا. مسحت بعينين مفزوعتين الأرض تحت الأشجار، ولكنه ليس هناك، لم أجده على الأرض متألمًا من كدمات في ظهره، أو جزع في ساقه. بينما عاد الهدوء إلى جماعة الغربان. ربما نجح "سام" في النزول وحده، وعاد إلى المنزل عبر الحقول. وبقيت أنا من دون الغراب المنشود. وقف "جوي" إلى جواري، وهو يجهل سبب وجوده في هذا المكان من الأصل. جذبته من كمه، فمال عليَّ.

– نعمل إيه دلوقتي؟

استعنت بيدي السليمة في تقليد حركة جناحي الطائر. قدر جهدي. ولكنها حركة بعيدة كل البعد عن قصدي. ولكني كنت أشير إلى ناحية الأشجار. نظر "جوي" إلى الطيور التي تحوم حول الأشجار، والسماء معتمة وراءها، ثم قال:

– تخميني أنك تريد غراب صغير، صح؟

ضحكت ضحكة شمبانزي نبيه.

– غراب من داخل عشة... ده سبب وجودك هنا؟

هز رأسه في دهشة وحيرة، ولكنه لم يتردد عن الذهاب إلى الأشجار، وتسلق شجرة في رشاقة النينجا، قبل أن يعود إليَّ في لمح البصر. في يده غراب صغير.

عينا الطائر الصغير عصبية، ومنقاره عريض مسطح. الزغب متناثر فوق جلده الأحمر المزرق. هذا أقبح شيء رأيته منذ فترة.

- عايز ده؟

كان غير مصدق. وضع المخلوق الصغير على حجري، فأحطته بيدي في عناية.

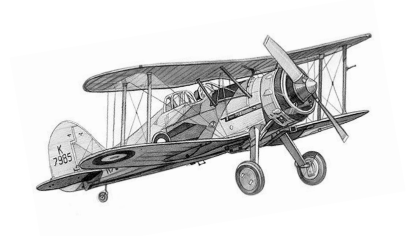
- خلي بالك... ممكن تموته.

الغراب الصغير دافئ ودهني؛ شعرت وكأنه قلب كبير ينبض في راحة يدي.

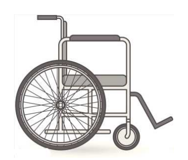
- كنت أعرف أن لكل إنسان حيوانه الأليف الذي يليق به.

جذب مقبضي العربة، وأدارها في اتجاه "لومارك". بقيت أحمي الغراب الصغير بيدي. سيكون عيني التي في السماء، وسوف أسميه "وينزداي"؛ على اسم اليوم الذي عثرت عليه فيه. بدأ مطر خفيف يهطل....

... وكنت سعيدًا.



8



لما بلغت الخامسة عشرة من عمري، عرّفت بابا وماما رغبتي في أن أنتقل إلى الغرفة الصغيرة في الفناء الخلفي لمنزلنا. صار بمقدوري في ذلك الحين أن أعتني ببعض الأمور البسيطة، ولن يكون من الصعب عليَّ أن أسخن الطعام لنفسي. ماما رفضت طلبي؛ أما بابا فقام بتجهيز المكان بمواد عازلة وزوده بمطبخ بسيط فيه بوتاجاز، وجهز دورة مياه. وثبت فوق الباب حدوة حصان أملًا في حظ حسن. هكذا صار بابا وماما جارين لي، وأدخل منزلهما للاستحمام والفرجة على التلفزيون أحيانًا. وشغل "وينزداي" قفصًا في جانب من المنزل، بعد أن اعتاد في ساعات النهار أن يستقر فوق كتفي مثل (بغبغان القرصان) الشهير. تعلم الطيران، وأحيانًا يغيب عني لنصف الساعة، ولكنه يعود دومًا إليَّ ما إن أصفر له.

هكذا شهد ذلك المنزل الصغير الذي صار ملكي بداية كتابتي لكل شيء. وأنا أقصد كل شيء. ربما يصعب على البعض أن يصدق أنني قمت بالفعل بتحويل كل لحظات حياتي إلى حروف على الورق؛ بحيث يكفي أن تنظر إلى مذكراتي فترى كل تفاصيل حياتي، ثانية بثانية – هكذا تبدو 365 يومًا على الورق، هذا هو شكلها. وتحولت سنوات عمري إلى جبل ورقي ينمو مجسدًا الماضي. في تلك الأوراق كل الأحداث؛ سواءً التي شهدتها أو التي تصادف أن حكى لي أحد عنها. فلو أنك زرتني اليوم، مثلًا، فسوف أكتب عن هذا. كل ثانية وكل دقيقة مرت عليَّ. ولو وجدت فيك ما لفت انتباهي، أذنًا غريبة أو أنفًا جميلًا، فسوف أكتب

عن هذا أيضًا، وسأكتب عما أتيت لتفعله وعن كيفية فعلك له. كما أكتب عن كل شيء آخر أيضًا: مطر الخريف، وكيف أنه يزيل اللون الأشقر من شعورنا، تمهيدًا ليحل محله لون الشتاء الداكن، وعن النهر الذي يجري خلال حياتنا جريان الدم في أجسادنا.

أتذكر دومًا وأنا أكتب محارب الساموراي العظيم "مياموتو موساشي"، الذي قال إن الساموراي يسير على دربين: درب السيف، ودرب الفرشاة – يقصد القلم. وطبعًا، درب السيف صعب عليَّ، ولم يبقَ لي سوى درب القلم. عرفت تلك المقولة من كتاب "الحلقات الخمس"، الذي وجدته في المكتبة، واستعرته، ولم أرجعه أبدًا.

"موساشي كينسي" أي قديس السيف، ولم يخسر معركة واحدة في حياته. اسمه بالكامل "شينمين موساشي نو كامي فوجيوارا نو جنشين"، وبين أصدقائه "موساشي" فقط. ولد في اليابان عام 1584، وقتل أول خصم له وهو في الثالثة عشرة. وكما قيل عنه، لم يخسر أي معركة بعدها. كان أسطورة عصره، ولكنه ذكر أنه لم يفهم الاستراتيجية إلا وهو في عمر الخمسين. وكتاب "الحلقات الخمس" يشرح لك كيف تقاتل مثله، ولكنه ممتلئ بالحكم والنصائح، التي تفيدك حتى ولو لم تكن رجل سيف.

"وبقوة الاستراتيجية، تمرنت على العديد من الفنون والمهارات – من دون معلم. وأنا لم أستغل في كتابتي هذا الكتاب أي من تعاليم "بوذا" أو "كونفوشيوس"، ولم أرجع إلى يوميات الحروب القديمة أو كتب فنون القتال. بل أمسكت بالفرشاة كي أشرح روح مدرسة "إيتشي"، كما هي في "طريق السماء". نحن الان في منتصف الليل، في اليوم العاشر من الشهر العاشر: في ساعة النمر".

وبعد عدة أسابيع من انتهاء "موساشي" من تدوين دروسه على الورق، مات.

استفدت كثيرًا من الجزء الخاص بالرؤية الاستراتيجية، والذي يعلمك أن ترى الأشياء أفضل. يقول "موساشي":

"يجب أن تكون رؤيتك واسعة منفتحة. تلك الرؤية ذات البعدين والتي تسمى "الإدراك والمشاهدة". فالإدراك قوة، أما المشاهدة فهي ضعف. وفي الاستراتيجية، من المهم أن ترى الأشياء البعيدة كما لو كانت قريبة، وأن ترقب الأشياء القريبة من على البعد".

يا لها من حكمة.

بدأت كتابة مذكراتي كنوع من الاستثمار. قلت لنفسي: لو أنني كتبت بالضبط ما يجري، فسوف يأتيني الناس مستقبلًا ليسألوني عن أحداث وقعت في يوم بعينه، وليكن 27 أكتوبر، فسيكون من السهل علي أن أحضر المجلد الذي يحتوي على ذلك اليوم وأعثر عليه فورًا. ها هو ذا... 27 أكتوبر... منذ عامين، حين هبت عاصفة جنوبية غربية عاتية أحدثت الكثير من الأضرار. سقطت أشجار، وتصايحت أجهزة الإنذار في السيارات في كل مكان. يومها، وبكل إخلاص وتفاني الدنيا، خرج القائم على ملعب النادي ليعيد ترسيم خطوط الملعب، بكل عزم وتصميم. وأعجبتني روحه. ولكن لم تمر سوى ساعة حتى تم الإعلان عن إلغاء كافة المباريات الرياضية لسوء حالة الطقس.

حولت الرياح الشرسة الكبار إلى أطفال، كلهم مرح وحماسة، وبعيون لامعة لا يعتريها أي قلق. هذا هو ما لفت انتباهي؛ أنهم غير قلقين، حتى وبلاط الأسقف يتطاير، وأغصان الأشجار تسقط على السيارات. في ذلك اليوم لم تترك العبّارة مستقرها. وجن جنون النهر وأمواجه الرمادية.

وفي 28 أكتوبر، انتهت العاصفة. وحان وقت العمل وإصلاح ما تضرر.

وبعد أن أعرض لهم ما هو مكتوب، أضع أمامهم الورقة: "النقود، من فضلكم".

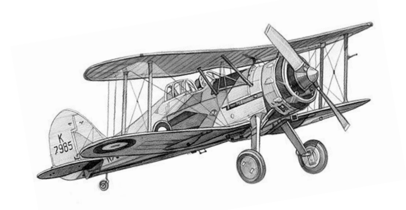
ولكني عرفت أن الناس لا يهتمون لأمور مثل هذه. فهم غير معنيين بما حدث فعلًا. ويحبون الارتباط بقصصهم الخيالية وكوابيسهم، ولا حاجة لهم بقصص "فرانك أبو ذراع". فسوف تبقى على الرف حتى يأتي يوم يقرر فيه أحدهم أن يكتب تاريخ "لومارك"، فيعتبرها عندئذٍ كنز الكنوز. في ذلك الحين فحسب سيعرف الكل أن لعملي قيمته الحقيقية. وحتى ذلك الحين ستبقى مجرد أكوام من الأخبار القديمة التي لا ينتفع بها أحد.

أحتفظ بمذكراتي في صناديق أرصُّها عند الحائط الخلفي. وأنا أكتب كل يوم. ينقب المؤرخون والأثريون عن الأشياء في أعماق الماضي؛ وأنا أفعل الشيء نفسه مع الحاضر. يمكنك أن تسمي ما أقوم به (تأريخًا أفقيًّا). وقد خطرت لي تلك المقارنة ذات يوم خلال حصة الجغرافيا، وكانت عن التعدين السطحي والتعدين تحت الأرض. فليس هناك حفر في أعمال التعدين السطحي، بل يتم استخراج المعادن بكشطها من فوق سطح الأرض. أما في التعدين تحت الأرض فسيكون عليك أن تتعمق لأسفل، ولهذا يحفرون قنوات في الأرض.

وبدا لي مجاز مفيد.

لقد نجحت، إلى حد ما، في أن أنفي ضرورة عمل المؤرخ. فلو أن أي مؤرخ عثر على مذكراتي، فسوف يأخذ منها ما يحتاجه، وينمقه ويعيد صياغته، قبل أن يزعم ملكيته لها. فهم ليسوا سوى لصوص ونشالين، مثلهم مثل كتاب القصص والروايات. ولكنني لا أهتم طالما أنه سيأتي يوم يعرف فيه الناس كل شيء عن "جوي"؟ تلك الأمور التي أعرفها، وليس ما يزعم "كريستوف" وشلته أنهم يعرفونها.

تلك ليست الحقيقة... بل مجرد أكاذيب وأساطير.



9



نادرًا ما تؤثر علينا الأحداث العالمية بشكل مباشر هنا في "لومارك". أحيانًا نعرف مثلًا من ارتفاع أسعار الوقود أن هناك أزمة ما تجري في الشرق الأوسط، وحين تغطي طبقة من التراب الأحمر السيارات بعد موجة مطر ندرك أنه كانت هناك عاصفة عاتية في الصحراء الكبرى؛ وبخلاف ذلك تمر علينا أحداث الدنيا مرور الكرام. ولكن حينما يظهر في "لومارك" طبيب أسنان جديد، فهذا معناه أن ظهوره نتيجة لتقلبات السياسة الدولية. والحقيقة أننا ندين بالفضل في قدومه إلينا إلى تلك الخطبة التي ألقاها رئيس جنوب أفريقيا "فريدريك ويليام دي كليرك" يوم 2 فبراير 1990. يوم أن ألغى "دي كليرك" الحظر المفروض على حزب المؤتمر القومي الأفريقي. وكذلك إعلانه الإفراج عن "نيلسون مانديلا"، الزعيم ورمز النضال ضد التفرقة العنصرية. يقول عنه أنصاره إنه "رجل امتلك حكمة الرب"، ويضعونه في المرتبة نفسها مع "مهاتما غاندي".

في 1990، خطا "مانديلا" خطواته خارج بوابات السجن، وما هي إلا ساعات حتى كان يلقي أول خطبة له منذ سبعة وعشرين عامًا. ومن بين المعلومات العجيبة التي أذكرها أنه نسي نظارة القراءة هناك في الزنزانة، واضطر إلى استخدام أخرى استعارها من زوجته. وبعد ثلاثة أعوام تشارك "مانديلا" و"دي كليرك" في الحصول على جائزة نوبل للسلام، وفي عام 1994 خلف "مانديلا" سلفه "دي كليرك" في منصب رئاسة جنوب أفريقيا.

أدت كل تلك التحولات إلى توترات إجتماعية هائلة في تلك البلاد، وإلى صراع على السلطة والثروات. وكان "يوليوس ياكوب إيلاندر"، طبيب الأسنان، وزوجته "كاثلين سوارث إيلاندر"، من الجيل الرابع للمهاجرين الأفارقة. وكانا يراقبان الموقف، وجيرانهما يعلون السوار حول فيلتهما، ويركبون أنظمة إنذار بالغة الحساسية، حتى إنها كانت تنطلق لمجرد سقوط ورقة شجر أو حركة من حيوان زاحف. لم ينتظر "آل إيلاندر" اكتمال تلك التحولات. حملا متاعهما وقصدا أوروبا، عائدين إلى هولندا التي فارقها الأجداد منذ القرن التاسع عشر.

وفي يناير عام 1993، وصلا إلى مطار "سكيبول". وبعد بضعة أسابيع أمضياها لدى أقارب لهما من بعيد، وبضعة أشهر في كوخ صيفي وسط أشجار الصنوبر والبيوت المتنقلة، صارت لـ"يوليوس إيلاندر" عيادة أسنان هي الوحيدة في "لومارك"، وأصبح الرجل مسؤولًا عن ملء أفواهنا بالحشوات والطرابيش والكباري، وبقية ابتكارات ترميم الأسنان الخربة.

عيادة "إيلاندر" في الطابق الأول من المبنى الذي يسمونه هنا "البيت الأبيض"، ولكن اللوحة على واجهته تسميه "كواتريس براس". ورزق "يوليوس" و"كاثلين" بابنة، وسمَّياها "بيكولين جين". "بي جي" اختصارًا. وكانت هي الثالثة من تلك العائلة في المدرسة، بعد "جوي" و"إنديا".

لم نصدق أعيننا لما رأيناها أول مرة. كانت ترتدي تاجًا من الشعر الأشقر الصاخب، الذي ينسدل متألقًا على كتفيها. أراها فأفكر في المحيطات ورغوة أمواجها، وفي مذكراتي العديد من الصفحات عنها. بشرتها شاحبة، وجهها عريض، مع عينين زرقاوتين مسحوبتين بطريقة لم أرَ لها مثيلًا. تلتف الفتيات حولها في الفسحة، وتمررن أياديهن على شعرها المجعد المنسدل في سلاسة. تريد الفتيات مصادقة "بي جي". طريقتها في الكلام تثير إعجاب الكل. لها تلك اللكنة الأفريكانية الغامضة جدا، والتي تجعلك وأنت تسمعها تتأرجح بين مرح وفضول.

قالت لنا إنهم كانوا في بلدة اسمها "دوربان". وهو اسم سيكون له وقع ساحر، مثله مثل "نينوى" أو "أصفهان". السماء فوق "دوربان" صافية حارقة، حتى إن العرق يتحول ملحًا له مذاق على بشرتك. أتخيل "بي جي" وهي تتجول في "دوربان"؛ وأكتب ذلك في مذكراتي، وأضيف عليه صياح بغبغان الكوكاتو، واستكشاف القرد فوق الشجرة لأعضاء جسمه. أكيد أن السماء هناك مختلفة عن سمائنا؛ وأكيد أن عيني "بي جي" تعكسان آفاقًا تتجاوز آفاقنا، وأراهن أن فيهما سرًا، بل أسرار، ليس كمثلها أسرار. أسرار علاقتها بالنور وليست مثل أسرارنا المظلمة الآثمة التي يئست المغفرة منها، بعد أن أصم القس آذانه عن همس اعترافاتنا. ولدت "بي جي" من مزيج من نور، بشرتها شفافة، ولكن شعرها مثل عيدان قمح ملتهبة...

هناك نهضة حقيقية جارية في جنوب أفريقيا. تتفوه بجملة في هذا الموضوع؛ قد لا نفهمها، ولكننا ندرك أنها مميزة، وإلا لماذا جعلتنا نذوب هكذا؟ وبينما كان آباؤنا يقبعون في كرسي والدها وهم يرتجفون ألمًا وخوفًا، بينما يستخدم الرجل كل أسلحته لقهر أسنانهم الواهنة، كنا نحن نجلس في نور طلة "بي جي". هيا... قولي لنا جملة أخرى... تجعلنا نرتعد ولهًا. لا تحرمينا ذلك.

كنا في تلك الأيام التي حَلَقْ فيها "جوي" شعره لأول مرة. كان يجلس على كتلة محرك قديم في الجراج خلف منزله، بينما انهمك "كريستوف" في قص شعره بالماكينة مارًا عبر فروة رأسه. تساقط الشعر الكثيف في بطء نحو الأرض، ولم يبقَ منه سوى أثر ضئيل، وظهرت ندوب في الرأس. الآن صار أشبه بفارس بدوي من تلك السهول، بتلك العينين المسحوبتين؛ واحد من قبائل "الأوغر أو الهون". "جوي" فارس مغول "الهون" يمتطي فرسه المنغولي الذي لا يكل ولا يمل. سأله الناس من قبل إن كان في أسلافه شخص زنجي، أو ربما آسيوي، وذلك لأن ملامح "جوي" كانت مزيجًا محيرًا من مختلف السمات التي تميز عديدًا من الأعراق. كان في وجه "جوي" سمت كل الأجناس، ولكني وحدي رأيت فيه ذلك الوجه...

... وجه فارس مغولي مقادم... وسط سهول منغوليا الواسعة.

10



زادت شلة "جوي" و"كريستوف" واحدًا... "إنجل إلفيلد"؛ أجل، من يساعدني على الذهاب إلى الحمام. وكان ذلك يوم أن راح "جوي" و"إنجل" للصيد معًا. واصطاد "جوي" سمكة كراكي؛ وهذا النوع موجود بكثرة في تلك البرك. قال لي "إنجل" ذات مرة أن والده أخبره أن بوسع المرء أن يرى معاناة المسيح داخل رأس تلك السمكة. وذلك لأن عظام جمجمة السمكة تتخذ شكل المطرقة، والمسامير، والصليب. هكذا قاما بفتح الجمجمة، ولكنهما لم يعثرا على شيء من هذا أبدًا. ولكن من ساعتها صار "جوي" و"إنجل" صديقين.

كما قلت لك من قبل، "إنجل" من تلك النوعية التي ربما لا تنتبه إليها طوال حياتك، حتى تأتي لحظة تلمحه فيها ومن حوله هالة من نور. كذلك كان حال "إنجل" مع الجنس اللطيف. لم يكن له أي علاقات غرام مع فتيات الفصل. بدلًا من ذلك، كان مشغولًا بأعاجيبه الهندسية التي يضع مخططاتها وتصاميمها على ورق مفكرته، وهي بالفعل عجيبة، وكان يمكن أن تجعل له اسمًا وشأنًا عظيمًا، لولا أنه ما إن ينتهي منها حتى ينسى أمرها تمامًا. وذات يوم، ومن دون مقدمات، وقعت "هيلين فان باريدون" و"جانا جريفيون" في غرامه. لم أجد لذلك أي سبب واضح. كان هذا في نفس الأسبوع التي انضمت إلى فصلنا فيه "هاريت جالاما" (الصدر الكبير) و"إنيكي دي بوير" (الصدر الأعظم). وانقلبت الأمور رأسًا على عقب. انطفأ بريق الوجوه القديمة في الفصل،

وراح السحر كله إلى "إنجل"، الذي أغرمت به فتاتان – أو ربما ثلاث أخريات. ومن دون أن يظهر أي أمارة على كل هذا الحب، اصبح "إنجل" فتى أحلام بنات المدرسة. وامتلأت جيوبه بقصاصات ورقية ارتسم على كل واحدة منها، وبخطوط مرتعشة من فرط لوعة الإعجاب، قلب ساخن بداخله اسم صاحبته.

أنا أجد "إنجل" في صفاء وعفوية الماء. يقول "موساشي"، في مقاله عن الماء، في ذلك الكتاب الذي حدثتك عنه منذ قليل:

"لما يكون أساس الروح ماءً، تصير الروح ماءً. والماء يتشكل حسب الإناء الذي تضعه فيه؛ وأحيانًا يتدفق، وأحيانًا يهتاج مثل بحر عنيف".

كان "إنجل"، ويجب أن أعترف له بذلك، لافتًا للنظر في دوره الجديد... كازانوفا. وتعامل مع كل هذا الاهتمام بسلاسة ساحر خفيف اليد، حتى صارت الفتيات تستقبلنه بابتسامات خجولة على وجوههن، ولكنه لم يهتم بذلك إلا قليلًا، ولم يفعل تجاه الابتسامات أي شيء يذكر.

هو مثل "جوي"؛ انبهر مبكرًا بظواهر العلوم الطبيعية. فذات يوم، فتح صيدلية الحمام بكل جرأة وقوة، وهكذا سقطت على الأرض زجاجة غسول فم ومعها شريط أقراص فيتامينات، وفرشاة أسنان قديمة؛ ولاحظ هو أن الزجاجة والشريط والفرشاة كلها سقطت في اللحظة نفسها رغم اختلاف أوزانها.

- "نيوتن".

هكذا رد "جوي" لم سمع الحكاية/ الاكتشاف من "إنجل".

- أوه... حظ... أنا فكرت أن...

- أسمع... أنسى "نيوتن". ذلك رجل من أيام كان الرجال فيها يرتدون باروكات. رجلنا هو "جوديير".

لم يكن أحد منا يفهم معنى كلامه.

– اسمه "تشارلز جوديير"، أول شخص صلّب المطاط بالكبريت. كانت ثورة علمية. لو أن "كوبرنيكوس" هو الذي عرف أن الأرض كروية، فإن "جوديير" هو الذي جعل الناس تلف الأرض على عجلات. زمان كان المطاط مشكلة كبيرة. كان بينعم جدًا عند التسخين ويتحول صلب كالحجر لما يبرد. لم يجد الناس حلًا للمشكلة، ولكن "جوديير" كان مغرمًا بفكرة المطاط. أخذ يجرب ويجرب لسنوات، ولكنه كان يفشل. حتى قام في يوم بمزج الكبريت بالمطاط، وسقطت من ذلك المزيج كمية بالخطأ فوق فرن ساخن. وحدثت المعجزة: تصلّب المطاط. حدث ما كانت البشرية تنتظره، وبدأ كل شيء، بعد أن جعل المطاط العالم يلف ويدور. على عجل من المطاط! ولكن "جوديير" كان الخاسر الوحيد، وعجز عن حماية اختراعه. ومات مفلس. مات شهيد العلم. ضحى بحياته في سبيله.

سكتنا. كنا نشعر بنفس ذلك الحزن الذي تشعر به وأنت تسمع قصة عازفي موسيقى الجاز الذين دومًا ما يموتون مفلسين. تتمنى لو أن مأساتهم بسبب أخطاء ارتكبوها، حتى لا تشعر بكل هذا الحزن. في ساعات الظهيرة، وقت أن كانوا جالسين في جراج "جوي"، دفعت "إنديا" عربتي إلى مكانهم. كانت "إنديا" طيبة معي. هي تستلطفني منذ ذلك اليوم الذي حضرت فيه لأطلب من "جوي" أن يساعدني في إنزال "سام" من فوق الشجرة. وعندما كنت أحضر إلى "آختروم" في الأيام التي لا أجد ما يشغلني فيها، وأشاهد دراجاتهم مركونة عند البوابة، كنت أظل أطرق على الباب طرقات ضعيفة براحة يدي حتى تفتح لي الباب. وكانت تدفع عربتي بروح مساعدة لطيفة، إلى أن تضعني بين "جوي" و"كريستوف" و"إنجل". كان الجراج دومًا ممتلئًا. وليس فيه سوى كرسي واحد، يخصص لإنجل. ربما أقول ذلك لأنني لم أرَ أحدًا يجلس عليه غيره. وربما كان سبب ذلك هو خشيته على ملابسه من الاتساخ؛ وأنا لم أرَ في حياتي شخصًا غيره يحرص على ارتداء بدلة كاملة تفصيل وهو لا يزال في سن السادسة عشرة. أما "جوي" فيجلس إلى الدكة الخشبية، و"كريستوف" على محرك قديم. كان الجراج مركز القيادة الذي فيه يضعون خططهم. يعملون داخل هذا المكان الحقير، الذي تفوح منه رائحة لحام قديم

وزيوت متنوعة محترقة، على تفكيك العالم، حتى يمكنهم إعادة تركيب أجزائه من جديد حسب هواهم. قال "جوي":

– لكن لا فائدة من الإطارات المطاطية طالما أن الطرق غير مسفلتة. فأنت بحاجة إلى طرق أسفلت، وليست تلك الطرق القديمة التي جهزوها بالتراب المدكوك وكسر الزلط. لا يمكن للسيارات أن تمشي عليها، كما أنها تثير الغبار كلما مرت عليها أي مركبة. هنا أتى دور "ريميني" و"جيراردو".

نظر "جوي" إلى "كريستوف"، فوجده سرحانًا يلعب بأصابعه.

– هي نفسها قصة أسفلت "بيثليم"، "كريستوف". أهلك يدينون بالفضل لهما. المهندسان طبعًا!

أصدر صوتًا مكيانيكيًا، صنعه بلسانه. وأشار "إنجل" له برأسه أن يستمر في كلامه.

– الحقيقة أن الموضوع سهل. خطرت لريميني و"جيراردو" فكرة نزع كل الأحجار من الطريق وبعدها سد تلك الفجوات بالرمال. وبعد أن يقوم وابور الزلط بتمهيد الطريق تمامًا، يقوم عمال برش القار المغلي ليصنعوا به طبقة فوق الطريق. ثم تضاف طبقة خفيفة من الرمل، ويتركونه يومان ليجف، وهكذا صارت لديهم أول طريق سريعة.

قال "كريستوف":

– نسيت اختراع محرك الاحتراق الداخلي. هذا أهم بالنسبة لي من المطاط والطرق.

وكأن كلمات "كريستوف" لكمات وجهها إلى معدة "جوي"، الذي أجابه بكل ضيق:

– أووف. هذه حكاية مختلفة تمامًا. الحصان والعربة، والتوربين البخاري، ومحرك الاحتراق الداخلي. أقول لك على شيء: نحن البشر لدينا أربعة عناصر، أوكيه؟ وعلى الإنسان أن يروضها: النار، والماء، والتراب، والهواء...

جذبني كلامه على الفور: فقد كانت تلك هي أسماء الفصول الأربعة الأولى من كتاب "موساشي": التراب... الماء... النار... الرياح. (لم يكن الفصل الأخير سوى صفحة واحدة: الفراغ).

– النار هي العنصر الأول. وهي التي حولت ظلمات عصور ما قبل التاريخ إلى نور.

لوّح بيده نحو ما وراء كتفه، وكأن عصر ما قبل التاريخ يقبع وراء لوح الأبلكاش الذي يقسم الجدار، والذي رسمت عليه أشكال الأدوات والعدد، بنفس الطريقة التي يرسمون بها شكل جثة ضحية جريمة قتل باللون الأبيض على الأسفلت وهي لا تزال فوقه. أنت لن ترى أبدًا تلك العدد والأدوات وهي معلقة في أماكنها هناك؛ في الورشة خلف منزل "جوي"، فقد خرجت ولم تعد.

– كانت النار بداية الحضارة. بعد ذلك كان الماء، المهم للمزارعين. فالري يعني زيادة الإنتاجية والازدهار. ثم التراب: التربة للمزارعين، والطرق للتجار. ومن الطريق تأتي العجلة. والتاجر والجندي أكثر من استفادوا من العجلة، وكل عجلة ترس صغير في علبة التروس الكبيرة التي اسمها الأرض. إن جاز التعبير. وكلا العنصرين يصنعان معًا آلية معينة. فالعجلة أدت إلى محرك الاحتراق الداخلي، الذي ارتبط بالعجلة. فمحرك الاحتراق يحرك العجلة، والعجلة هي التي تدير العالم. هذه هي العناصر الثلاثة.

فكرت في نموذج الحركة الموجود في عربتي؛ عجلة ومطاط وأسفلت. تخيلت نفسي، أنا الذي صرت نصف إنسان ونصف عربة، للحظة حلقة صغيرة في تصور "جوي" لتاريخ العالم؛ دارت عجلاتي فوق سطح الأرض، وأسهمت في جعل العالم يدور.

– أوكيه. هكذا كان الهواء هو العنصر الأخير الذي لا بد من التعامل معه. وكانت الطائرة هي الوسيلة. ففي أواخر القرن التاسع عشر، كان أول شخص يطير بالفعل مهندسًا أيضًا: "أوتو ليلينتال". ظل يحاول، ويعافر، ويعافر، حتى تمكن من التحليق بجناحين على ظهره، وكأنه طائر. كان هذا هو الخطأ الذي

وقعوا فيه جميعًا، كل شخص حاول أن يطير؛ تقليد الطيور كان سخافة في الحقيقة – فلو قارنا الجناحين ببقية جسم الطائر لوجدنا أنهما هائلان وقادران على حمل الطائر، ولكن هذا لا ينفع مع ذراعي الإنسانية مهما كانت قوية. خطأ التفكير هذا هو الذي أخر موضوع طيران الإنسان فترة أطول من اللازم. ولكن "أوتو" طار مسافة خمسة عشر مترًا، وكان هذا أمرًا لا يصدق! وفي خلال عامين كانت أول طائرة "زبلين" تحلق في السماء، صامتة وجميلة، ولكنها كانت مثل قنبلة في الهواء. الفكرة الصح هي أن تجمع بين محرك الاحتراق الداخلي وجناحين. وكان ذلك في أمريكا، لما طار أحد "الأخوين رايت" ستة وثلاثين مترًا؛ أي ضعف المسافة السابقة – ثورة طولها واحد وعشرون مترًا! وبعدها انفتح المجال؛ وزاد عدد الطيارين والمحلقين في كل مكان، وتسابقوا في تحطيم الأرقام القياسية لبعضهم البعض. وكان الخبر العجيب هو تحليق طائرة لمسافة كيلومتر فوق باريس! ثم جن جنون إنجلترا لما نجح طيار في عبور القناة في رحلة واحدة. وانبهر العالم بتحليق "أنتوني فوكر" فوق "هارليم"!

لما تبلغ به الحماسة هذا الحد، يتحول "جوي" إلى ساحر حقيقي مجنون.

– والغريب أنه في نفس الزمن الذي كانت قد وصلت فيه الأبحاث على الذرة إلى مستوى عالٍ، لم تكن الطيارات قد تجاوزت مرحلة الهياكل الخشبية البسيطة.

ولكن "إنجل" بادره، وقد وجدها فرصة:

– لا، هذا طبيعي. عقل الإنسان سباق إلى الابتكار. الفكرة تسبق المادة. لا يوجد ما يمنعنا من التفكير في كل شيء، ولكن الصعوبة في تنفيذ تلك الأفكار. هي دي المهمة الصعبة.

– الصبر سلاح المهندس.

في تلك الثانية، حوّل "كريستوف" مسار الحوار تمامًا:

– عارفين إن أم "بي جي" من أنصار العري؟

- "بي جي"؟

وضح "إنجل" الصورة لـ"جوي"، قبل أن يتساءل:

- "بيكولين جين". البنت الجديدة؟ الشقراء بشعر كيرلي؟ من جنوب أفريقيا؟

هز "جوي" كتفيه في لامبالاة، بينما كانت فرصة "كريستوف"، الذي وقف مفارقًا المحرك القديم:

- تقصد إنك لم ترها؟ لا أصدقك!

- ممكن أكون قابلتها.

كيف عرفنا إذن أن والدة "بي جي"، واسمها "كاثلين إيلاندر"، من أنصار العري؟ ربما كان هذا من ساعي البريد الذي يسلم مجلة "أثينا"، وهي مجلة نادي اتحاد محبي الطبيعة والذي يحمل نفس اسم المجلة، إلى (السيدة. ك. إيلاندر- سفارث) كل ثلاثة اشهر، صح؟ أم من ذلك الكابتن المتفاخر من "لومارك"، والذي زعم أنه رآها عارية عند أحد الشواطئ بين البرك؟ أم أنها مجرد إشاعة اكتسبت مع الوقت صفة الحقيقة وراجت؛ تقول أن "كاثلين إيلاندر" عجزت في يوم من الأيام عن مقاومة رغبة عارمة في أن تتجه إلى النهر، ثم تتخلص من ملابسها، لتسبح عارية. مهما كان السبب، فإننا الآن نعرف. ولم يسبق لأحد منا أن رأى في حياته واحدًا أو واحدة من أنصار العري. ولكن الموضوع مثير لاهتمامنا، بطبيعة أحوالنا.

نظر "إنجل" نحوي. عيناه بنفس لون حبر قلمي المفضل. هو يعرف كم أحب هذه الجلسات التي يتصدر فيها "جوي" المشهد ليحكي لنا عن نظرياته وأفكاره التي تطال السحاب.

حكى "كريستوف": كيف أن السيدة "إيلاندر" تقوم في كل صباح باكر، لتتمشى إلى النهر، وتستحم فيه عارية. وقال كذلك إنها تتجول عارية في الحديقة خلف "البيت البيض".

واندمج "كريستوف"... ساقاها طويلتان غريبتان. ولكن الساقين ليستا اللاعب الأساسي في خيالاتنا عن العاريات. قال إنه رأى أشياء أخرى. أشياء حبست أنفاسه. هي أم، ولذلك فهي كبيرة السن، ولكن بعد شيوع موضوع حبها للعري تحولت بالنسبة لكثيرين إلى مخلوق جنسي له سر شديد الخصوصية، وامتلأت عقولنا بأسئلة تحرقها، واشتعلت رغباتنا.

لم يجد "جوي" بيده من حيلة، سوى أن يدلي بدلوه:

– هل يمكننا أن نشاهدها؟

لكن "كريستوف" هز رأسه رافضًا الفكرة:

– فيه سور حول الحديقة، وهي تسبح دائمًا في الساعة التي تسبق شروق الشمس.

داعب "جوي" أحد المسامير الكبيرة في شرود، وحركه بين أصابعها المتمكنة وكأنه فنان في مسرح عرائس. كان "وينزداي" ينعس فوق كتفي. ذلك الغشاء الواقي لعينيه الصغيرتين منسدل فوقها. كبر وصار جميلًا. مخلوق أنيق فخور بنفسه، مدرب على أن يأتيني كلما صفرت له.

يبدو أن اختيار "جوي" له كان عين الصواب، فلا أعتقد أن هناك غرابًا أجمل منه. الريش حول عنقه وعلى قفاه بلون رمادي فضي جرافيتي؛ وعندما يمشي يصنع بتمايل رأسه إيقاعًا منتظمًا. ولكن هناك فارق بينه وبين الزرزور، فتلك الطيور تعطيك عند مشيتها انطباعًا بأنها مسكينة مكسورة العين.

يطير الزرزور في مسارات دوامية حلزونية مدهشة، هذه حقيقة، ولكن بأعداد كبيرة تجعلك تتذكر تلك المدن الكبيرة التي يتدفق الناس بأعداد غفيرة في شوارعها متصادمين ببعضهم البعض، ورغم ذلك فلا أحد منهم يعرف الآخر.

في "وينزداي" نبل حقيقي، نبل داخلي، يميزه عن غيره من أنواع الطيور الحقيرة التي تقتات على القمامة وتعتاد الوضاعة؛ مثل الزرزور والنورس. هو قادر على أن يشاهد السيدة "إيلاندر" وهي تتمشى عارية في الحديقة، ولكن

الغربان لا تهتم بأمور مثل هذه. حاولت أكثر من مرة أن أتخيل نفسي في جسد "وينزداي" وهو يحلق في سماء "لومارك"، وأن أرى العالم من خلال عيني طائر محلق. كما يقولون. حلمي هو أن أحيط بكل شيء علمًا – وأن لا يكون هناك أي شيء خافٍ عني. وأن أكتب تاريخ كل شيء.

تسمرت عيوننا على "جوي"، مترقبين أن نستمع إلى أفكاره. نظر "جوي" إلى "وينزداي" بينما تتزايد سرعة تحريك أصابعه لذلك المسمار. مدهش. كيف يفعل ذلك بكل هذه السرعة؟ ولما سقط المسمار أخيرًا نحو الأرض، كان ارتطامه بها هو الإشارة التي أيقظتنا من ذلك السحر، فتحولت أعيننا نحو النقطة التي سقط فيها المسمار على الأرض الخرسانية بصوت معدني مميز، بينما رفع "جوي" حاجبيه في شرود. قبل أن يقول لنا:

– الموضوع بسيط... طالما نرغب في رؤيتها عارية... يلزمنا طيارة. طيارة من نوع خاص.



11



كانت الطائرة هي الآلة التي احتاجها الإنسان حتى يتغلب على الهواء؛ العنصر الأخير، كان هذا هو ما قاله "جوي" في تلك الظهيرة في الجراج. ولكنني لم أفهم ما قصده من كل هذا الكلام إلى أن أخبرنا عن فكرته أن يبني طائرته الخاصة؛ وستكون الطائرة هي الآلة التي ستحلق بنا إلى الجنة التي بين ساقي السيدة "إيلاندر". سوف تتيح تلك الطائرة لنا النظرة التي نتمناها، و"جوي" هو المهندس الذي سيحول هذا الحلم إلى حقيقة.

راقبت الطائرة وهي تنمو وتكبر، بعد أن كانت بذرتها هي عجلات محرك بخاري صغير وجدناها في ساحة الخردة، وحتى صارت ذلك الكيان الذي حلق به "جوي" من مطار مجاور.

بدأوا العمل على الطائرة عالية الجناحين في مستودع صغير عند حافة أراضي المصنع، وسط جبال سوداء من الأسفلت المتكسر المنقول من الطرق القديمة والمكدس هناك حتى تتم إعادة تدويره. كانت ماكينة الطحن الضخمة قد تحطمت منذ سنين بعيدة. وتقف الآن متداعية بين أكوام الأسفلت غير المصنع من جهة وأكوام نحيفة من المواد الخام التي لفظتها قبل أن تموت من جهة أخرى.

في العالم المعدني لمصنع الأسفلت، تندفع الجرافات ذهابًا وإيابًا بين أكوام من الحجر السماوي الأزرق والجرانيت الاسكتلندي الأحمر والكوارتز المزرق ورمال لها

العديد من الأصناف. يحضرون حجر التبليط بحرًا من مصانع ألمانية على طول نهر الراين الأعلى. وقد تجد العين المدققة فيها قطع من عظام وأنياب أفيال "سيبيريا"، وأسنان لسمك القرش متحجرة منذ عصور بعيدة. وكان لـ"كريستوف" تلك العين. فتجده يشير إلى أكوام من الرمل والحصى، ويتحدث ويشرح وكأنه مرشد أحد متاحف عصور ما قبل التاريخ؛ وهو بالفعل يسمي المكان "متحف مانداج". وبما أن "كريستوف" صبي المعلم، فلم يكن أحد يقاطعه؛ بوسع ثلاثتهم أن يفعلوا ما يحلو لهم، طالما أنهم لا يعطلون سير العمل.

وجاء يوم صارت فيه الطائرة بطول ثمانية أمتار كاملة: جسم الطائرة من أسلاك الصلب والأنابيب والكابلات وعارضتين، وكأنها إحدى الحشرات ذات الأرجل. أخبرني "جوي" أن العناصر الهيكلية تصمم دائمًا في شكل مثلث.

– من الناحية الهندسية، يعطيك المثلث هيكلًا قويًا. فهو أفضل من الهيكل المربع، وهو أساس كل هيكل ثابت.

بقي ذلك الكيان من دون جناحين حتى النهاية. فأنا لم أكن أصدق حقًّا أن هذه الطائرة ستطير بالفعل، وخاصة بعد أن تبين لي أن مقبضًا التحكم مصنوعان من أجزاء دراجة سباق. ولو كان الحارس "جراد هويسمان" في المصنع يعرف الغرض الحقيقي من أعمالهم في المستودع، لكان بالتأكيد منعهم من الحضور. ولكنهم لم يخبروا أحدًا بخططهم، ولم يسألهم أحد عن أي شيء أبدًا.

تناثرت الرسومات والمخططات والأدلة على أرضية المستودع. ينكب "إنجل"، والسيجارة "الدانهيل" في ركن فمه وقد أغلق عين واحدة أمام دخانها، على ورق يجري عليه العمليات الحسابية. وحتى يصنعوا ماص الصدمات أحضروا سوست التعليق من سيارة "أوبل كاديت" قديمة مهملة في أرض الخردة لشركة "هيرمانز وأولاده"، قبل أن يلحموها بين جسم الطائرة والعجلات. ثم رفعوا الطائرة بحبل مسافة متر ونصف المتر بعيدًا عن الارض، وصعد "جوي" إلى داخلها. حبسنا أنفاسنا. قطع "جوي" الحبل، فهوت الطائرة على الأرض. لم

يتحطم منها شيء، ولكن "جوي" خرج منها وهو يتوجع من ظهره. ولكنه أثبت عمليًّا أن الطائرة لن تتحطم أثناء الهبوط. فقال "إنجل":

- أوكيه... الآن يمكن أن ننفذ مرحلة القماش.

تسبق كل مرحلة جديدة في البناء سلسلة من السرقات الجريئة. وما هو مطلوب الآن هو القماش المشمع.

قال "إنجل"، المسؤول عن الشكل الجمالي للطائرة:

- لازم يكون بلون أزرق سماوي. أزرق سماوي ولا لون غيره.

***

يقومون بتجهيز استاندات سوق الجمعة في الشارع في الليلة السابقة، فيضعون أقمشة المشمع على طاولات ليجدها أصحاب الاستاندات والأكشاك في صباح اليوم التالي. ولكن ذات صباح يوم الجمعة في شهر أكتوبر وجد مدير السوق نفسه محاصرًا باحتجاجات مجموعة من الباعة الساخطين. أين المشمع؟ كيف يمكنهم تجهيز الاستاندات من دونها؟ هل هذا ما يحصلون عليه جزاء سدادهم الرسوم؟ ولم يجد المدير في ذلك اليوم سوى منحهم أقمشة مشمع قديمة مهلهلة من العام الماضي، ونشرت جريدة "لوماركر ويكلي" في ذلك الأسبوع تحقيقًا عن السرقة.

وفي الوقت نفسه، وفي مكان سري، كانت قطع المشمع ترتق إلى بعضها البعض بكل صبر وتصميم. وكان "إنجل" الرجل المناسب لهذه المهمة؛ فوالده، آخر صيادي ثعبان البحر في "لومارك"، هو من علمه كيفية إعداد فخاخ الصيد وعقد العقد التي لا تنفك أبدًا. لم يتوقف "إنجل" عن السخط والسباب طوال عمله، ولكن النتيجة النهائية جاءت مذهلة. فقد فرش المشمع بكل قوة ودقة على جسم الطائرة حتى صار مشدودًا مثل جلد الطبلة.

وكان "جوي" مسؤولًا عن الجناحين. فصنع إطاريهما من أربعة عشر شريط ألومنيوم علقها على العارضة الرئيسية لكل جناح، وكانت المهمة الصعبة هي أن يقوم بتطويع ثمانية وعشرين ضلعًا بنفس الزاوية بالضبط. ومن دون أن يطلب مني، تطوعت لأداء المهمة على الفور؛ يد قوية تعرف أن قوتها الذاتية، ونجحت في تنفيذ الانحناء الصحيح. سبعة وعشرون ضلعًا، وضلع إضافي لجلب الحظ لتصبح ثمانية وعشرين. تمت المهمة، سيدي.

لا يمكنني أن أصف لك مدى دهشتهم وذهولهم. تمتم "إنجل" ببعض السباب تعبيرًا عن إعجابه، بينما صاح "جوي":

- "فرانك أبو ذراع".

ومنذ ذلك الحين، صرت أنا المسؤول عن إحكام ربط وعقد الأجزاء، ضمانًا للمتانة وتأمينًا لتلك الأجزاء.

أمام بيت بابا، استخرجا محركًا من الألومنيوم من سيارة "سوبارو"، وقاموا بتثبيته في "أنف" الطائرة. وكان خزان الوقود من ذلك النوع الذي يستخدم في القوارب الصغيرة. أظهرت حساباتهم أن الطائرة تحتاج إلى إنتاج 130 كيلو سحب حتى تقلع من الأرض. فثبتوا عارضة وزن في الجدار وربطوها بالذيل بكابل من الصلب. وصعد "جوي" إلى داخل الطائرة وأدار المحرك. وبحق مدينة توليدو المقدسة، لقد جرت التجربة مثل الحلم. انشد الكابل، وتحرك المؤشر في عارضة الوزن إلى ثمانين كيلو، ثم تسعين.

ودارت المروحة بقوة، وصل المؤشر إلى مائة، وزمجر المحرك فتطاير الورق في أنحاء المستودع. طار "وينزداي" عن كتفي مذعورًا ناعقًا، وعند الكيلو مائة وعشرة وضع "إنجل" يداه على أذنيه ليحميها، وكان المحرك يقترب من 5500 دورة في الدقيقة، ليصنع دويًا رهيبًا. وصرخ "كريستوف":

- مائة وعشرون!!

لم يتوقف المؤشر عن الزحف، وزاد "جوي" من سرعة المحرك، حتى صاح "إنجل" يطلب منه أن يتوقف.

مائة وثلاثون كيلو سحبًا: لقد اجتازت الطائرة الاختبار.

***

ذات يوم، طلب مني "جوي" أن أساعده في تجربة بسيطة. قادني إلى طاولة العمل في المستودع، ثم جلس على الجانب الآخر منها. كانت الطاولة التي يستخدمها "إنجل" في رسوماته بيننا. سحب يدي اليمنى نحو يده حتى صار مرفقانا متوازيين، وهكذا كوّن ساعدانا زاويتين بقياس ستين درجة مع سطح الطاولة. وبحركة واحدة سريعة دفع "جوي" ذراعي للأسفل، مما جعل جذعي يميل بوضع غريب وأنا جالس في العربة. عاد لينصب ذراعي ويدفعها مرة أخرى، ولكن بقوة أقل هذه المرة، ولذلك استغرقت وقتًا أطول قبل أن يميل جذعي. لامس ظهر يدي الطاولة. نظرت إليه، وأنا أتساءل عما يريده مني. ولكنه عاد ليقيم ذراعي مستقيمةً مرة أخرى.

- أريد بعض المقاومة هذه المرة.

هكذا شددت عضلاتي مقاومًا. وشد هو عضلاته. بقينا على هذا الوضع أمام بعضنا لفترة من الوقت. ثم قام بدفع جسده بدرجة أقوى. ثم أقوى، حتى ظهر ذلك في عينيه، ولكني لم أتزحزح إلا قليلًا. صاح فيّ:

- مزيد من المقاومة... ياللا!

شددت أعصاب ذراعي، حتى عادت يدانا إلى منتصف الطاولة.

- جامد!

أخذت أدفع وأدفع، حتى استسلم هو.

- كان هذا صعبًا؟

هززت رأسي أنفي ذلك.

- صعب شوية؟

لم يكن صعبًا جدًا. هز رأسه متفهمًا ونهض. خرج من المستودع، قبل أن يعود ومعه قضيبان حديديان صدئان يحملهما تحت ذراعه. كان القضيبان متفاوتي السمك؛ وضع أقلهما سمكًا بين فكي المشد المثبت إلى طرف الطاولة.

قال لي وهو يدفعني إلى حيث المشد:

- انتبه إلي جيدًا، "فرانكي". هل يمكنك أن تثنيه؟

أمسكت بالقضيب وثنيته. وهكذا وضع القضيب الثاني في المشد.

كان هذا أسمك. عندما قمت بثنيه بزاوية لم أشعر بمقاومة كبيرة، ولكنه أجهدني أكثر. وجدت سعادة في قدرتي على ثني الأشياء.

وضع "جوي" آخر قضيب في المشد. كان أكثر سمكًا بكثير من الأولين. أحكمت أصابعي حوله، وسحبت، ولكن القضيب اللعين لم يتزحزح. زدت من قوتي وتركيزي، فأنا لا أريد أن أخيب أمل "جوي". صدر صوت غريب من حنجرتي، وكنت أجذب القضيب وكأن حياتي تتوقف على ذلك، ولكن شيئًا لم يحدث. ما سمعته هو صوت زجاج يتهشم، وصوت صراع المعدن مع الحجر. حتى استسلم - وانصاع ببطء نحوي. ما هذا الذي ينسال أنفي. دم أم مخاط؟

- واو... الكبير كبير!

تركت القضيب، ولدهشتي وجدته يرتد إلى مكانه وكأنه قطعة مطاط. صوت الارتطام كان عاليًا. تأوهت في خيبة أمل: لم ينثنِ القضيب، وتبين لي أنني لم أنجح إلا في رفع الطاولة المعدنية بأكملها من مكانها على الأرض - وكانت الأصوات التي سمعتها هي أصوات ارتطام الزجاجات والأدوات بالأرض. لقد فشلت.

- رائع. مذهل. أتعرف كم وزن هذه الطاولة؟

جلس القرفصاء إلى جواري. وجهه قريب من وجهي، وهو يحدق فيّ من دون أن يرمش، لاحظت أن التماعة عينه اليسرى مختلفة عن التماعة اليمنى، وأن اليمنى تحمل قدرًا أكبر من التعاطف وبدرجة لم أفهمها.

– ذراعك هذه قادرة على أن تجعلك شهيرًا جدًا... حافظ عليها... مين عارف!



12



كنا في الشتاء، وقد انسحب النهر لأسفل بعيدًا عن الضفاف. وارتفع التيار حول جزيرة "فيري"، لتختفي الأرض السبخة مترًا بعد متر، أسفل المياه الكثيفة الداكنة. ثم اختفى حاجز "لانج"، ولم يمضِ وقت طويل قبل أن يختفي كل شيء عدا لافتات المرور وأعمدة الإضاءة والأشجار، هي التي بقت حاضرة وسط المياه. هكذا أحضر "بيت هونينج" العبارة إلى خليج صغير هادئ إلى الشمال، وقام بتشغيل خدمته ما بين "لومارك" وجزيرة "فيري" مستخدمًا طائرة برمائية هي ملك مصنع الأسفلت. ينتظره العاملون في المصنع وهم يرتعدون من شدة البرد في كل صباح ومساء. المديرون ومعهم حقائبهم والعمال وبأيديهم صناديق الغداء. كان معظم رجال مصنع الأسفلت في إجازة بسبب سوء الأحوال الجوية؛ فالإنتاج يتوقف تمامًا ما إن يستحيل التنقل عبر طريق منتظمة بين جزيرة "فيري" والشاطئ. ولا يبقى جاريًا في المصنع إلا عمليات الإصلاح والصيانة والعمل الإداري. ويقف "بيت هونينج" عند مؤخرة الطائرة البرمائية غير مبالٍ بالبرد – يبدو أن جلد وجهه قدّ من نوع متين لا يبلى عبر السنين.

في فصل الشتاء يتحول سكان جزيرة "فيري"، مثل "إنجل" ووالده، إلى سكان جزر بالمعنى الحقيقي للكلمة. وقد بادروا بالتسوق في "لومارك" بما يكفيهم مدة أسبوع، ثم حبسوا أنفسهم بعيدًا في عزلتهم السنوية. كان من المعتاد أن يزور الجزيرة الكثير من الفوضويين الراديكاليين الذين يشربوا

منقوع البطاطس ويطاردون الأرانب البرية، وقد أمنوا العقاب، فلم تكن ذراع القانون طويلة بما يكفي لعبور تلك المياه. اشتهرت سمعتهم بأنهم لا يتورعون عن صفع الرؤوس عند أدنى استفزاز. ولكن هذا كله تغير، فلم يعد الناس يحبون ذلك. وهكذا تم ترويضهم. وصار بوسع أي شخص شراء زجاجة من الجن من أي محل، وعندما تراهم وهم يمشون مع كلابهم فإنك تتعجب: من يربي الآخر؛ الإنسان أم الكلب.

الآن يغطي النهر حاجز الشتاء، من خلال رقعة هائلة من الماء حولت بلدتنا إلى ما يشبه بلدة ساحلية. وعندما يحل الظلام على تلك الرقعة الغارقة من "لانج"، تبزغ أضواء الشوارع لتترك حلقات منتظمة من نور فوق المياه التي تتخذ طريقها نحو البحر.

انقطعت جزيرة "فيري" عن بقية العالم، ولكنني كنت الوحيد الذي أحس بالضياع. كنت خارج دائرة الضوء، وفاتتني أعمال البناء النهائية للطائرة. يعبر "جوي" و"كريستوف" المسافة فوق الطائرة البرمائية، بينما أراقب أنا الحاجز مثل كلب حراسة، أتطلع عبر المياه ناحية المصنع. يكونان في أغلب المرات بالداخل وليس فوق السطح. و"وينزداي" قابع فوق كتفي. ومنقاره لا يبتعد عن أذني.

ذكروا أن هناك موجة صقيع قادمة، وما هي إلا أيام وتتوقف هذه الطائرة البرمائية ويرتاح "بيت هونينج". والشجاع فقط هو من سيغامر باجتياز بحر الجليد، ولا يقدم على هذا الفعل واحد بمفرده، بل اثنين اثنين، يربط بينهما حبل ويحملان عصي الجليد تحسبًا لتعثر أحدهما. عندما تتجمد الأرض السبخة يصدر هذا التحذير: "اسحبوا المياه، وأضيفوا الكثير من الثلج، ثم أغلقوا الغطاء عليه".

بقيت أتساءل: كيف سيمكن للطائرة أن تطير في هذه الأجواء؛ فهم بحاجة إلى مساحة تماثل مساحة ملعب كرة، وهو الأمر الذي لم يعد ممكنًا.

كانت أراضي المصنع هادئة، والبولدوزرات ساكنة في مكانها وسط أكوام الزلط، والسماء صافية للغاية. أخيرًا، لمحت حركة على الجانب الآخر. نظرت عبر

التيليسكوب إلى "جوي" وهو يفتح بوابة المستودع. يدفع "كريستوف" و"إنجل" إلى الخارج هيكل الطائرة السماوي الذي لم يحمل الجناحين بعد. من الصعب علي أن أتخيل أن يتمكن هذا الشيء حتى من مفارقة سطح الأرض، حتى وأنا أعلم أن الجناحين لم يثبتا بعد. كأنني أشاهد أول طائرة يبنيها الإنسان. ها أنا أشاهد على البعد رغبة حقيقية في التغلب على الجاذبية وقد تجسدت في هيئة كتلة على عجلتين. هنالك منطقة الذيل، والمروحة، ومحرك، وسواء تمكن هذا الشيء من مغادرة الأرض أم فشل في ذلك فإنني شعرت بشيء سأجد وصفًا له بالكلمات فيما بعد، عندما أقرأ عن تاريخ السينما: "انتصار الإرادة". "جوي" هو من امتلك الإبداع، و"إنجل" من صمم الفكرة في صورة طائرة سماوية اللون... ثم "كريستوف"... الذي كان يتأكد من مستوى الزيت. وأنا؟ أنا من نجحت في ثني الريش في شكلها المطلوب.

لمّع "وينزداي" منقاره في كتفي، وبدأت أتحرك بالعربة.

رجعت بعد أن رحت للمنزل حتى أتدفأ قليلًا. لم يقوموا بعد بتركيب الجناحين. كان "جوي" يحرك الطائرة فوق الأرض، بينما يركض "إنجل" و"كريستوف" وراءها. أستطيع سماع أصوات فرحتهما من مكاني هنا.

كان "جوي" قد قال أنه يحتاج إلى مساحة ملعب كرة حتى يتمكن من الطيران. والآن صارت هناك طائرة، ولكن من دون ممر إقلاع. ولأول مرة، وأنا أرى "جوي" يقود الطائرة في دوائر مرتديًا قبعته ونظارة التزلج على الجليد، بدأت أشعر بالشك في بعد نظره، والصراحة، في عبقريته أيضًا.

ما إن تعلم كيفية تشغيل الدفة، وهو الأمر الذي استغرق منه بضعة أيام وتركيب نظام القيادة له ثلاثة محاور، حتى قاموا بتركيب الجناحين. ومن بعد ذلك لم يكن هناك مجال كبير للمناورة وسط أكوام الأسفلت؛ فقد صار عرض الطائرة الآن اثني عشر مترًا بالتقريب.

عندئذٍ، اتضح لي الأمر فجأة، وأنا جالس فوق السد، أدركت أخيرًا ما أدركه "جوي" منذ فترة طويلة. الحل لمشكلة الإقلاع. كان حلًا بسيطًا ومذهلًا في ذات الوقت. كان "جوي" ينتظر حتى يصير الجليد سميكًا متينًا – سوف يكون الجليد هو مدرج الإقلاع! فكرة بارعة، وانبهرت كثيرًا ببراعته الفنية. وبمجرد أن تغادر الطائرة جزيرة "فيري" سيكون بإمكانه أن يهبط بها في أي مكان آخر، في ساحة مهجورة أو حتى عند مخبأ تحت الأرض؛ كل شيء جائز، في وجود هذه الروح الجريئة الهادئة، التي تزرع القنابل و تبني الطائرات دون أن ترف لها عين. كان لا يزال في الخامسة عشرة من عمره في تلك الأيام، ولا يزال أمامه عالم كامل من الأفكار المجنونة لينفذها بكل سهولة وجرأة؛ وكأنه عجوز أفنى حياته في إصلاح الدراجات الهوائية.

أنا أنقصه حقه لو وصفته بأنه صبي غير عادي وحسب. هو قوة عاتية أطلقت في هذا العالم. عندما يكون حولك لا تستطيع أن تطرد عنك تلك الارتعاشة؛ ارتعاشة الترقب، هناك طاقة أسيرة يديه، يحولها إلى صنع القنابل تارة، ودراجات غريبة تارة، وطائرات تارة أخرى، وكأنه ساحر أحضروه ليبهرك في عيد ميلادك السعيد. لم أرَ أبدًا في حياتي شخصًا يخضع أفكاره ويطوعها لتستحيل حقيقة ملموسة مثله هو، إنه الوحيد الذي بدد الحاجز بين الخوف والاقتناع. تجرأ على التفكير في المستحيل، ولم يلقِ بالًا لكل الرفض وعدم التصديق الذي يدور من حوله. هناك كثير من الناس لا يحبون "جوي"، وهذا لأن هناك الكثير مما عجزوا عن فهمه فيه. معظم الناس عاديون، بل إن بعضهم أدنى من العادي؛ ولكن جميعهم حساس للغاية تجاه كل هذا التركيز العالي للطاقة أو موهبة المتجسد في هذا الشخص فوق العادي. فالناس عندما تعجز عن الوصول إلى ذلك السر الذي أضفى على إنسان غيرهم كل هذه الهالة من التألق، فإنهم يسعون جهدهم حتى يحرموك منها، فترتد شخصًا عاديًا تافهًا مثلهم. إنهم حرموا من هبة الإعجاب، ولم يعرفوا سوى خصلة الخنوع والاستياء...

هم مهرة بارعون في سرقة ذلك القبس...

... قبس النور.

13



تجلس "ريجينا راتزينجر" في الغرفة الأمامية تعرض علينا ألبوم صورها. قوامها نحيف، وبشرتها برونزية، حتى ونحن في الشتاء. فهي سافرت في إجازة إلى مصر، مع مجموعة من السائحين لا تعرفهم، يقودها زوج وزوجة كانا بمثابة المرشدين للمجموعة. التقطت الصور عند الأهرام خلال أشد ساعات النهار حرارة؛ وأوضح عنصر في تلك الصور هي الظلال المثلثة. تردد أسماء الأهرام... خوفو... خفرع... منقرع. علّق "جوي":

– عدد هائل من العمال قضوا عمرهم في بنائها.

حكت لنا عن رجل يرتدي عمامة وأسنانه بلون التبغ، ساعدها في ركوب جمل، قبل أن يقودها في رحلة عبر رمال الهضبة الصحراوية. بعد ذلك عادوا إلى الأوتوبيس؛ هناك الكثير من المعالم التي لا بد من مشاهدتها، فمصر ممتلئة بالأماكن التي يصعب على السائح أن يغطيها في زيارة واحدة. وعند الضفة الغربية من النيل، بالقرب من الأقصر، امتطت المجموعة الحمير في رحلة مرت على مختلف أنواع الأطلال والآثار، ومن دون أن يضطروا إلى أن يسألوا عن الاتجاه السليم للقافلة، وذلك لأن صاحب الحمير أكد لهم أن "الحمير عارفة طريقها". توقفت الحمير وراء بعضها في طابور عند محل صغير ممتلئ بالأنتيكات، ثم توقفت بهم عند بائع آيس كريم يقف في ظل معبد، قبل أن تعود

أدراجها إلى نقطة انطلاقها، وكل سائح يتشبث بشعر رقبة حماره بقوة وكأنه يتمسك بالحياة. الحمير عارفة طريقها!

وكانت هناك مغامرات بالأوتوبيس أيضًا. حكت لنا "ريجينا راتزينجر" عن الرجل الذي تحول إلى رجل أخضر.

كان مدرسًا متقاعدًا من جنوب هولندا، سافر مع زوجته. كانا يمضيان أغلب الوقت في التحديق عبر نافذة الأوتوبيس. وكان الرجل قد بدأ قبل أسبوعين من موعد السفر في تعاطي دواء "الإيموديوم"، حتى لا يصاب بالإسهال. وذلك لأن كل دليل سياحي يتحدث عن سوء أوضاح الصحة العامة في هذه البلاد، وهو لا يريد أن يخاطر بإفساد رحلته بسبب الدوسنتاريا. وبعد أسبوع على الطريق في الأوتوبيس، بدأت تظهر بقع داكنة فوق خديه وحول فمه. وصار متوترًا، وأخذ يحدث نفسه بلا توقف ويتحرك داخل الأوتوبيس بعصبية. وبدأ شيء يشبه الطحالب ينمو على وجهه – عفن ليفي أخضر داكن يتحول إلى بودرة ما إن يلمسه. لقد مرت ثلاثة أسابيع منذ آخر مرة تحركت فيها أمعاؤه. وسرعان ما غطت الطحالب رقبت، وبدت في طريقها للانتشار، بطريقتها البدائية أحادية الخلية، فوق جسد الرجل. أصيب بقية السائحين بالقلق. ولكن المدرس طمأنهم، وقال إنها ستختفي في وقت قصير، وإنه ربما تناول طعامًا يسبب له حساسية. صار أخضر اللون تمامًا، فلم يجد أمامه سوى أن يستقر في مقعده من دون اهتمام بسد أسوان ومعابد أبي سمبل التي مر الأوتوبيس عليها. ومع وصول الأوتوبيس إلى البحر الأحمر عبر الصحراء الشرقية، فقد الرجل القدرة على الوقوف منتصب الظهر. وعندما حمله ثلاثة رجال إلى خارج الأوتوبيس عند وصولهم الغردقة، رافقته زوجته بعصبية وخوف، بينما كان الرجل يبتسم مشفقًا. نبتت للفطريات جذور فوق لسانه أيضًا، وكأنه يعض عضاضة خضراء. ومن رأى بطنه المتورمة من السائحين قال إنها أشبه ببطن غريق أخرجوه من الماء بعد أن أمضى فيه أيام.

في مستشفى الغردقة العام أعطوه الجرعة القصوى المسموح بها من الملينات: فانفجر بمعنى الكلمة. لقد تجمع في داخله كل ما تناوله طوال ثلاثة أسابيع ونصف من الطعام؛ كيلوجرامات من الطعام نصف المهضوم تراكمت أمام فتحة سدتها جرعات "الإيموديوم" تمامًا. وحتى يحدث التدافع المحموم للفضلات إلى الخارج بعد جرعة الملينات تلك، اضطروا في المستشفى إلى شق فتحة الشرج وجزء من مستقيمه. علّق أحد السائحين على ما حدث ساخرًا:

- مبروك... مستر "براور" خلف ولد زي الخرا...

ومات الكل من الضحك...

***

بقي مستر "براور" في الغردقة، بينما استمرت المجموعة في رحلتها التي عبرت سيناء حتى وصلت إلى خليج العقبة. وفي قرية "نويبع"، وهي آخر محطات الرحلة قبل العودة إلى القاهرة ومنها إلى الوطن، باتوا في فندق "دومينا"، وهو فندق فاخر فيه حمام سباحة وقاعة ديسكو، وعازف بيانو بدين للغاية يقدم مقطوعاته في اللوبي.

رأينا في صور "ريجينا" رجلًا أسمر له شارب ويشبه خنزيرًا استوائيًّا. بشرته بلون الصلصال المحروق. وبعد ثلاث صور رأيناه يدخن الشيشة ويبتسم للكاميرا عبر سحب الدخان. ثم رأيناه واقفًا بكامل ملابسه إلى جوار "ريجينا" التي ترتدي المايوه البكيني عند الشاطئ. فسألها "جوي":

- مين الشنب ده؟

انتقلت أمه إلى الصورة التالية، ولكن الرجل صاحب الشنب كان فيها أيضًا، ويقف الآن بجوار جلسة حول النار عند الشاطئ، ومن خلفه سماء الغروب.

- الشنب ده بيضحك على إيه؟

لكن أمه لم تعلق.

نهض "جوي"، وتبعه "إنجل" و"كريستوف". وبقت "ريجينا" تحدق في الصورة.

– لازم تحكي لي عنه في المرة الجاية... أوكيه؟

***

بعد وفاة والد "جوي"، لم يدفن الكثير من الموتى في المدافن القديمة عند "كروسفيج"، والتي تقع خلف منزل الحديقة – الذي أقيم فيه حاليًا. اعتدنا أن نسمع طقوس الجنائز في الأيام لطيفة الطقس بدرجة تسمح لنا بفتح نوافذ المنزل. صوت الأب "نوفينهاوس" عبر مكبرات الصوت، ثم فرد من عائلة المتوفى يقرأ رسالة موجهة إلى الراحل العزيز، وفي النهاية يشكر مدير المراسم كل من حضر بالنيابة عن العائلة ويوجه عنايتهم إلى موعد البوفيه في مطعم "هيت كاريفيل": في نهاية الشارع، ثاني شارع إلى اليسار، وهناك موقف للسيارات خلف المطعم.

بقيت لأعوام أستمع إلى تلك المراسم الحزينة. ربما هي أتعس من الموت نفسه، ولا يفرق الأب "نوفينهاوس" في كلامه الرتيب بيت ميت وآخر. كلهم سواسية. سواءً كان الميت من متسلقي أعلى الجبال، أو ترك لهذا العالم دستة من الأولاد، أو صاحب شركة مقاولات ناجحة. هذا الموت الذي لا مفر منه؛ يحمل أصدق النبرات، وكل الصمت المنطوي على مليون معنى، وتلك النظرة الفاحصة لكل من يحضر مراسمه، كل هذا يجعلك تقسم أن تبذل كل جهدك حتى تتجنب الموت.

أتذكر هنا عبارات من الإنجيل، أجدها واضحة في ذهني الآن، وذلك بسبب ذلك التوقيت من العام والذي كانت تفتح فيه النوافذ – عيد الفصح. فمع طنين النحل المتصاعد وذاك الإحساس الدافئ الناعم الذي يعتري المرء وقت الربيع، كانت تأتيني قراءة "نوفينهاوس" المفضلة له من خلال النافذة المفتوحة، فيقول من الرسالة الأولى لبولس إلى أهل "كورنثوس":

هو ذا سر أقوله لكم: لا نرقد كلنا، ولكننا كلنا نتغير،

في لحظة في طرفة عين، عند البوق الأخير. فإنه سيبوق، فيقام الأموات عديمي فساد، ونحن نتغير.
لأن هذا الفاسد لا بد أن يلبس عدم فساد، وهذا المائت يلبس عدم موت.
ومتى لبس هذا الفاسد عدم فساد، ولبس هذا المائت عدم موت، فحينئذٍ تصير الكلمة المكتوبة: (ابتلع الموت إلى غلبة).
أين شوكتك يا موت؟ أين غلبتك يا هاوية؟
أما شوكة الموت فهي الخطية، وقوة الخطية هي الناموس.
ولكن شكرًا لله الذي يعطينا الغلبة بربنا يسوع المسيح
إذًا يا إخوتي الأحباء، كونوا راسخين، غير متزعزعين، مكثرين في عمل الرب كل حين، عالمين أن تعبكم ليس باطلًا في الرب.

آمين

***

عندما افتتحوا المدافن الجديدة، لم يعد أحد يقصد تلك التي وراء منزلنا. وكان ذلك الإهمال تدريجيًّا، وفي النهاية لم يكن هناك من أحد فيها إلا عمال البلدية الذين يأتون دوريًّا لتنفيذ أعمال الصيانة. وصرت أترقب أن يقوموا في أي وقت بتحويل منطقة المدافن القديمة إلى مشروع آخر.

يشتري أغلب الناس حقوق الدفن لمدة 10 سنوات. أي إن الميت أمامه عشر سنوات على الأقل من الهدوء والسكينة؛ أي إنك وحدك أمام الأبدية. أما بعد تلك المدة فيبقى لديك أمل في أن ينسوا أمرك لعشر سنوات أخرى، وإلا تذكروك وقاموا بنقل رفاتك. ومع أن كل هذا لا يهم من مات، ولكنها لا تزال فكرة غير مريحة... أي أبدية هذه التي لا تستمر سوى عشر سنوات؟!

السؤال التالي: ما هي المدة التي يبقى فيها الإنسان حزينًا على ميت له كلما تذكره؟ سنتان؟ ثلاث؟ أربع أو خمس سنوات على الأكثر، هذا إن كان محبوبًا من الأصل، ولكن الحزن نادرًا ما يستمر أكثر من ذلك. فلا تبقى سوى

الذكريات. وللذكريات لحظاتها الوجدانية، بالتأكيد، ولكنها لا تشبه ذلك الأسى الفادح الذي يعترينا في الأيام والأسابيع الأولى. بعد موتك يا صديقي تختفي تدريجيًّا في بال الناس. حتى تتوارى عنهم تمامًا. ولسوف يأتي زمن يعجزون فيه عن تذكر حتى ملامح وجهك، أو طريقة ترحيبك بهم عند اللقاء، وعبق رائحتك وسطهم، ونبرة صوتك حين تكلمهم ... أضحيت مجرد طيف بائس لا يراه أحد. ومصيرك المحتوم أن يظهر غيرك بينهم ليحل محلك. تلك هي الفاتورة العلقم التي عليك سدادها، ثمنًا لخروجك من هذه اللعبة، التي يسمونها الحياة.

ها هي ذاك؛ زوجتك في أحضان رجل آخر غيرك، والمتعة والسعادة تتبدى على محياها، حتى أنها لا يمكن أن تتذك...

حسنًا، لا بأس، فهناك فوارق أخرى بينك وبينه... ومن ذلك مثلًا أنه أسمر بلون حذائي. لقد أحضرته من مصر، ودفعت له ثمن التذكرة، والآن يرقد في نفس المكان الذي كنت تشغله أنت في الفراش، يتأمل ذلك الضوء الرمادي المتسلل عبر ثغرة في الستائر. ربما يفكر فيك الرجل الجديد في هذه اللحظات، في الرجل الذي كان من قبله. يعرف أن هذا المكان في الفراش إلى جوارها بقي باردًا لفترة طويلة، وهو لم يسلبك إياه بالمعنى الحقيقي للكلمة، ولكنه يستفيد من أسوأ سيناريو حصل لك، ويتساءل عما إذا كانت هذه الفرصة كانت ستتاح له لو أنك...

يلتفت إلى تلك المرأة في حب، فهي حلقة الوصل بين ميت وحي، ويبادلها النظرات وسط الظلال وقد ملأته الشكوك.

***

هذه هي قصة ما جرى:

- وبماذا نناديه؟

هكذا سألت "إنديا" عندما أخبرتها أمها أنها ستعود إلى مصر لتحضر معها إلى هولندا حبيبها الذي أغرمت به في أول زيارة. فقالت لها "ريجينا":

- اسمه "محفوظ"... ناديه "محفوظ".

- لو رغبتي لناديته بابا.

- ولماذا أرغب في ذلك؟

- لأن موقف المرأة يكون صعبًا إذا لم يتقبل أولادها زوجها الجديد. تحتار الأم بين ولائها لزوجها وإخلاصها لأولادها، وهو أمر يكون له تأثيره السلبي على الأسرة.

- من أين أتيتِ بهذا الكلام الكبير؟

سافرت "ريجينا راتزينجر" إلى مصر لتتزوج "محفوظ الحسيني"، فهي تحبه، وكذلك لكي تعطيه الوثائق التي يحتاجها للسفر إلى "هولندا". والتقت في القاهرة جيشًا من المحامين، وأمضت ساعات في غرف المصالح الحكومية شديدة الحرارة، فكان العذاب الأليم، ولكنهما مع نهاية الأسبوع صارا زوجًا وزوجة.

أمضيا يومين في رحلة عبر النيل، قبل أن يستقلا الطائرة إلى "هولندا". يوم 10 ديسمبر؛ يوم استحال لون السماء رماديًا فوقنا، مثل جناح البطريق.

عندما ترجل المصري من التاكسي في "آختروم"، كان أول ما فعله هو تشمم الهواء مثل أي حيوان. هل وجد فيه نفس رائحة دلتا النيل؟ رائحة فيضان النيل؟ احتوت حقيبته الصغيرة على نسخة مجلدة فاخرة من القرآن، وخرطوشة سجائر مارلبورو كانت هدية منه لـ"جوي" و"إنديا"، وصورة لأبيه وصورة أخرى لأسرته كلها. وملابس ليست كثيرة.

خرج "جوي" في استقباله وصافحه. وتنهد "الحسيني" بعمق، وكأن أمنية بعيدة تحققت له. احتضن "جوي" في حرارة:

- ابني!

ظل محتضنًا له للحظات، ثم أبعده عنه قليلًا ليتأمله، قبل أن يعيده إلى أحضانه. وظهرت "إنديا" عند المدخل. هزت أمها كتفيها وهي تنظر إليها في اعتذار، وكأنها تقول لها: "هذه عاداتهم". أفلت "جوي" من معركة الأحضان هذه وقد تبهدل شعره. تحول المصري نحو "إنديا" وصافحها. فيما بعد، ذكرت "إنديا" أنها شعرت باستياء عميق.

– لماذا لم... يجذبني إليه كما فعل معه؟ ألديه موقف ضد الفتيات؟ ألم يعجبه شعري؟ هل أدرك من رائحتي أني في تلك الأيام من الشهر؟ هل يعتقد أن المرأة في دورتها الشهرية نجسة؟

صاحت فيها أمها:

– اسكتي! "محفوظ" فعل ما فعل لأنه يحترمك. العرب يحترمون النساء جدًّا.

***

هكذا صار "محفوظ الحسيني" الزنجي الوحيد في "لومارك". حتى ولو أنه في الحقيقة ليس زنجيًّا على الإطلاق؛ ولكن تبقى الحقيقة هي أن الأبيض أبيض والأسود أسود. لا يمكننا هنا أن نميز بين درجات الأسود.

بقي "الحسيني" حتى ما قبل الكريسماس، قبل أن يعود إلى مصر ليرتب لرحيله الدائم عنها. سيتولى أحد إخوته أمر متجره في سيناء؛ وينتظره في القاهرة جحيم البيروقراطية قبل أن يظفر بالوثائق التي يريدها. توترت أعصاب "ريجينا"، وانشغل عنها "جوي" و"إنديا" بأمورهما الخاصة. وأهملت أمهما أمور المنزل، وصارت تدخن أكثر مما تتنفس. قالت لها "إنديا":

– ماما... لازم تأكلي شيئًا.

– تناولت بالفعل قطعتي شوكولاتة.

خرجت من المطبخ. بقت ثلاثة أسابيع. فصاحت "إنديا" فيها:

- لو رآك "محفوظ" هكذا فلن يجدك جميلة بعد الآن! تبًّا، "جوي"، لماذا لا تقول أي شيء لها، ولو مرة واحدة؟!

- وما الذي أعرفه عن هذا؟

في رده حقيقة كبيرة. فما الذي يعرفه عن هذا؟ هو و"إنجل" لهما رأي غريب في الحب. أنا لم أسمعه أبدًا يتحدث عنه، ولكن يبدو أنه يعتبره مجرد مضيعة للوقت. وكأنك تركب دراجة وانت لا تتجه إلى مكان معين. أما "كريستوف" فله رأي آخر؛ فهو مثلي، يحب تلك الفتاة الجنوب أفريقية.

أتذكر ذات مرة في الجراج في ذلك الصيف، لما لفت "كريستوف" نظر "جوي" إلى وجود "بي جي". وبعدها ببضعة أيام شاهدنا "جوي" ينظر إلى الوافدة الجديدة وهي جالسة وسط صديقاتها فوق السور القصير المحيط بساحة المدرسة. علّق "كريستوف":

- ما رأيك؟

خبطه "جوي" على كتفه، وهو يقول:

- إنت نمس يا "كريستوف"... جميلة فعلًا.

***

استقر الجليد، وصار الماء في السبخة أعلى من أي وقت مضى. وذات مساء ونحن جالسون إلى المائدة سمعت صوت "فيلهيلم إلفيلد" في محطة الراديو الوطنية. باعتباره "أحد القاطنين في منطقة كوارث"، اتصلوا به ليخبرهم عن "مستويات خطرة للماء" في الأنهار الكبيرة. كان الحوار معه على الهواء. سمعته يفتح الخط ويتحدث بنبرة بطيئة.

- مساء الخير، هل أتحدث إلى السيد "إلفيلد" من "لومارك"؟

- بالفعل.

كان هناك ذلك الصدى المزعج وهذا لأن "فيلهيلم إلفيلد" كان بالصدفة يسمع نفس المحطة.

- سيد "إلفيلد"، جميل إنك تسمع محطتنا، لكن أرجوك أن تغلق الراديو الآن.

وضع والد "إنجل" السماعة، قبل أن ينفذ الطلب، فراح ذلك الصدى، وعاد ليتحدث:

- ومن الذي أتحدث إليه؟

- "يواخيم فيردونشوت" من محطة "آيكون"، وأنت على الهواء، سيد "إلفيلد". لو كانت معلوماتي صحيحة فأنت تعيش في منطقة كوارث. هل يمكن أن تحكي لنا عن الوضع؟

- أي وضع؟

- آآآآ... الفيضان.

- أوه... لا توجد معلومات كثيرة.

- ألم يصل الماء إلى قبو منزلك؟

- ليس بدرجة غير معتادة.

سمعت صوت حفحفة الورق أمام المذيع في المحطة.

- ارتفاع المياه تسبب في مشكلات كبيرة، والمياه تحيط بكم من كل ناحية. متى ستكون مضطرًا لمغادرة منزلك، سيد "إلفيلد"؟

- جزيرة "فيري".

- معذرة؟

- جزيرة "فيري" ليست ضمن المنطقة.

– أوكيه... جزيرة "فيري". متى ستكون مضطرًا لمغادرة منزلك، سيد "إلفيلد"؟

– سوف تنسحب المياه. ولا مشكلة لدينا.

– يبدو أنها نعمة وليست نقمة إذن. شكرًا لك سيد "إلفيلد" من "لومارك"، أتمنى لكم السلامة!

– طيب.

***

وصلنا إلى أول يوم في العام الجديد، لم تكن هناك الكثير من تجمعات الشرب ليلة رأس السنة، وظهرت بعض الألعاب النارية في السماء، وخلد الجميع للنوم، قبل الاستيقاظ بمزاج متعكر في صبيحة العام الجديد. انخفض مستوى سطح النهر، ولكنه تجمد بشدة، واستقرت السبخة أسفل طبقة مثالية من الجليد تسقط عليها أشعة الشمس الذهبية كل نهار، ولكننا الآن في الليل، وانا عند السد، أحدق في الظلام. كان "جوي" ومعه "كريستوف" قد اخترقا ذلك الظلام للتو، وأحذيتهم في أيديهم. سوف يحاول "جوي" اليوم التحليق بالطائرة لأول مرة. بدآ في دفع الطائرة بأيديهم وهما يهمهمان، قبل أن يبتعد الصوت ويصير مجرد همسات.

بدأت أشعر بالبرد، فأخذت أتحرك بعربتي في كل اتجاه من دون توقف. استغرقت الشمس وقتًا طويلًا قبل أن تشرق. وقررت أن أتجه إلى هناك: إلى الشاطئ الآخر، أردت أن أكون هناك، حتى أشاهد الإقلاع عن قرب. هكذا رحت إلى "لانج نك"، إلى بوابة الحاجز المدهونة بخطوط حمراء وبيضاء، حيث تختفي الطريق أسفل الجليد، ومن بعده النهر. لم يسبق لي أن تحركت بعربتي فوق الجليد من قبل. فلم أندهش عندما توترت أعصابي في البداية، ولكن ما إن أخذت طريقي حتى صارت المهمة سهلة، وبقى فقط الإحساس باحتمال الانزلاق في أي ثانية، وأن أفقد السيطرة على العربة. ومضيت في طريقي بكل سهولة، فالاحتكاك يكاد يكون معدومًا. يظهر في سماء البلدة عند مصنع الأسفلت خيط نور

بنفسجي، وأنا هنا وحدي في كل هذا البراح. وكأني طيار تحطمت طائرته وضل طريقه في صحراء. هذا الصمت ساحر، فلم أتعجل الذهاب إلى المستودع.

لاحظت مؤخرًا علامات حياة في أجزاء أخرى من جسدي؛ حتى إنني وعدت نفسي أن أعمل على مفارقة هذا الكرسي وأبدأ في تعلم المشيء تدريجيًّا. قد تجد هذا غريبًا، ولكنني صممت على أن أفارق هذا القفص المتحرك، فأنا على وشك أن أبلغ السابعة عشرة من عمري، ويحدث لي انتصاب بين حين وآخر، ولكن لا تنسَ أنني مصاب بشلل تشنجي يمنعني حتى من إراحة نفسي. ولكنني أحسست أن في جسدي قدرات ما – حتى ولو محدودة – تساعد على تطور حركي أرقى، بل وربما شكل من أشكال الانطلاق بعيدًا عن هذه العجلات، من يدري. كنت قد بدأت سرًا في برنامج تدريبات منذ فترة، يتألف من الإمساك بطرف الطاولة أو الفراش بيدي اليمنى، مع الحركة على الأرض فوق ركبتي، ومحاولة نصب قامتي أثناء ذلك. ربما لا يبدو هذا بالجهد الكبير بالنسبة لك، ولكن من المهم أن تدرك أن ما أفعله هنا هو في الحقيقة إعادة عرض لسلسلة التطور برمتها، بالمعنى الحرفي للكلمة – ويمكنك أن تعتبر أنني الآن في المرحلة البرمائية. فارقت للتو الطين البدائي، وبدأت أفكر في رفع رأسي لأعلى.

من يراني وأنا أؤدي تلك الحركات في جميع أنحاء الغرفة يظن أنني أكفر عن ذنب اقترفته؛ ولو أن ماما رأتني لخيل لها أن الرب استجاب لصلاتها، ولرددت مقولة أشعيا: "**حينئذٍ يقفز الأعرج كالإيل ويترنم لسان الأخرس**". وهذا لأن البعض يرى في مثل ذلك أعجوبة، ولا يعتبرها قوة إرادة.

لا بد من تنشيط عضلاتي. فلسنوات استقر جسدي في السرير، واسترخى في الكرسي، ولم يعد يعرف ما إذا كانت لديه قدرة على فعل المزيد أم لا. لم يكن لدى إخصائي التأهيل البدني الكثير من الأمل، هذا صحيح، لكن ذلك كان منذ زمن طويل. أنا اليوم أكبر سنًا، وأحيانًا يتوجب عليك أن تفرض على نفسك مهمة ما. ويكون موعدها المناسب هو يوم أن تشعر بتفاؤل لا مبرر له سري فيك مجرى الدم.

كان الجليد رائعًا. الضوء في الأفق يزداد إشراقًا بشكل تدريجي، وأنا ذاهب إلى حيث لم أذهب من قبل. كل ما هو حولي عبارة عن ضوء زجاجي أزرق، القلب الفيروزي لنهر جليدي. بسلاسة وسرعة. لماذا لم أجرب هذا من قبل؟

يمرق الجليد شديد السواد أسفل عجلاتي الآن، وعيناي على تلك النقطة البعيدة من جزيرة "فيري".

ولكن اسمح لي، إذا سمحت، أن أسحب تلك الصورة السابقة لقلب النهر الجليدي. فما كنت فيه أشبه بأعجوبة من أعاجيب الشتاء؛ مثل تلك الكرة البلاستيكية التي تحتوي نموذجًا مصغرًا لمدينة وما إن تقلبها حتى يبدأ الثلج في التساقط داخل السائل بها. لدينا واحدة في المنزل، تحتوي على نموذج الحصان وحيد القرن "يونيكورن" على خلفية بلون أزرق ملكي. كلما هززتها تتساقط الثلوج من حول "اليونيكورن" مفتوح الفم.

أسفل الأرضية الجليدية تقبع حقول الصيف، والطريق المتعرجة المجاورة لضفاف النهر. هناك في الأسفل يتمايل العشب مع التيار البطيء.

كنت أتصبب عرقًا؛ فيصدر عن جسدي بخر، وكأني محرك عنيف القوة. سمعت صريرًا فوق سطح قصري الجليدي. فالتفت، ورأيت الطائرة تتحرك عبر الجليد. كان الوقت لا يزال ليلًا أكثر منه نهارًا، ومن هذه المسافة بدت الطائرة مثل سيارة شريرة خرجت من ورشة الظلام. هناك ظلال "كريستوف" و"إنجل" على الجليد. توقفت الطائرة وكانا يتحدثان إلى "جوي"، الذي لا أرى سوى رأسه من فوق جسم الطائرة. حركوا الطائرة حتى اتجهت مقدمتها إلى القرية. وبمجرد أن ابتعدا مسافة معقولة من المروحة، حتى شرع "جوي" في تحريكها. كم أحببت ذلك الصوت، والذي صار أعلى وأشد غضبًا حتى وصل عزم المحرك إلى ذروته. انطلق "جوي" عبر الجليد. وما إن وصل بالطائرة إلى سرعتها القصوى حتى حاول رفع مقدمتها في الهواء. في كل مرة كان يسحبها،

كانت الطائرة تفارق الجليد للحظة، قبل أن ترتد إلى أسفل. ومرة أخرى. بالكاد ترتفع في كل مرة، قبل أن ترتد نحو الأرض. وكأنها تعانده.

توقف "جوي" قبل أن يصل إلى سد الشتاء، ودار بالطائرة المتأرجحة قبل أن يعود أدراجه في اتجاهنا. الآن كنت على مسافة بضع ياردات من "إنجل" و"كريستوف"، الواقفين على الجليد، يراقبان كل حركة يقوم بها "جوي". مرت الطائرة عبر الشقوق المتجمدة، فكانت الفرجة عليها متعة. ها هو ذا، قادم إلينا مباشرة، بسرعة ثمانين أو تسعين الآن. فغمغم "كريستوف":

- ياللا، مان.

ألقى "إنجل" عقب سيجارته بعيدًا، فصدر عنها ضوء أخير قبل أن تخمد. من ورائنا انزاح ستار الفجر أكثر فأكثر، لتضيء السماء بنور هو مزيج من البرتقالي ووهج الأرجواني.

لا بد أن درجة الحرارة عشرة تحت الصفر في صباح ذلك اليوم، لكنني لم أنتبه للبرد. قبل أن يصل إلينا "جوي" انحرف بالطائرة إلى اليسار، وقلل من سرعتها قبل أن يوقف المحرك. الإحساس بالصمت مريح. وركض "إنجل" و"كريستوف" نحو الطائرة، بينما كان "جوي" يهز رأسه في حيرة وهو يتفحص لوحة التحكم؛ فرامل اليد، والفرامل، وضغط الزيت، وقياس الوقود والحرارة. لا تزال عصا التحكم بين ركبتيه.

- إنها لم ترتفع.

كان من الصعب أن أتبين كلماته، التي تخرج من بين شفتيه الزرقاوتين.

- أعتقد أنني أحتاج المزيد من القلابات للجناحين، ولم يبقَ لديَّ الكثير!

صاح فيه "إنجل" بأنفاس متهدجة:

- ارفع مقدمتها، مان. ارفع مقدمتها اللعينة!

لو أن هناك لحظة مناسبة، فإنها هذه اللحظة - ما زلنا في الصباح الباكر، والسماء صافية، باردة و"سميكة"، كما وصفها "جوي"، ومثالية للإقلاع. هكذا انطلق بالطائرة هادرًا عبر الجليد؛ وهو بهذه السرعة، وما لم يرتفع بالطائرة سريعًا، سيرتطم بصف أشجار الصفصاف في الجليد الضحل للسبخة.

- بيعمل أيه؟

كان "جوي" يتجه بسرعة كبيرة نحو الأشجار؛ لم ينطلق بها بهذه السرعة من قبل، ولكنه لم يحاول بعد أن يرتفع بها – لو أنه لم يحول اتجاهها أو يفرمل فإنه هالك بالتأكيد. أغمضت عينيَّ، ثم فتحتهما في اللحظة التي قرر فيها أن يرتفع بالطائرة. فارقت الإطارات الخلفية الجليد، واستوت الطائرة بشكل رائع في الهواء، وهي تتمايل صعودًا وهبوطًا، أي طائرة مكانها ستحلق الآن... يا ربي ... يا إلهي ... ها هو ذا يفعلها!... ويحلق!

حلقت الطائرة لبضعة أمتار، ولامست أعلى أشجار الصفصاف في طريقها. لم يكن "جوي" ليحسب حساب ذلك، فهو انتهز فرصة مجنونة وامتلك حظًا عجيبًا. ضرب حظ... أنا متأكد. فلو أن الطائرة لم تنفذ بالضبط ما تمناه في تلك اللحظة، لكان ميتًا الآن. ولكنه ليس ميتًا أبدًا... إنه يطير...

كان "إنجل" يتقافز بكل سعادة الدنيا.

يرقص "كريستوف" حوله، ويحتضنه. هما الآن يرقصان ويغنيان بأعلى صوت. لم أشعر بالدموع التي تسيل على وجهي. لقد فعلها، والآن يحلق ويحلق، ويخفت صوت المحرك بينما تبتعد الطائرة في الأفق. لقد كرر معجزة "الأخوان رايت".

ولن يوقفه شيء بعد الآن...

14



لو أن "محفوظ الحسيني" لم يعد، لكانت "ريجينا راتزينجر" ماتت من الجوع. وكما قال "محفوظ" بإنجليزيته المتعثرة:

- في سنوات الجفاف، تموت الأزهار أولًا.

أو على الأقل هذا هو ما فهمه "جوي" من كلامه.

وجدت "ريجينا" صعوبة في القيام بالأعمال المنزلية اليومية. هناك شيء ما فيها تغير، ظهر واضحًا في سلوكها ومظهرها، ولم يفارقها بعد ذلك أبدًا. كانت لا تغير ملابسها إلا بعد فترات طوال، حتى لاحظ الناس في "لومارك"، وهم الخبراء في مشغولات التريكو، أن آثار الزمن تظهر واضحة على ستراتها.

صار "محفوظ" المسؤول الآن عن الطهي في أغلب الأوقات، وهكذا بدأت تظهر على المائدة أطباق اللحم الضاني الممزوج بالكزبرة، والمطهي في صلصة حمراء هي توليفة من الفلفل الحار والبهارات؛ في خلطة تربك لسانك وعقلك. علق عليها "جوي":

- طعمه جميل، "محفوظ".

رفع "محفوظ" رأسه عن طبقه، ونظر إليه في سعادة:

- جميلة، صح؟

يقوم "محفوظ" في خمس مرات يوميًّا بفرش سجادته الصغيرة في الشرفة المشمسة بالمنزل المطل على "آختروم" لكي يتمتم بصلواته متجهًا صوب مكة. هو ليس بالغ التدين، ولا يدعيه، ولم يحاول أبدًا فرض معتقداته على "جوي" و"إنديا". فاعتبرا أن لا ضرر من إيمانه، وأن صلواته المعتادة أشبه باعتياد رجل على تناول عدد محدد من الموز يوميا، أو من اعتاد أن يطرق على الخشب في مواعيد منتظمة ظنًا منه أنه بذلك يدرأ كارثة. تلقى بالمراسلة دورة في اللغة الهولندية، وبعد أسابيع قليلة صار بوسعه أن يسأل عن الطريق إلى محطة القطار أو أن يطلب رطلًا من لحم البقر واللحم المفروم ولحم الخنزير من محل الجزار. ولكنها كلها جمل لا فائدة منها بالنسبة له، فنحن في قرية بلا محطة قطار، ولا يوجد مسلم يحترم نفسه يتناول لحم الخنزير المفروم. ولكنه كان يشعر بالراحة في "لومارك"، ويتجول كثيرًا في أنحاء القرية، ويحيينا دائمًا بكل أدب.

ترافقه "ريجينا" لتعرفه على الناس، وكانت سعيدة جدًّا بصحبته.

- الرجل النوبي وسيم. هم أكثر الناس وسامة في مصر. ولكن "محفوظ" هو...

- معك حق، ماما، ونحن نقدر ذلك... بلاش مبالغة.

اصطحبت "ريجينا" زوجها إلى المدينة. وعاد منها ببدلة كتان وحذاء جلدي "هاند ميد". كان يمشي به بسهولة مثلما كان يفعل بحذائه الذي وصل به من مصر. ولأنه كان من الرجال الذين يربون شواربهم ويعتنون بها، ولأن "ريجينا" كانت تدلله ككائن غريب، فقد أضحى مثل مفارقة تاريخية في "لومارك"؛ وكأنه إنسان قذف به التاريخ إلى هذه البقعة الغريبة من العالم ثم نسيه.

في أول مرة التقاني فيها "محفوظ"، مال علي وحدق في عينيَّ، وكأنه يتأكد من كوني إنسانًا عاقلًا. وأنا لم أحاول أن أوقفه. ولما انتهى من تحديقه، انتصب واقفًا وضحك؛ وكأنه اكتشف في عينيَّ سرًا. ثم قال بضع كلمات بالعربية، ودار ليدفع عربتي. أنت! يا بدوي! دعني، فأنا أحاول تمرين ذراعي! وأنا لست خالتك

الكُهنة! ولكنه قبض على مقبضي العربة من دون طلب مني، وبدأ يدفعها في جولته في القرية، وكأني عجوز مسكينة. فكنت محرجًا. هذا كثير. كثير. ولكني قبعت في عربتي مغتاظًا، ولا أعرف حتى إلى أين سيتجه بي. تصرفه هذا كان كفيلًا بهدم الحاجز الوهمي الذي فرضته حول نفسي. صار الناس ينظرون لنا. أعرف أنهم سيتندرون علينا عندما يجلسون إلى موائدهم في المساء:

– أتعرفون أن "فرانكي هرمانز" له ممرض بشنب؟

أي نعم، كنا صورة للغباء معًا. أنا و"الحسيني".

ولكن، ما لم أكن مخطئًا، وجدت أننا متجهان إلى "لانج نك". كان العربي يدندن بلحن لا أعرفه، وحذاؤه يحدث صوتًا غريبًا على الأسفلت. أشم رائحة النهر من على البعد، فقد كانت لمياهه رائحة لا يمكنني وصفها، ولكنها تبث فيّ السكينة. ربما كانت هي كل الانطباعات التي تولدت لديه وهو في طريقه إلى هنا. قال "الحسيني":

– ها هو "بيت".

كان مستوى المياه قد انخفض ثانيةً، وعادت خدمة عبارة "بيت هونينج" تعمل من جديد. كانت العبارة في منتصف الطريق ومتجهة نحونا. كان "بيت" منشغلًا بتوزيع كعوب التذاكر عبر النوافذ المفتوحة في السيارات؛ ووضع الأجرة التي يتلقاها في الحقيبة الصغيرة التي يلف بها وسطه. ومن ثم يتجه إلى قمرة القيادة ليعكس حركة المحركات. وصل إلى الشاطئ بسيارتين ودراجة. لم أنظر إليهم. بينما اقترب "بيت" منا.

– أهلًا... مضت فترة طويلة منذ آخر لقاء.

همهمت بكلمات. فواصل كلامه:

– كثير حدث، ولا شيء تغير. كما يقولون. لحقت بنا بعض الأضرار في هذا الشتاء. ولكن ها نحن ذا نعمل من جديد، أليس كذلك يا "محفوظ"؟ صح؟

ربت على كتف "محفوظ"، قبل أن يعود إلى عمله. دفعني "محفوظ" حتى حافة السطح، فجذبت الفرامل بشدة. جلس العربي القرفصاء، وأسند مرفقه الأيسر، بينما تداعب أصابع يمناه شاربه.

منذ لك اليوم، اعتدت أن أجلس مع "محفوظ" عند مقدمة العبارة. وصرت استمتع بصحبته؛ يتكلم وأنا أستمع. وكلما صادف "بيت" مشكلة فنية، كان "محفوظ" يسارع بمد يد المساعدة. كان قد تعلم في حوض بناء القوارب الذي يملكه أبوه في "البيارة"، وهي بلدة صغيرة خارج مدينة "كوم امبو"، كيفية تفكيك المحرك وإعادة تجميعه. هو الأصغر بين ستة إخوة وثلاث أخوات. امتلك والده ساحة على ضفاف النيل، وفي تفريعة لهذا النهر تعلم "محفوظ" كيفية بناء الفلوكة، وهي من أشهر القوارب التي تجري في النيل. جهزه والده لكي يعمل في صنعة العائلة، ولكنه وفي ظل وجود العديد من الأخوة فضل أن يجرب حظه في السياحة. وهناك، بعيدًا جدًا عن بلده، افتتح محلًا صغيرًا في نويبع، على الساحل الشرقي لسيناء، على بعد خمسين مترًا من الشاطئ. كان يبيع السجاد، والمصنوعات البدوية والتماثيل الفرعونية المقلدة، والتي كان يمكنه أن يبيعها وكأنها آثار إذا وجود لها الزبون المغفل؛ وهو زبون يتواجد بوفرة بين أفواج السياح. كان محله – أو البازار كما يسميه – ضمن مجموعة من البازارات التي تبيع البضاعة نفسها من دون تنويع. فوق باب المحل بصمة يد مخضبة بدم أحد الجديان: يسمونها يد "فاطمة بنت النبي". وفي كل صباح، يعلق "محفوظ" السجاد والملابس القطنية خارج المحل، ليعود في كل مساء لجمعها ونفض الغبار عنها.

تتكون "نويبع" من ثلاثة أحياء متباعدة؛ حيث يتوجه أغلب السائحين إلى "الترابين"، وهي شريط ساحلي ممتلئ بالفنادق والمطاعم والبازارات. وإلى الجنوب هناك ميناء نويبع، حيث العبارات التي تتوجه إلى الأردن. عاش "محفوظ" في "الترابين" حياة هادئة. ينام عشر ساعات في اليوم ويقضي بقية

ساعات اليوم في محله أو مع الأصدقاء. يلعبون الطاولة تحت مصابيح الفلورسينت، ويجلب لهم صبي القهوة المجاورة أكواب الشاي بلا انقطاع.

يشعر "الحسيني" بقوة جسمانية، ويعتقد أن اعتياده تناول السمك والأرز وسط أجواء البحر هو ما جدد دماءه. ويرى أن روح الإنسان في دمه. فالدم ينتقل في جميع أنحاء الجسم ويبث روحًا في العظام واللحم. روح "محفوظ الحسيني".

كان أحيانًا يغفو على كرسي الشاطئ، ليستيقظ في صباح اليوم التالي مع شروق الشمس فوق الجبال على الشاطئ البعيد. عاش حياته وجهه للبحر وظهره للصحراء، وقد أراح باله من تلك الرغبات "العظيمة" التي تجعل حياة الإنسان جحيمًا لا يطاق. وبعد أن أخبره أحدهم أن سيناء تنزلق بعيدًا عن شبه الجزيرة العربية بمعدل سنتيمتر واحد ونصف في كل عام، ظن أن بوسعه أن يراقب تلك المسافة وهي تتسع.

وفي اليوم الذي وصل فيه أوتوبيس تابع لشركة "بيراميد تورز" إلى نويبع، كان جالسًا في كرسيه خارج المحل. ولاحقًا، في ظهيرة نفس اليوم، ظهر أول سياح من هذه المجموعة الجديدة في شارعه؛ ثلاث نساء. هولنديات. عرف "محفوظ" جنسياتهن على الفور. من الممكن في بعض الأحيان أن يخطئ المرء الهولنديين ويظن أنهم ألمان، لكن الفارق هو أن السائح الألماني يتحرك في تواضع يصل إلى درجة تظن معها أنه هارب من العدالة، وقد يتم القبض عليه في أي لحظة. وكذلك يتكلم الألمان بصوت أعلى من الهولنديين، هذا صحيح، ولكنهم لا يتجولون مثلهم كما لو أن العالم ملك يمينهم. فالسائح الهولندي يتنقل منفوخًا بثقة مبالغ فيها بالنفس، كما لو كان يعرف طريقه أينما كان.

بادر زميل "محفوظ"، وهو صاحب البازار المجاور له واسمه "منصف عبد العزيز"، بالنداء عليهن بإنجليزية منتهكة: "تعالوا... تعالوا... مش لازم تشتروا"، مع إشارات توضيحية بيده. لمح "محفوظ" ابتسامة متعبة على وجه أصغرهن. وأدرك أن واحدة من بين كبيرات السن أمامه أتت إلى بلاده بحثًا عن

ممارسة الحب؛ لقد اعتاد مع الخبرة أن يلحظ ذلك. فالمرأة من هذا النوع تحمل نظرات جائعة، وكأنها تبحث عن فريسة. بدأت نساء كثيرات من الصنف كبير السن الباحث عن المتعة ياتي إلى المنطقة كل عام؛ وصار يرى من هي في سن جدته تسير بكل مرح مع شاب مصري في عمر حفيدها. وسمع أن أمثالهن يعانين في بلادهن من ترك الأزواج لهن، أو أنهن يأتين إلى مصر بسبب اعتلال صحة الأزواج وعجزهم عن إشباع إحتياجاتهن. يجيد "منصف" معاشرة تلك النساء، ويبدو أنه لا يملّ ذلك أبدًا. فلا يهم شباب القرية أن تكون المرأة التي أمامه عجوز أو شابة، بدينة أو رشيقة. "محفوظ" نفسه خاض علاقة مع سيدة أمريكية؛ وعندما انتهت إجازتها طلبت منه أن يرحل معها إلى أمريكا، ولكنه لم يفضل منزلًا في "أيوا" على محل في نويبع. هكذا قررت "كاثرين أوداي" – هذا اسمها – أن تقضي بضعة أسابيع كل عام في نويبع. ولكن مرت سنوات لم تحضر إليه فيها. وإن كان تلقى بطاقة بريدية منها ذات مرة، تسلم عليها فيها من أمريكا. علّق البطاقة في الجدار الداخلي لمحله، لتغطي جزءًا من صورة له تجمع مع الممثلة المصرية الشهيرة "آثار الحكيم"، والتي جاءت ذات مرة إلى نويبع ليوم تصوير على الشاطئ.

اقتربت السائحات من البازار. أما أكبرهن سنًا، التي أدرك "محفوظ" أنها أشدهن جوعًا جنسيًّا، فقد سمع في وقت لاحق من نفس الأسبوع أنها صارت في علاقة مع خادم في فندق "دومينا"؛ وهو شاب وسيم، ويبدو أنه انتهز فرصة مديحها لقوته الجسدية وسهولة حمله لحقائبها فأسقط سرواله ليظهر لها مدى فحولته أيضًا. تمعن "محفوظ" في أصغر الثلاثة – وكأنها تضيء. وشعر بحاجة إلى أن يريحها.

كان "منصف" يصيح في ظهورن ساخرًا بعد أن خسر معركة اجتذابهن إلى محله.

كنّ على وشك الوصول إلى محل "محفوظ". فمسح على شاربه بحركة سلسة بظهر سبابته، قبل أن يرحب بهن بابتسامة عريضة... "فيلكومه... فيلكومه".

تفحصت السائحات معروضاته القطنية، وجربن الخواتم التي تحمل فصوصًا من الأحجار شبه الكريمة، قبل أن يشترين بعض البطاقات البريدية. ثم انصرفن. ولكن من يمر على هذا الممشى لا بد وأن يعود في نفس الطريق مرة أخرى. فعندما وصلن إلى نهاية ممشى التسوق عدن أدراجهن، وكانت السيدة التي لفتت نظره تسير وسطهن الآن. سارع "محفوظ" بالدخول إلى محله، والتقط تذكارًا وعاد للخارج، في الوقت المناسب ليمنحها هديته؛ للمرأة ذات الشعر الأشقر الذي يستحيل رماديًّا. تناولتها منه، في ارتباك، وهي لا تدري إن كانت هدية أم أنه يريد مقابلًا ماليًّا منها، فحاولت أن تعيدها إليه.

- هدية... لكِ.

كانت الهدية نموذجًا متواضعًا لقارب؛ فلوكة من الجبس ولها شراع عليه عين حورس مرسومة بالأزرق والذهبي. شكرته السيدة في حيرة ومشيت.

نويبع أكبر من القرية بقليل. فكان من المؤكد أن يلتقي "محفوظ الحسيني" و"ريجينا راتزينجر" مرة أخرى. وفي اليوم التالي التقيا عند حمام السباحة في فندق "دومينا". كان يقوم بتوصيل مجموعة من المحافظ الجلدية إلى محل التذكارات في الفندق، ويستعد للعودة إلى شاطئ "الترابين"... عندما رآها. انحنى قليلًا في تحية لها:

- آه... سيدتي الجميلة.

- انتظر... أردت أن... شيء بسيط... مقابل هديتك الجميلة.

عادت إلى كرسيها عند حمام السباحة، ولفت منشفة على جسدها وعقدتها أمام صدرها، ثم تناولت مجموعة أوراق نقدية مصرية من حقيبتها. وعادت إليه:

- تفضل.

هز "محفوظ" رأسه وعلى وجهه ابتسامة حزينة:

- فهمتك. أنتِ لا تقبلين هديتي. أنا آسف.

- بل أقبلها طبعًا، ولكن...

ولكن ردها كان متأخرًا: فقد أشار المصري إلى قلبه إشارة سريعة، قبل أن يتراجع خطوات للوراء، وينصرف.

في نفس الظهيرة، استقلت هي تاكسي وذهبت إلى البازار لتعتذر له. وافق على دعوتها له على العشاء.

- بالمناسبة... اسمي "ريجينا راتزينجر"... ما اسمك؟

- ناديني "محفوظ".

***

تناولا سمكًا على الشاطئ في "الترابين". جلس سوداني، بشرته في سواد الحبر، يدخن في ظل قارب صيد؛ بينما تتقافز طيور أبو فصادة على الرمال. احتضنتهما سماء المساء مثل وشاح من حرير. مر إلى جوارهما بدوي يشد بحبل من خلفه جملًا. حاول البدوي أن يقنعها بامتطاء الجمل في جولة بطول الشاطئ. قال له "محفوظ" شيئًا ما، كان كفيلًا بأن يصرف البدوي من المكان. بعد العشاء، تمشيا بمحاذاة الشاطئ حتى ديسكو "ذا تيمبل" في فندق "دومينا". راقصته "ريجينا" وقد أغلقت عيناها؛ تحلم، ومن حولهما تتمايل أجساد بقية سائحي المجموعة.

بعد ساعات، كان "محفوظ" يوقد لها نارًا على الشاطئ. أخرج علبة سجائر "كليوباترا" من جيب قميصه، ثم دس سيجارة منها بين شفتيه. أخذ يفتش في جيوبه على ولاعة ولكنه لم يجد. فتناولت "ريجينا" عودًا من النار ومدت يدها المرتعشة به إليه. لامس طرف السيجارة بالنار. لم ينتبها إلى تلك الطافية المتوهجة التي سقطت من العود على بنطلون "محفوظ" القماش واسع القدمين. وعندما تصاعد الدخان، انتبه وصاح وهو يطفئ النار بيده... عندئذٍ أدرك "محفوظ" أن شيئًا ما فيه قد تغير...

... تغير إلى الأبد.

15



- شوف... مسز "إيلاندر".

قالها "جوي" بينما كانت سيارة "إم بي جي" البيجو تنطلق مسرعة باتجاهنا محاذية لسد النهر. راقبناها حتى مرقت إلى جوارنا كالسهم. كانت السيدة "إيلاندر" متجهمة الوجه، حتى إنها لم تنظر لنا عندما لوحت لها أنا و"جوي" بأيدينا نحييها.

- غاضبة.

كنا قد رأينا سيارتها متوقفة عند مركز الشرطة، لدى السيرجنت "أوس مانتنج". ولم يصعب علينا تخمين سبب وجودها هناك: فقد كانت تشتكي من طائرة غريبة تحلق أحيانًا على ارتفاع منخفض لدرجة مخيفة فوق حديقتها؛ حيث اعتاد "جوي" مؤخرًا القيام بطلعات استكشافية فوق "البيت الأبيض".

عبر "جوي" السد متجهًا إلى الأرض السبخة، وهو يقول لي:

- أريد أن أختلي بنفسي قليلًا، "فرانكي".

عرفت من سحب الدخان التي تصاعدت فوق بحر العيدان المتهشمة والخشخاش الذي نما إلى أحجام لافتة أنه كان يريد أن يجلس مع نفسه

لتدخين سيجارة. يحوم طائر السنونو من فوقه، بينما طارت الحشرات فوق الأرض هربًا من هذا الذي اقتحم عليها منطقتها.

قاموا بتعليق رايات صنعوها من حقائب الكتب أمام بعض منازل القرية. بعد عام سيأتي دورنا. وبعدها؟ بعدها سيرحلون – "جوي" و"كريستوف" و"إنجل" – إلى مكان آخر. للدراسة أو العمل، أو أي شيء لا يستلزم وجودي معهم. يبدو أني قد صرت حملًا ثقيلًا من الأفضل أن يبقى دومًا في مكانه. ضاق أفقي، وعودت نفسي على أن لا أتمنى الكثير، مثل أي حيوان أو كاهن بوذي.

أو مثل "جوي".

رأيت "كريستوف" على دراجته، يتجه نحوي بسرعة كالمجنون. ولكنه فرمل أمامي في اللحظة المناسبة:

- "جوي" فين؟

أشرت نحو الزراعات، حيث تتصاعد حلقات الدخان الصغيرة قبل أن تنعدم عالية فوق العشب. ركن "كريستوف" دراجته على العمود، قبل أن يرفع السلك الشائك المحاذي للسد بإصبعيه. تخطاه بساقه اليمنى أولًا، ثم اليسرى. ونادى على "جوي" وهو يتقدم نحوه.

ارتفعت يد من بين الحشائش الطويلة.

أخذ "كريستوف" طريقه إليه، وسرعان ما كانت الحشائش تصل حتى فخذيه، وكأنه سيغوص فيها حتى النهاية. من خلفي، حفحفت أوراق الشجر الجافة وهي تزحف على الأرض بفعل الهواء. منذ وقت غير بعيد كان كل هذا جليدًا، ساعد الطائرة على أن تقلع، أما الآن فيمكنك أن تلمح بين حين وآخر مصيدة محار قابعة وسط العشب والأزهار، تتخذ منها طيور السنونو نقطة للانطلاق نحو السماء قبل أن تعود لتقف عليها. ظهر "جوي" جالسًا بعد

دقائق، ويبدو أنه تضايق من هذا الذي حضر ليقطع عليه تسلسل أفكاره. نهض ومشي نحوي. لم يكن أمام "كريستوف" سوى أن يتبعه. صاح في "جوي":

– احكِ لي، "جوي"، شفت إيه هناك؟ كفاية غموض، مان، أنا من حقي أن أعرف، فأنا ساعدتك، نسيت؟!...

وسّع "جوي" المسافة بين السلكين الشائكين حتى يعبر منهما "كريستوف". قبل أن يقول في بطء:

– رأيتها.

لم يتمالك "كريستوف" نفسه:

– كانت بتعمل إيه؟

يبدو أنه يظن أن نصيرة العري هذه تقول بشيء مختلف، مثل طقس من الطقوس الجنسية مثلًا.

– لم أجد شيئًا يمكن أن أراه. شعر في كل مكان.

وكأن أحدهم أقدم على غلق كل أصوات الدنيا من دون سابق إنذار. هذا أفضل وصف وجدته لنوع الصمت الذي خيم علينا. خيل إليّ أني أرى تفكير "جوي". وخاب أملي بعد الذي قاله؛ فلا يمكنني تخيل أي شيء مع كل هذا الشعر، خاصة وأن كل الجهد المبذول يفوق النتيجة التي وصلنا إليها. كنت أتوقع أكثر. صاح "كريستوف" في سخط:

– "زفت... كنت متوقع ده".

***

إجازة طويلة أخرى في الطريق. واحدة من تلك الإجازات التي لا تتركك قبل أن تجهز عليك تمامًا. لا تمثل لي إجازة الصيف فترة سعيدة أبدًا. فلا شيء كثير

أمامك لتفعله طالما أنك غير قادر على أن تلهو تمرح مع الفتيات. صحيح أنني أقضي أشهر الصيف مرتديًا الشورت والقمصان الهاواي صاخبة الألوان، التي اشترتها ماما لي، ولكن هذا يزيد من لفت الأنظار إلي. لو سألتني لقلت لك إنني أفضل أن أرتدي ملابس واسعة محايدة الألوان تغطيني حتى عنقي، ولكن هذا أمر مبالغ فيه في الصيف. لذلك أبقى جالسًا في مكاني مثل أي كسول، بينما يمر عليّ الناس وهم ينظرون إليّ وكأني معتوه. أعتقد أن هذا هو أول شيء يخطر على بالهم، خاصة عندما يرون أي جالس على كرسي متحرك مثلي، فيعتبرونه مشفقين فاقدًا للحياة. وعن نفسي، توقفت عن محاولة إثبات العكس منذ زمن بعيد.

أحب شيء أفعله في الصيف هو الجلوس عند النهر بصحبة "محفوظ"، فهو الوحيد الذي لم أضطر أن أشرح له أي شيء. تطل الشمس على الماء؛ ضوؤها شديد لدرجة أنك تشعر به داخل عقلك.

نجلس هناك كثيرًا، المصري وأنا، وكل منا مستسلم لأحلام يقظة نرجسية، مثل تلك التي تواتيك كلما أطلت التحديق في المياه أو في النار. يأتي "بيت" بعبارته ويذهب، وتطلق سيارة بوقها وهي تمر علينا، ومن الصفصاف عند شط النهر يتطاير زغب أبيض فوق صفحته، ليستقر على الماء أو يطفو حتى يصل للجانب الآخر. تشتكي ربات المنازل من هذا الزغب الذي يصل إلى المنازل من عند النهر، ويبقى متربصًا لأي فرصة كي يتسلل إلى داخل المنازل، فيصعب عليهن تنظيفه. كان عقل "محفوظ" في مكان مختلفًا تمامًا، ربما هو يفكر في موطنه وتلك الرياح الغريبة التي أتت به إلى هنا، إلى حيث يجلس على هذه البلوكات البازلتية بصحبة "فرانك الذراع".

هناك في النهر الكثير من الزوارق الخاصة، تطفو فوقه باردة في تجسيد لذلك التآلف بين وفرة المال وفساد الذوق، لا يفوقه سوى تآلف الملح والفلفل. يمر علينا أحيانًا زورق قديم الطراز، على متنه أناس يرتدون ملابس رياضية قطنية مقلمة. وكأنهم قدموا من عالم آخر ليمرقوا من أمامنا في خفة استغربها.

هناك نوع من الحنين في نظراتهم إلى الشاطئ، تمامًا مثل نظراتي التي أبادلهم إياها. وكثيرًا ما يلوحون لنا.

أعلم أن هواة الزوارق والقوارب يحبون التلويح في سعادة لأقرانهم على القوارب الأخرى، وكذلك لمن هم على الشاطئ. ولكن أعلم كذلك أن سائقي السيارات وراكبي الدراجات لا يحيون بعضهم البعض، ولكن قائدي الدراجات البخارية يحبون تحية بعضهم. ولهذا السبب أجد علاقة وثيقة وخفية بين أصحاب القوارب وأصحاب الدراجات البخارية. مرة من بين عشر مرات، يقوم "محفوظ" بالتلويح لهم وهو شارد الذهن. وأحيانًا يتمتم بكلمات لا أسمعها، وكأنما يؤيد لنفسه مضمون حوار داخلي يدور بينهما، وعندما يفعل ذلك يزداد شاربه حضورًا. أدرك الآن سبب حب "ريجينا" له – ذلك الشعر الأسود الجذاب، والعيون العميقة الداكنة، وسط بياض واسع فيها، وكأنه أحد الطوارق الذين أشاهدهم في قناة ناشيونال جيوجرافيك؛ أولئك الذين يرتدون الأوشحة الزرقاء فلا ترى منهم سوى العيون.

قال لي "محفوظ" ذات يوم:

– هناك طائر بجع في نوبيع. كبير أبيض. ذات مرة خرج من الماء ولم يعد إليه ثانية. ربما ملّ العيش في البحر ورغب في الحياة وسط البشر. كان يأكل ما نعطيه له من اللحم والخبز والسمك. يأتي السياح لالتقاط الصور معه. وأحيانًا نوقد نارًا في الليل فيمر علينا سريعًا، وكأنه يراقبنا.

في تلك اللحظة، أخرج العربي سيجارة "كليوباترا" من علبتها، وربت بها أولًا على إبهام يسراه. أشعلها، قبل أن ينتبه إلى أنني أجلس معه. ناولني واحدة. دخنا سويًّا. بعض المدخنين يزفر الدخان بكمية كبيرة وكأنه يخرج من محرك طائرة، دخان رمادي قوي في مسار مستقيم، ولكني لم أرَ في حياتي شخصًا يدخن مثل هذا العربي – فهو يدخن حتى يختفي وجهه تمامًا، إن صح تعبيري. يخرج الدخان من فمه فيحوم حول وجهه، فيحوله إلى قمة جبل تكاد

تختفي وسط الغمام. أهذه هي الطريقة التي يدخنون بها في مصر؟ إنه مشهد جدير بالفرجة فعلًا. يبدو أنه نسي حكايته عن طائر البجع، فقد جلس القرفصاء مجددًا، وانشغل بمراقبة القوارب، بينما يختفي وجهه مع كل زفرة دخان وأخرى.

مر وقت ونحن على هذه الحالة، بعده عاد "محفوظ" للكلام، وتحدث عن أيام انخفض فيها عدد السائحين بسبب توتر الأوضاع في إسرائيل، وكيف أن الحال قد ضاق عليهم وهم يترقبون عودة المياه لمجاريها.

– تخيل أنك بحار، وفجأة لا تجد أي رياح. تتوقف سفينتك في مكانها وسط البحر، وليس بيدك سوى الدعاء حتى تهب الرياح. نفس الحكاية مع التاجر؛ يشد الحزام ويترك حموله على الله. انتظرنا انتظار البذور في الصحراء للمطر. وانتظر معنا البجع. ولكن لازم ناكل. والبجع أمامه بحر مليان سمك، صح؟ لكنه بدلًا من ذلك، قرر أن يسرق طعامنا.

نظر "محفوظ" إلي في صرامة:

– الاتكال على الغير يحول الإنسان مع الوقت إلى لص. تحول الطائر إلى مجرد لص حقير. طاردناه ولكنه لم يرحل، والظاهر إنه نسي أنه بيعرف يصطاد. وفي ليلة ارتكب جريمة عاقبه عليها الله عقابًا شديدًا. كان "منصف" مشغولًا بتسوية فرخة عند الشط، فانتهز الطير الفرصة وسرق الفرخة من على السيخ، وبلعها مرة واحدة. ومفيش ساعة، لقيناه ميتًا.

سحق "محفوظ" عقب السيجارة بكعب حذائه، وهو يهز كتفيه. نظرت إليه في حيرة. أهذه هي نهاية الحكاية؟ لم أكن أتوقع تلك النهاية المأساوية المباغتة. ولكن "محفوظ" ظن أنها حكاية مشوقة، فقد كان ينظر إليّ منتظرًا الاستحسان. بوسعه أن ينتظر... حكايته غير مشوقة بالمرة.

***

في الأسبوع نفسه، كانت أول مرة أرى فيها ملامح القلق على وجه "جوي".

- أخذت جواز سفره. المجنونة.

ارتفع حاجباي في تعجب وتساؤل.

- ماما. أخفت جواز سفر "محفوظ". خافت يتركها ويرحل.

تبذل "ريجينا" كل وسعها حتى لا تفقد هذا العربي.

- أخفت بدلته أيضًا. خائفة عليه من بقية السيدات في البلدة.

لاحظت بالفعل أن "محفوظ" مهتم بنفسه أكثر من اللازم. ولم يعد ركاب العبارة ينظرون إليه في ارتياب وهو يقوم بجمع الأجرة مساعدة لـ"بيت"؛ هذا العربي الأسود ذي الشارب، الذي يرتدي البدلة ويجمع الأجرة – فرجة فرجة يعني!

والآن بعد أن نصب الحب خيمته في قلب منزله، لم يعد الحال مرضيًا لجوي. كانت "إنديا" تفسر له ما يجري؛ وهو نفسه لا يزال أقل مبالاة بكل أجواء الغرام من حوله. مرة، سأل "إنديا":

- تقصدين أن هذا الموضوع شبه مستشعرات التذوق في اللسان؟ الحلو في أول اللسان، واللاذع في وسطه، والمر في آخره؟ هذا ما قصدته، أن الحب حلو في أوله ويصبح مرًا كلما زاد حبها له؟

على الرغم من أنه نسي الملوحة في تشبيهه، فإنني وجدت المقارنة معقولة إلى حد ما: فالطريق إلى المريء والأمعاء يبدأ بالافتتان بالطعام. وضعت هذا التشبيه إلى جوار ما قرأته عن الحب، وما لاحظته يجري بين والديّ. ولكن وجدت نفسي أتذكر تلك الحكاية السخيفة... حكاية البجع والفرخة المشوية...

... لم أعرف لماذا ربطت للأبد بين الحكايتين.

16



بينما يكاد العشب يشتعل تحت وطأة الحر في الحقول، وتساق الغنم إلى السلخانة وقد أنهكها الحر؛ لأن المزارعين تكاسلوا عن زراعة أشجار تستظل تحتها، تعلمت شرب البيرة. وهذا هو الشيء الوحيد الذي علمني "ديرك" إياه؛ أن أشرب المحيط ولا أرتوي، وأن أشرب حتى أتجرد تمامًا من كل عقل وكرامة، وأصير مجرد بهيمة وسط بهائم، وأهيم على وجهي بحثًا عن أي متعة قذرة.

فكيف تورطت في أمر كهذا أصلًا؟

أمرُّ على "صن كافيه" فأجد شقيقي الأكبر يخرج منه، لأنه رآني وأنا أمرُّ في عربتي. كنت مندهشًا من أنهم سمحوا له بالدخول هناك من الأصل، لأنهم يمنعون من هو في مثل سنه، ألا يفعلوا ذلك؟ على كل حال، كان "ديرك" سكرانَ فعلًا وراح عقله منه. لذلك صاح:

– سوف تموت من الحر، "فرانكي"، تعالَ ادخل!

قبل أن أرد عليه، كان يدفعني إلى داخل الكافيه:

– واحد بيرة لي وواحد بيرة لأخي الصغير، "ألبرت".

"ألبرت" هو الواقف وراء البار، أما باقي من في المكان فأعرف وجوههم ولكن نسيت أسماءهم.

ما الذي أفعله هنا من الأساس؟

- لا تنظر للناس وكأنك ستقوم بعضّهم، "فرانكي"!

"ديرك" مرح وساخر لدرجة خطيرة، وقد أثار سخطي لما ناداني الآن "أخي الصغير" للمرة الأولى في حياتي. وأسوأ ما في الأمر أنني كنت أعرف بالضبط ما يفكر فيه. أنا اليوم حيوان السيرك الذي سوف يسليه، وسوف يستفيد من وجودي بأن يجبرني على أن أشرب البيرة لأول مرة في حياتي وأمام الكل، ثم يضحك معهم والبيرة تسيل من وجهي إلى التيشيرت. نصيبه هو الضحك، ونصيبي شفقة الناس، ولكن لا أحد سيعترض "أخوه الكبير وعارف بيعمل إيه"، ثم تأتي ثاني بيرة، ولمَ لا، إذا كنت تريد مني أن أشرب، يا أحمق، فسوف أشرب، حتى تختفي تلك الضحكة الفاسدة من وجهك، وسأفعل ما لم يخطر ببالك، ولن أكون كلب البحر الذي امتلكته، بل مصدر عار وغضب لك، فلا يمكن لأحد أن يبقي شيئًا تحت سيطرته من دون غضب وبلطجة... حسنًا، "ألبرت"، لن أرتوي وسأظل أشرب وأشرب، وادفع أنت الفاتورة... ولو كسرت كل كوب بعد أن أشرب ما فيه فذلك ببساطة سببه التشنجات التي أعاني منها، أليس كذلك، يا صاحبي؟

هكذا تبدأ مثل هذه الحكايات؟

وإلى أي حد عليَّ أن أتمادى حتى أتخلص من نظرات الشفقة تلك؟ ليس إلى أي حد بعيد. شربت حتى سقط وجهي، مائلًا على صدري مثل البقرة، فنصبوا ظهري وأنا جالس في العربة، ومنعوا عني البيرة. وكان "ديرك" قد غضب بالفعل لدرجة أنه كان على استعداد لأن يلكمني، ولم يمنعه سوى أنه يعرف معنى أن تضرب معاقًا أمام الناس.

أكثر ما أدهشني هو كل هذا الصخب الذي تسببت فيه. ظنوا أنه مضحك في البداية. فقد أشعل الكحول النار في صمتي المعتاد. وكأن قصبتي الهوائية انتفخت وتضخمت لتمتلئ بالأكسجين، فأخذت أصرخ وأصيح ... صحت وصرخت. آخر مرة سمع فيها "ديرك" صوتي كانت من سنتين، وطبيعي أنه لم يصدق أذنيه. وما إن بدأ صراخي يفقد عامل المفاجأة والإدهاش، حتى بدأوا في التململ والتعبير عن عدم الارتياح بينما لم أتوقف. صاح البارمان:

- كفاية كده.

ضربني "ديرك" على ذراعي. تبًّا له. عاد الرجال للبار، وأحدهم يقول:

- كلهم متشابهون. أو أغلبهم.

ورغم أن "ديرك" يعرف قصده تمامًا، فإنه كان سعيدًا بهذا الموضوع الجديد الذي انفتح بابه أمامه:

- ماذا تقصد؟

أجابه الرجل من دون أن يلتفت إليه:

- ماذا؟ عمَّاذا تتكلم؟

- أنهم كلهم متشابهون.

نظر الرجل إليه وكأن لأخي رائحة منتنة. هذا هو أخي الحقيقي، كما أعرفه. رأيت أطرافه وهي تتحول إلى فولاذ والغضب الأسود يلمع في عينيه؛ هذا هو "ديرك هرمانز".

- وماذا يضايقك، يا أحمق؟

- توقعت هذا الرد منك، يا وضيع.

وفي لمح البصر، وجه "ديرك" لكمة كالقنبلة إلى جبين الرجل فارتطم برخامة البار. انفجر الدم في وجهه. نهض الرجل وهو يصدر خوار مثل ثور، وألقى بجسده على أخي، ولكنه تلقى لكمة أخرى في معدته، شعرت معها أن المكان يرتج. ونهض الجميع، وكأنهم عصابة اتفقت على أن تكون يدًا واحدة في

وجه أي هجوم من الخارج، وهكذا صار "ديرك" يواجه خمسة بدلًا من واحد. ولكن لا تنسَ أنني قلت لك من قبل إنه ضعيف في الحساب. وبعد ثوانٍ، كان مثل غريق يخرجونه من النهر. يسحبه اثنان نحو الباب، بينما يستميت الثلاثة الباقون في ضربه حتى إنني أشفقت عليهم من هذا الجهد. ولكنهم تجاهلوا وجودي. هؤلاء جماعة من الحرفيين والميكانيكيين وقد انقضوا على "ديرك"، الذي لم أشعر نحوه بأي تعاطف ولو لجزء من جزء من الثانية، ولا حتى حب الأخ لأخيه. ولكني، وياللغرابة، وجدت نفسي أغضب. غضبت حتى تقطعت أنفاسي. غضب مكتوم داخلي تغلي له الدماء في عروقي. شعور جديد علي. هكذا اندفعت بعربتي بكل ما فيّ من قوة نحو هذه العصابة.

ارتطمت برجل كان يعطيني ظهره وهو مشغول بتأديب "ديرك". صدمته عربتي في ساقه أسفل ركبته، وهكذا سقط جسده للوراء، فالتقطت عنقه بسلاحي الوحيد؛ يدي. اعتصرت قصبته الهوائية. شوّح بذراعيه حتى يقتنصني ولكن هيهات. ضغطت بيدي أكثر، وانغرست أصابعي في لحمه. شعرت بعضلاته تتقلص في خوف غريزي من الموت، وتسارعت أنفاسه. أتذكر أني شعرت بمتعة طاغية ورغبة عارمة في قتله. وجدت تنفيذ تلك الرغبة سهلًا. كل ما عليَّ هو أن أضغط أكثر. فيتمزق عنقه. ترك أصحابه "ديرك" والتفتوا إلي، وأخذوا يحاولون إبعاد ذراعي عن تلك الرأس التي ازرقت بذلك اللسان الذي تدلى مستسلمًا، ووجهوا اللكمات إلى رأسي بلا رحمة. ووسط سيل اللكمات لمحت ذلك الوجه وقد تحول للأسود. أرجوك يا ربي... دعني أقتله...

هذا هو كل ما أتذكره.

وحده ذلك الوجه، الذي لن أنسى لونه الأسود. وبعد ذلك اليوم، تعلمت أمرين:

(واحد) أن الرجل الذي تمنيت أن أقتله كان عامل بناء اسمه "كليمنس مولدر"، وأنه لن يكون صديقي أبدًا؛

(اثنان) أنني صرت مغرمًا بذلك الجنون الذي يبثه الكحول فيّ، وأنني سأبقى مخلصًا لهذا الغرام بقية أيام حياتي.

17



ذكرتني تعليقات "إنديا" على الغرز التي صارت تزين حاجبي بسلسلة من العناكب الصغيرة التي تهرول وراء بعضها.

كانت قد أحضرتني إلى الجراج خلف المنزل، حيث كان "جوي" يغرس إبرة في ذراعه. قالت "إنديا":

- "جوي"؟! بتعمل إيه؟!

كان قد وشم ساعده الأيسر بأحرف اسمه: JOE – ولا يزال الدم عليها، ولكن الوشم الأزرق واضح. كنا في شهر أغسطس، وقد وقعنا جميعًا في مصيدة الحر. سألني "جوي":

- "فرانكي". كنت في خناقة؟

العلقة واضحة عليّ إذن. الكدمات حول عينيَّ تحول للون الأسود، وست غرز عبرت على حاجبي. لا يتورط "جوي" في خناقة أبدًا، فهو لم يتعرض لمثل ما تعرضت أنا له. أدركت أنني قد تجاوزت الخط الفاصل بين عالمنا وعالم الأوغاد، وصرت من فئة المجرمين والقتلة، والأسوأ أنني من عائلة يبدأ صبيانها في التشاجر والبلطجة ما إن يبلغوا. (ليس في عائلة "هرمانز" فتيات؛ لا مكان فيها للجنس الناعم).

أنا، الذي كنت قد أقسمت ألا أصبح مثلهم، لم أتردد لحظة في أن أكون طرف أول خناقة تظهر في طريقي. ولو أن أحدًا لم يوقفني لكنت قد خنقت ذلك العامل حتى الموت. ولكني سقطت، ولاحظ "جوي" ذلك على الفور. هو لم يقل كثيرًا ذلك اليوم، واكتفى بالجلوس ليضخ المزيد من الحبر في ذراعه. عضلات فكه تتقلص بشدة في كل مرة تنغرس فيها الإبرة في جلده.

وهكذا غادرت بعد فترة من الوقت، ولم أره بعدها لبضعة أسابيع. وفي الأيام التي تلت ذلك انشغلت بمذكراتي بدرجة أكبر من أي وقت مضى، حيث قمت ببعض التعديلات اللازمة.

راحت أفكاري إلى الأعوام التي سبقت معرفتي بجوي، والتي سبقت غيابي عن هذا العالم لمدة 220 يومًا. كانت لديَّ أسئلة كثيرة في ذلك الحين. كثيرة لدرجة أصابتني بالدوار. كان لا بد أن تخطر لي على هذا النحو، أنا على يقين من هذا. فلا يعقل أن يولد الناس ليعيشوا ويموتوا فحسب. هناك سر ما بعيد عن متناولي، شيء يعرفونه، ولكنهم لا يعرفونه لي، شيء واقعي ألف مرة أكثر من هذا الواقع. يقولون إن السؤال هو بداية كل فلسفة. أما بالنسبة لي فقد كان بداية الجحيم. يقول بابا:

- لا تسأل الحياة عن السبب. عشها هكذا مثلما هي.

ولما كنت مصرًا على تساؤلاتي كان يصفعني بيد خفيفة على جانب رأسي. ببساطة كان الشخص غير المناسب لتلقي أسئلتي، ولكن هذا لا يعني أنه ليس هناك إجابات؛ لم أكن جاهلًا لدرجة أن يغيب عني الجهل عندما أراه. لذلك انتظرت. ففي مكان ما سينفتح لي باب، وسأعثر على شخص يفسر لي كل شيء، وحتى ذلك الحين أود أن تبقى عيناي مفتوحتين وألا أتوقف عن طرح السؤال.

عرفت أن الناس تحب أن تتخيل الحياة في صورة سلم. تبدأ في الأسفل وتبقى تصعد فيه طالما استمرت حياتك. الحضانة، ثم رياض الأطفال، ثم المدرسة الابتدائية، حيث يؤكدون لك في كل يوم أن مستقبلك يمر عبر "التعليم

العالي". فهناك، في ذلك المكان، تعرف الأشياء التي لا يمكن أن تعرفها وأنت بعد في مكانك هنا.

صدقتهم. ولكن صبري ينفد، لذلك ظللت أسأل وأسأل، حتى صرت مصدر إزعاج لهم. كنت في عيونهم مجرد صفيق، يلعب لعبة أكبر منه. كما لو كنت أطلب التحدث إلى الرب ذاته.

لا أريد أن أدعي أنني، مع كل تلك الأسئلة، كنت من نوعية الأطفال التي قد يحبها قلبك. بل كنت أقرب إلى مصاب بالتوحد. آنذاك كان تفكيري مسيطرًا عليَّ لدرجة مرضية. وصلت إلى نوع من الزهد والتقشف المجرد أعجبت به كثيرًا فيما بعد لما قرأت فلسفة الساموراي.

ولكن الرد لم يأتِ. كنت أتوقع الكثير من المرحلة الثانوية. أحياء... تاريخ... أدب... أنا قريب من الإجابة إذن. كل ما عليَّ هو أن أستغرق في كومة الكتب القابعة من حولي كل يوم.

غير أن الكتب لم تتكلم إلا بصوت أساتذة المدرسة، أو أن الأساتذة هم الذين لم يتكلموا إلا بلغة تلك الكتب. التبس الأمر عليَّ. علمتني مهارات، ولكنها لم تقدم لي أي إجابات.

حتى ذلك الحين، كنت ألوذ بتساؤلاتي. ولكني وصلت إلى محطة توقف دامت على مدى السنوات الخمس التالية؛ أيقنت إن هذه الأفواه ستتلفظ بنفس الكلام طوال الوقت، واكتشفت، بكل رعب وفزع الدنيا، أنه ليس لسؤالي مكان هنا أيضًا. هي الأمور كما كانت عليه، ولا فائدة من اللف والدوران حولها كثيرًا... "عشها هكذا مثلما هي" - تمامًا مثل قال بابا.

هكذا أمسكت بصيص حقيقة تعسة. كل أمل الناس أن يعيشوا حياتهم بكل راحة قدر الإمكان، من دون الاضطرار إلى التعامل مع الأسئلة التي لا يمكن الإجابة عليها بـ"نعم" أو "لا"، أو حتى "لا أعرف". لا أحد حولي يفعل أي شيء عدا أفضل تقليد ممكن لما يرون غيرهم يقوم به. يقلد الآباء آباءهم، وتقلد

معلمات رياض الأطفال معلمات رياض الأطفال الأخريات، والتلاميذ يقلدون تلاميذ، ورجال الدين يقلدون بعضهم البعض. وكان الاختلاف الوحيد بينهم هو درجة نسيان كل واحد منهم لشيء مما يحاول تقليده.

لا أحد منهم يعرف الطريق، فهم مجرد هواة بدرجات متفاوتة. وأنا أرقد مستيقظًا في الليل، بعيون مفتوحة، خائفًا من الأشياء غير الموجودة أكثر من الأشياء الموجودة.

يقول البعض إنه ولد في الجسد الخطأ. بيد أنني ولدت ليس فقط في الجسد الخطأ، ولكن أيضًا في الأسرة الخطأ، وفي القرية الخطأ، وفي البلد الخطأ، و.. قرأت كثيرًا، وفي تلك الكتب خيل لي أنني أنظر أحيانًا إلى قبس من نور. التهمت كل كتاب في مكتبة "لومارك"، باستثناء ما كان في قسم المجلدات الضخمة. وعندما اكتشفت الساموراي، أعجبت بهذا التقشف والانضباط الذاتي. هم على الأقل أدركوا أن من الواجب عليك، عندما تفقد شرفك وينتفي المعنى من حياتك، أن تطعن بالسيف جسدك لتنهي حياته. "هارا كيري". هي طعنة قوية ومباشرة، ولا يمكنك أن تتمرن عليها، لأن المرة الأولى هي أيضًا الأخيرة. أرى أن أناسًا كثيرين لا بد أن يجربوها.

في الكنيسة، جلست في آخر صف ألعب الكوتشينة، في اللحظة التي يقول فيها الأب "نيوفنهويس":

– كل من يبحث عن الحقيقة يصل إلى النور.

ولكني لا أزال عاجزًا عن رؤية ذلك النور.

تولدت قناعة "نيوفنهويس" من ضرورة أن يكون مقتنعًا، وكان هذا واضحًا لي. ولكن طبيعة ما كان مقتنعًا به بالضبط أقل وضوحًا. كان هذا القمع الديني هو الشيء الوحيد الذي حافظ على سلامة الفخ المنصوب على مدار ألف سنة. ولكن الآن في هذا العصر، وبعد أن أدى اختراع محرك الاحتراق الداخلي وتبني الديمقراطية الاجتماعية إلى النيل من هذا الفخ بعض الشيء،

وتراجع القمع خطوات وخطوات أمام التسامح، حتى ظهر الجيتار في الكنيسة. تمامًا كما يستسلم كبار السن، الذين بقوا أوباشًا طيلة حياتهم، فجأة.

وعندما أتذكر ذلك الآن، أعتقد أنني لم أكن حتى أبحث عن الحقيقة أو عن أي شيء، بل كنت أبحث فقط عن شيء يمنحني ولو بصيص نور.

كانت سنتي الأولى في المدرسة الثانوية كارثة. أحبطتني. الرداءة والاستكانة في كل مكان حولي. وبراءة دمرت كل شيء، لأنها كانت تعني أنه ليس بمقدور أحد أن يساعد حقًّا. فلو كنا، حقيقةً، مقياس كل شيء، فأي أمل هناك للخلاص؟ وبحلول نهاية السنة الثانية كنت غاضبًا. وتبع ذلك إجازة طويلة، وشهدت يوليو وهو يرحل. ثم حل أغسطس، وانتظرت اللا شيء. أرقد على ظهري وسط الحشائش الطويلة التي كانت تصفر بالفعل. تزحف الحشرات فوق الأوراق الجافة، وإلى ذراعيّ وساقيّ. أتجاهلها. في مكان ما أسمع ركض حصان هادر، وعيدان الذرة لا تزال في نصف طولها العادي تعلوها أعرافها البنية. نظرت إلى السماء الخاوية. زرقاء جميلة. ولكن خاوية. صوت رتيب... طائرة صغيرة تعبر في ذلك الخواء.

في حدود رؤيتي تمتلئ النباتات ذات الأشواك الصوفية بالبراعم، وترفرف الفراشات بلا هدف، فتولد لديَّ شعور وكأني أغرق. أغرق نحو مكان مظلم وهادئ.

كان يوم قص الحشائش.

لا بد أن أكون قد سمعت صوته؛ ذلك الجرار بأنصاله الحادة، يقضي على الحشائش والأزهار. صوت هادر. من هذا الذي لا يسمع هدير جرار من طراز "جون دير" وبقوة 190 حصانًا؟ ومن هذا الذي يستلقي وينام وسط العشب في وقت كهذا؟ من هذا الذي يفعل شيئًا كهذا؟

أنا...

18



حطمت عجلة الجرار الأمامية عظمة صدري وكسرت ظهري، ولكنني نجوت من الأنصال. لمحني قائد الجرار، ولكن الأوان فات. يسمي البعض ما حدث بالحظ، والبعض الآخر سمَّاه سوء حظ. يقول "موساشي": "طريق الساموراي هو قبول الموت بجرأة".

لا أعرف إلا تخمينًا تفاصيل ما حدث بعد ذلك. فعلى الرغم من أنني كنت ميتًا لا محالة، لكني أفكر أحيانًا في أني قد تمهلت – وحاولت لسبب ما ألا أنساق إلى الموت، وأن أتشبث بتلك القشة في نهر الموت لتعيدني إلى درب الحياة، فأرجع من حيث أتيت.

ربما كان "جوي" هو السبب.

ذلك كان منذ فترة طويلة، ولا يمكنني أن أعود إليها بعد الآن، فلم تعد ذاكرتي بتلك القوة أو الوضوح. حتى إنني أحيانًا ما أتخيل أنني اختلقت الحكاية من أولها لآخرها – الجرار، الحلم ببطل، العودة إلى نور الحياة.

ذكريات حلمي.

يطفو الجسد أسفل السطح مباشرة. من دون ألم، ومن دون إحساس الفقد. قريبًا من السطح، حيث يخترق الضياء الماء، فيصير أوضح وأوضح، حتى يكون بمقدورك أن تتذوق الشمس. صاح أحدهم:

- انظروا... إنه يحلم.

حلم البطل. سيأتي بطل، يسبقه وقع أقدامه القوية، فيفر كل واحد إلى بيته ويغلق الباب عليه؛ ظهور البطل لا يبشر بخير لأمثالهم. الجو بارد، ونشم رائحة دخان الخشب المتفحم. يتطاير عبر المداخن ليمتزج بالضباب المقيم فوق الحقول والطرق.

يطلق الوافد الجديد صفيرًا منغومًا لأغنية هادئة. سوف يجلب معه الفرحة والمرح، ولكنه سيغرس بيديه الارتباك. يحمل في قبضته الأزمنة الجديدة مثل سيف لامع. وبه يطيح بالأوهام ويخترق غياهب التخلف. سوف يفتخر بأنه من جلب الجمال، ولكننا سوف نطارده... حتى نطرده؛ فليس هذا بزمن الأبطال.

هناك أيادٍ ترفعك، وأيادٍ تحطك. يقترب الجسد من السطح، بعد أن صار أخف وأخف مع مرور الوقت. ذلك الضياء، تبًّا، يخترق جبهتي مثل رمح ساخن. لقد ولدت لثاني مرة. ألقى بي القدر إلى الشاطئ... أعمى وعديم الحيلة.

كان الجالسون حول فراشي يتحدثون عنه...

... عن "جوي".

19



تعلَّمت أن أمشي بخطى ثقيلة بطيئة على ساقين رقيقتين مقوستين، وأنا أتشبث دائمًا بشيء ما بذراعي السليمة حتى لا أسقط. أنتظر في البيت الصغير في الجزء الخلفي من الحديقة، إلى حين انتهاء أجل والديّ. أنا أعيش في مستطيل. ليس هناك سوى لوحة التحكم الكهربائية، وفرن مايكروويف، وترابيزة، ودورة مياه. السرير وراء الترابيزة، عند الحائط. ماما هي من وضعت النباتات على حافة النافذة. ليس علي الاعتناء بهم كثيرًا، فهي من النوع الذي يبقى أخضر طوال الوقت. خلف المنزل يطل على المدافن القديمة، ومقدمته تطل على مطبخ منزلنا وغرفة الطعام. يجلسون ساعة الطعام إلى المائدة وفوقها مصباح؛ وفي كل يوم يتذكرون أكلة البطاطس المفضلة لديهم. أما أنا فآكل على ترابيزتي، فأنا لا أحب أن يشاهدني أحد وأنا آكل. وبالنسبة لي، حصة الطعام تتألف في معظمها من فترات الانتظار. انتظار أن تروح عني التشنجات، حتى أنتهز الفرصة الضئيلة وأتناول ملعقة من الطعام. يجدي هذا معي أحيانًا، وأحيانًا أخرى لا تكون هناك فائدة منه، فلا يمكنك أن تصيب دائمًا في توقعك لموعد الرعشة التالية.

تلوح لي مما في كل صباح وهي قبالتي في المطبخ. ثم تروح بالقهوة لبابا. يجب ألا أكون هناك حتى أعرف ما يدور بينهما من دردشة في تلك اللحظات. وبعد الإفطار تأتيني وتساعدني على ارتداء ملابسي. وتحضر معها قدح القهوة

وساندويتش. وعندما أخرج أتحرك بعربتي على ممشى البلاط في الحديقة حتى بوابة الدراجة، ومنها إلى الشارع. وفي وقت الغداء تحضر لي ماما وجبة دافئة، ولو جعت ليلًا أقوم بتسخين علبة الهوت دوج وأتناولها مع الكثير من المستردة.

صنع لي "سام" أرففًا أضع فيها مذكراتي، وقد أعجبني تصميمها.

هذا نظام. نظام مصطنع فرضته على كل ما جرى لي في حياتي.

كل كلمة كتبتها، كانت في الفاصل بين تشنج وآخر. ولو حدث وأتاني التشنج وأنا أكتب، فإن القلم يطير مني في الهواء.

الجدران الداخلية لبيتي مغطاة بتلبيسة من البلاستيك البني الفاتح الذي له مظهر الخشب. وهي سهلة التنظيف؛ ففي فصل الشتاء تكون صوبة النباتات رطبة وينمو عفن أرقط على الجدران يشبه محار "البرنقيل" الذي ينمو على خشب السفن.

كان "ديرك" قد انتقل بالفعل ليعيش بعيدًا عن المنزل، فهو يفضل أن يعيش وحده مع قذارته. ولا يأتي "سام" إلى المنزل إلا في عطلة نهاية الأسبوع، أما بقية الأيام فيقيم في مدرسة داخلية للشباب الذين يعانون صعوبات في التعلم. عمل الأسرة في حالة جيدة، ويدر دخلًا لا بأس به. يعمل "ديرك" هناك اليوم كله، ويومًا ما سيكون مسؤولًا عن كل شيء، على الرغم من إنني لا أعتقد أن بابا من النوع الذي سيضطر يومًا للمكوث في المنزل.

***

تبادرني ماما عندما تأتيني كل صباح:

– صباح الخير، حبيبي. إيه رأيك في مج قهوة؟

حتى تجهز لي القهوة، تجلب معها عبوة بلاستيكية تسكب منها القهوة الداكنة القوية. أشرب قهوتي بشاليموه، مثلها مثل بقية المشروبات الساخنة التي

لو شربتها مثل أي شخص عادي فلربما انسكبت على حجري وسببت لي حروقًا من الدرجة الثانية. وأنا أفضل الشاليموه المرنة التي يمكنك أن تثنيها إلى زاوية خمسة وأربعين درجة. ترتب ماما السرير، قبل أن تجلس معي إلى الترابيزة.

– أوه، جميل إن الواحد يخلص اللي عليه.

هكذا هي طريقة كلامها، وأنا أجده في نفسي مثل البلسم. وهكذا هي تحافظ على السلام النفسي لهذا المنزل. جسد ماما ضئيل، ولكن حضورها قوي كسيدة. ترتدي فوق بنطلونها فستانًا مشجرًا بأشكال الأزهار. تحكي لي عمَّا سمعته من سيدات أخريات. وغالبًا ما تكون تلك الحكايات عن مصائب. إنها تحب حكايات المصائب تمامًا كما تحب تناول الكوكيز مع القهوة. أسمع منها أخبار الحوادث، وأعرف من مرض ومن أشهر إفلاسه. هي تحب هذه الحكايات من باب التعزية. فمن شهد مصائب الناس تهون عليه مصيبته. وبالتالي تتغلب هي على الخوف. الخوف الكبير. ورغم شفقتها على أولئك الأوغاد تعيسي الحظ، فإنها ترتاح لحقيقة أنها مصيبة حدثت بعيدًا عن بيتنا؛ وأن هناك بشرًا آخرين يتقاسمون معنا ما هو مقدر ومكتوب، وكلما كبر نصيب غيرك قل نصيبك من تلك الكوارث.

أحيانًا ما أجد في حكاياتها معلومات من النوع الذي سيفيدني لأستخدمه يومًا ما وأنا أكتب (تاريخ لومارك واهلها) (لا تضحك مني هنا). وحينما أتطلع إلى أمي وهي تتكلم، يغمرني حب حزين لدرجة أنه يكاد يخنقني.

هذا هو مصيرنا؛ أن نكون نحن الاثنين لبعضنا؛ أنا ثمرتها المعطوبة ومصيبتها الشخصية، وهي التي تحمل معاناة العالم على عاتقها، مثل حصان عجوز.

يخيل لي الآن أني أراها أصغر حجمًا. سوف أعيش بما يكفي لأن أراها وهي تتحول إلى كائن شفاف تمامًا إلى أن يأتي يوم فتختفي فيه من على وجه هذه الأرض دون أي اعتراض – ماما الطيبة؛ "ماري هرمانز"، التي كان اسمها "ماريا جيزينا بوتمان". تمد لي دومًا يد المساعدة، مثل امرأة لطيفة وأم مثالية. بارك الرب روحها.

***

جربت مرة في مكتب التسجيل بمبنى البلدية أن أعرف المزيد عن خلفية عائلة "بوتمان"، ولكنني لم أتمكن من الوصول أبعد من "لامبرتوس ستيفانوس بوتمان"، أول واحد من عائلة "بوتمان" يعيش في "لومارك". حضر هنا في عام 1774، وخطب فتاة من سكان القرية. لم يتزوجا في القرية نفسها، ولكن على الجانب الآخر من حدودها؛ ففي تلك الأيام وبعد حركة الإصلاح تم حظر الكنيسة الكاثوليكية هنا. غرق "لامبرت" في الفيضان العظيم الذي كان بعد انهيار السد في 1781، ولكنه ترك خمسة أطفال كانوا كفيلين بتأسيس عائلة جديدة في "لومارك".

ولكنها عائلة لم تترك بصمتها القوية في المنطقة. فلم أجد عنها سوى بعض أمور مذكورة في أرشيف "لومارك"، من قبيل خرائط مسحية، وعقود، وشهادات تعميد. كنت أجد في كل مستند يضطر "بوتمان" إلى توثيقه هذه العبارة: "علامة × هذه تحل محل توقيع فلان الفلاني من "آل بوتمان"، وذلك لأنه أمي لا يكتب".

حتى علامة إكس التي صنعها ليست مضبوطة.

كانوا يعملون في مصنع الطوب أو صيادين أو مزارعين في المزارع التي لم تكن كثيرة.

أفكر فيهم كثيرًا من الأحيان. فهذا الهواء الذي أتنفسه يحتوي على ذرات ربما يكونوا استنشقوها من قبل، وأنا أنظر إلى نفس النهر الذي نظروا إليه. صار الآن أهدأ حدة، ولم تكن هناك حواجز أمواج في ذلك الزمن، ولكنه ما زال نفس الماء، وما زالت نفس الدورة من المد والجذر والفيضان. أحيانا أتساءل عما إذا كان كل "ياكوب" و"ديرك" و"هانس" و"هنريك" عاش هنا قد شعر بمثل ما أشعر به الآن، وكانت له نفس أمنيات وطموحات الغد الأفضل في يوم من الأيام.

أحيانا في الليل يقفون حول سريري، أبناء عمومتي منذ زمن بعيد، يتحدثون همسًا مع بعضهم البعض بلغة لا أفهمها. ينظرون لي بعيون متسعة، مثل أطفال أفارقة يشهادون بعثة تبشيرية للمرة الأولى. أبادلهم النظرات في استسلام، إنهم بدائيون للغاية، أبرياء، وأنا لا أعرف ماذا يريدون مني؛ فهم يقفون في مكانهم فحسب وضحكاتهم مثل رنين الجرس، وكأني أغرب كائن يشاهدونه في حياتهم.

خفت منهم في البداية، ظننت أنهم يخرجون من المدافن القديمة وراء بيتي، ولكني أعلم أن هذا هراء. فهم غير مؤذين، يقفون متسمرين في مكانهم والدهشة هي القاسم المشترك بينهم وبيني.

ربما ينبغي علي أن أنبهك عند هذه النقطة أنني لست أول شخص في عائلتنا يرى مثل هذه الأشياء. كانت جدتي لأمي تعيش معنا. وكانت أرملة، وتعيش في الغرفة التي صارت لـ"ديرك" بعد وفاتها. ولا بد أني كنت في الثامنة من عمري، وكنا جالسين إلى مائدة الإفطار ذات صباح، عندما وضعت الجدة سكينها فوق طبقها، وأمعنت النظر في وجوهنا. قالت لنا بلكنتها الريفية:

– جاء... جاء. "ثي" أتاني. قال لي إنها نهاية المشوار يا بنتي. أنا هنا لآخذك معي.

ثم عادت لتناول إفطارها، وكأنها لم تقل شيئًا منذ لحظات.

أما "ثي" فكان زوجها الراحل، "ثيودور كريستوفوروس بوتمان"، الذي أتاها وجلس إلى فراشها ليلًا ليعدها أنه سيأخذها معه عما قريب.

وما هو إلا أسبوع حتى كانت الجدة قد رحلت؛ ماتت في نومها، في أول عام من عقدها السابع، وبصحة جيدة تمامًا.

أما عائلة "هرمانز" فقصة أخرى. عاشت عائلة بابا هنا منذ العصور الوسطى – وربما من قبل ذلك، بل ربما استوطنوا المكان قادمين مع جيوش "كلاوديوس دروسوس". ولما حضر الفايكنج إلى هذه الأراضي كانوا لاجئين إلى الكنيسة، يتضرعون إلى الرب أن ينقذهم، بينما يعتمدون على أن يضلل الديك في الخارج هؤلاء الوحوش. كما سبق أن حكيت لك. عثرت في الأرشيف على

"هيندريكوس هيرمانوس هيرمانز"، المعروف باسم "هيند"، والذي ضربه حاجب محكمة "لومارك" حتى الموت بهراوة من حديد في صيف 1745. وعقب موته، فصلوا رأسه عن جسده ببلطة "مثل السيف" وعلقوها فوق قضيب حديدي "عقابًا له على جرمه وحتى يكون عبرة لغيره".

كان قاضي المحكمة وكبار القرية أدانوا "هيند" بتهمة قتل الصياد "مانوس باكس". عمد "هيند" إلى تعذيب "مانوس" على مدار ثلاث ساعات لأجل أن يعترف بأنه من سرق شباك الصيد، ثم حطم رأسه بعتلة.

كان "هيند هيرمانز" متزوجًا من "أنيتي ديركس"، وأنجبت منه ولدًا في الشتاء التالي لإعدام "هيند". ويظهر هذا الابن، "هانيس هيرمانز"، في سجلات المحكمة في قضية كان شاهدًا فيها على سرقة حطب وعلى صيد غير قانوني. أنجب "هانيس" أربعة أولاد قبل أن تتوفى زوجته. وأنجبت منه الزوجة الثانية أربعة كذلك، مات اثنتان منهم في فيضان 1781 الذي مات فيه "لامبرت بوتمان" كما أخبرتك. ومن بعد ذلك لم تولد بنت في عائلة "هيرمانز". ولا حتى مولودة ميتة. لم تنجب العائلة سوى ذكور. أنجب بابا، وكذلك أخوه ثلاثة أولاد. وكما قلت لك: الجميع من الجنس الخشن. وكان رجال العائلة يأتون بأزواجهم من عائلات أخرى. ولهذا فقط استمر اسم العائلة.

ومع أن العلاقة بين "آل بوتمان" و"آل هيرمانز" كانت جيدة، إلا أن المصاهرة بينهما لم تتم إلا بعد مرور مئتي عام. وكان هذا من خلال بابا وماما. فنحن نتاج هذا الاتحاد، ونحن ذرية "لامبرت"، وخصوصًا "هيند"، الذي ورث "ديرك" عنه الطبع الغاضب الشرس والسادي. و"ديرك" يعرف سمعة العائلة جيدًا، وهو ما يزيده غضبًا على غضب.

ولكن "سام" هو الاستثناء، وربما هو أقرب إلى طباع "آل بوتمان".

ومع أن قطعت على نفسي عهدًا ألا أصير مثل "آل هيرمانز"، لكنني أدرك الآن أنني فرع أصيل من تلك الجذور. دماء "هيند" تجري فينا كلنا...

الطبع غالب... وأبدًا لا يستحيل الدم إلى ماء...

20



في نوفمبر قبل الامتحانات النهائية، ظهرت كومة من الخردة في الحديقة، ولا شك في أنهم قد أتوا بها من الساحة. في القلب منها غسالة، ومن حولها قام بابا برصِّ ألواح من الخشب. من فوقها علبة صفيح مميزة ومتصلة برافعة. لم أكن أريد أن أعرف ما كان من المفترض أن يكون هذا الشيء، عندما يتم تجميعه، لأنني أحسست أنه لن يكون في مصلحتي. وبعد بضعة أيام، ألقى بابا قماشًا مشمعًا فوقها. الآن صار مثل عمل فني ينتظر من يكشف عنه الستار. تصرفت كما لو أنني لم أره. فبعض الأشياء تزول إن أنت تجاهلتها، ولكن البعض الآخر يبقى يحوم حولك مهما فعلت.

لم تتحدث ماما عنه أبدًا، وهكذا أدركت أنه ليس في الموضوع ما يسر. فهي في العادة تحكي لي كل شيء؛ ولذلك فقد عرفت من سكوتها أن قلبها ليس مرتاحًا.

بعد العشاء، شاهدت عبر النافذة بابا وماما وهما يتناقشان في موضوعات خمنت أنها عني؛ فأحيانًا، حينما تتسع فجوة الخلاف بينهما أثناء الحوار، أرى بابا وهو يرجع بكرسيه إلى الوراء ويرفع صوته وهو يشير بإصبع غاضبة نحو الحديقة. أرى ماما وهي تدافع عني، ولكن حدة النقاش تبرد بعد برهة – ربما لتتواءم وتلك الأجواء المثلجة التي تسبق الكريسماس. في الصباح تزيح ماما دائرة صغيرة من الثلج الذي تراكم على نافذة المطبخ، حتى تلوح لي بيدها عبرها.

صارت خروجاتي محدودة نسبيًّا؛ فالامتحانات في مايو وأنا أنوي أن أنجح وبدرجات مشرفة أيضًا. أريد أن أثبت للجميع أني على قدر من الذكاء. أنا لن ألتحق بالجامعة، ولن أتعلم صنعة، وسابقى خارج حلبة المنافسة، ولكنني أريد أن يقول الناس: "أتعرفون ابن عائلة "هيرمانز"، ذلك المسكين، لقد نجح في الامتحانات وبنسبة ثمانين في المئة؟!".

بعد تلك المعركة في الكافيه، في الصيف السابق، تباعدت مسافة الارتباط بيني وبين "جوي". لا أعني أنه قد استاء مما فعلت، بل ربما كنت أنا السبب، فأنا الذي كنت مستاءً. لقد فشلت في الالتزام بالاتفاق المهم غير المكتوب بيننا، والذي يحدد نوعية البشر التي نطمح أن نكون مثلها. للأمر علاقة بالنقاء، وبالحرص على ألا نكون جزءًا من عالم معطوب، وألا نساعد في زيادة مساحة الجنون الآخذة في الاتساع فيه. كان اتفاقنا أن نكون متميزين عن غيرنا. ولكنني صرت الآن ملوثًا.

أنا. لست "جوي".

كنت مرتاحًا لكونه نموذجًا نحتذي به. وأحيانًا كنت أتساءل عما إذا كان يرى الأمور بذلك الحد من الوضوح؛ وخيل إليَّ في أوقات أنه يتعامل مع أغلب الأمور بلا مبالاة وسخرية. غير أنني متأكد أن "جوي" يجيد تحليل الأشخاص والمواقف. ومنذ أن التقيته وأنا أحاول أن أنظر إلى العالم من خلال عينيه. ولكن ذلك الشجار أفسد كل شيء، رغم أني عازم على أن أستعيد النقاء. وبرغم سخرية "جوي" من الكاثوليكيين وعاداتهم، ولكني سأطلب المغفرة وأطهر روحي من الآثام التي ورثتها عن "هيند". سوف أمر عبر "المطهر"، حتى أخرج منه نقيًّا، وأثناء هذا سأتوقف عن شرب الكونياك والكولا في عطلة نهاية الأسبوع، هناك حيث تعزف الفرق الموسيقية في استراحة "فاندرز" على الطريق السريع.

ياه، يا لها من غواية شديدة.

عندما أشرب بعض الكؤوس لا أعد أهتم برأي الناس فيّ، طالما أنهم مستمرون في رفع الكؤوس إلى فمي حتى أشرب. إلى أن يتشبع دمي بالكحول لدرجة تمكنني من الإمساك بالكأس بنفسي؛ فالكحول يرخي عضلاتي ويقلل من حدة تشنجاتي. وهكذا صرت الشخص الوحيد الذي يسكر حتى تتوقف يده عن الارتجاف. الظاهر أنني أشرب من باب العلاج المسكن.

لذلك سيكون من الصعب علي ألا أذهب إلى "فاندرز". تختلف تصرفات الناس عندما يكونون هناك. يتحدثون إليَّ ولا ينظرون إليَّ بتلك النظرات المعتادة. ومنهم من لا يجد مشكلة في رفع الشراب إلى فمي حتى أشرب، مثل أي حمل رضيع. وأحيانًا ما أشعر ببهجة. تتصاعد من صندوق الموسيقى أغاني "إلفيس" و"دولي بارتون"، وفي الخارج حلّ الليل ويتصاعد الدخان من الطفايات النحاسية. كنا مثل ركاب على متن سفينة مخمورين، ضلت بنا الطريق في غياهب البحر، وشطحت بنا إلى حيث لن يعثر أحد علينا. ولكن عندما ينتهي كل شيء، تجد دومًا من يتطوع بدفعك حتى الباب، ومنه إلى الخارج. فهم يريدون الآن تنظيف المكان تمهيدًا لغلقه. ما الذي يمكن أن يحدث لهذا العالم لو أن الكل بقي سكرانَ طول الوقت؟ كنت في كل مرة أود أن أتشاجر وأضرب يدي من تطوع بدفع عربتي، وأدوس الفرامل، ولكنهم في كل مرة ينجحون في إخراجي من المكان.

"مالك؟! "فرانكي"... هدي أعصابك، مان!"

يضحكون وهم متضايقون مني. هم لا يعرفون أنني أقاوم تلك النهاية... نهاية ليست في وقتها أبدًا... نهاية لذلك الشعور بأن كل شيء حلو وسهل... ولو لمرة واحدة في حياتي.

21



مرَّ الشتاء سيئًا على "محفوظ". وشحب لونه حتى صار أشبه بلون أثاث الحديقة الباهت.

- المشكلة في دمي. المشكلة في دمي.

كان يرتدي ثلاثة سويترات وجاكت ثقيلًا فوقها، وفوق رأسه آيس كاب يشده بقوة حتى يغطي أذنيه. فلا يظهر منه سوى شاربه وعينين تفصحان عن معاناته من الروماتيزم.

لم يكن وحده الذي يعاني من اعتلال صحته. فلقد توفيت أم "كريستوف"، على الرغم من أمنيتها أن ترى أزهار النرجس البري ولو لمرة واحدة أخيرة. ولكن شهر مارس تأخر عليها، وتوقف بها الزمن عند فبراير. فبراير وغد حقيقي... كما يقولون.

في اليوم الذي دفنوا فيه العجوز "لويز مانداج"، كان التكييف الساخن مضبوطًا على أقصى درجة؛ بينما كانت الرياح الشرقية القاسية في الخارج تسلخ جلودنا كالمنجل. وفضل الحاضرون عدم خلع معاطفهم حتى يحتفظوا بأكبر قدر من الدفء قبل مرحلة الوقوف عند المقبرة لإتمام مراسم الجنازة.

كانت الكنيسة ممتلئة عن آخرها. فأي ميت من عائلة "مانداج" يحظى بكثير من الاهتمام، وهذا لأن كثيرين يعتمدون عليهم بطريقة أو بأخرى.

أخلص القس "نيوفنهويس" في تنفيذ مراسم الجنازة، ونثر الماء المقدس بكل ضمير وهو يمنح المتوفاة ما قد يعينها في حياتها الأخرى.

أما أنا، فكنت قابع في عربتي في الممر الأوسط بقاعة الكنيسة، و"جوي" يجلس بجانبي في الطرف الداخلي من الدكة الخشبية. بجانبه "إنجل"، وقد وضع ساقًا فوق الأخرى في رشاقة من لا يؤمن برب. لمحت في إحدى الدكك شعر "بي جي" الكيرلي الأشقر، وقد جلست على مقربة سخيفة من "لوب كوكشنايدر". ذلك المتحذلق الذي انتهى من المدرسة منذ عامين، وصار الآن يقود سيارة "فولكس فاجن" "جولف". في الخارج تسمع صوت شاحنة يتم تحميلها؛ تتبعت عيناي كتفاها الانسيابيتين. لها منكبان عريضان مثل سباحة محترفة.

أحيانًا يعتريني الغضب كلما رأيتها. ولا أشعر بهذا الغضب وأنا بصحبة "هاريت جالما" أو "إينيكي دي بوير"، مع أنهما من أوائل من تبدت عليهما سمات الأنوثة الطاغية. وأحيانًا أحدق في "بي جي" لأطول وقت ممكن، فقط لأتأكد من أنها بالفعل مثالية الجمال، وكنت أبحث فيها عن أي لمحة قبح أو غرابة من شأنها أن تخفف وقع رؤيتها عليَّ، حتى إنني أحيانًا ما أقترب بعربتي منها فجأة حتى أتأكد من أنه ليس لجسدها رائحة عرق. عندئذٍ ازداد غضبًا فوق غضب. إنها تقترب من حد الكمال. ولكن شعلة الغضب تلك تلتهب دائمًا في داخلي وحسب.

في صدر قاعة الكنيسة، لا يزال القس يردد دعواته بصوت جهوري:

"وعندما تدعونا إليك، نخضع لجلالك!".

مال "جوي" علي:

– هكذا هي النهاية. نموت ونخضع من جديد!

اعتدل في جلسته، قبل أن يستطرد:

- لو كان يريدنا أن نخضع ونركع له دائمًا، فلماذا لم يخلق الإنسان أحدبَ وخلاص؟

لم أتمالك نفسي، فضحكت. التفت كثيرون نحوي، فتظاهرت بأني أتعرض لنوبة تشنجات جديدة. بينما بقى "جوي" جالسًا في مكانه، ووجهه لا يشي بأي شيء مما حصل. وجه لاعب بوكر محترف. وقف "كريستوف" عند إحدى الدكك التي في المقدمة، ومشي نحو التابوت الذي يحتوي جدته. تبعه مجموعة من أبناء وبنات العائلة، ليقوموا جميعًا بوضع الورود فوق غطاء التابوت. قام الرجال ورفعوا التابوت على أكتافهم ومشوا به عبر ممر القاعة ومن ثم إلى الخارج، وبذلك تكون أغلب المراسم قد انتهت. تجمع الحاضرون وراء النعش ومشوا خلف من يحملونه. أومأ لي "بيت هونينج" برأسه في ود.

يصعب عليَّ أن يتعامل معي "بيت" بهذا الود طوال الوقت. فأنا عاجز عن أن أبادله ودًا بود، وهذا ببساطة لأني لا أمتلك بداخلي نفس القدر من المشاعر. هي دومًا معاملة أظل الطرف المقصر فيها، وهو ما يشعرني بالذنب.

كنت آخر من خرج من القاعة، عبر المخرج الجانبي. هناك وجدت عددًا من الرجال واقفين يدخنون السجائر ويدردشون حول المراسم، أما البقية فيمشون وراء النعش. يغمرنا نور سماء زرقاء بلا حدود. راقبت المسيرة وهي تبتعد، وشعرت بحاجة لدخول الحمام. فعدت إلى المنزل.

لم يكن هناك أحد في الشارع، والمحلات التي عادة ما تكون ممتلئة في تلك الساعة بربات البيوت مع أطفالهن الصغار كانت فارغة. انعطفت يمينًا في شارع "بولسفيج" وسمعت خطى من ورائي. مر "جوي" بجانبي، كان يكاد يركض في طريقه نحو منزله. لعّب حاجبيه لي وهو يرمقني قبل أن يمضي في طريقه. وفي نهاية الشارع توقف فجأة، واستدار. سألني عندما وصلت إليه:

- وزنك كم، "فرانكي"؟

قبل عام، كان وزني أكثر قليلًا من خمسين كيلوجرامًا، وأنا لم أكتسب الكثير من الوزن منذ ذلك الحين. لذلك رفعت في وجهه خمسة أصابع، ورأيته يتمتم لنفسه بأفكاره. كأنه يحسب حسبة ما.

– خمسون كيلو، صح؟ إيه الفرق اللي ممكن يحصل؟ إيه رأيك في جولة بالطيارة؟

اتسعت عيناي في رعب. وشعرت بتزايد حاجتي لدخول الحمام. زادت حدة اضطراب أمعائي.

– مجرد لفة قصيرة. لتعيش اللحظة فقط.

بين تلك اللحظة في شارع "بولسفيج" واللحظة التي قفز فيها إلى قمرة القيادة في المقعد أمامي، وقد تجهز مثل ساموراي يستعد لمعركة، مرت أكثر من ستين دقيقة. كان يمكنني أن أستغل كل ثانية فيها حتى أتشجع وأغير رأيي. فقد اصطحبني للمنزل أولًا، حيث كانت أشعة الشمس تسقط عبر النوافذ مثل كرات النار، ووقف عند النافذة الخلفية لفترة وهو ينظر إلى المدافن القديمة حيث استقر والده – خلال كل هذا الوقت كان يمكنني أن أقول لا.

لكنني رفعت نفسي من العربة وأمسكت بحافة الترابيزة. مثل شمبانزي سكران بساق أقصر من الأخرى، كنت أمشي متثاقلًا في أرجاء الغرفة، وأستند إلى الكراسي والترابيزات والدولاب. استدار "جوي" ونظر إليَّ في دهشة صامتة.

– أوه، إنت بتمشي، مان؟!

لا أعرف ما إذا كان من الممكن أن نسمي تلك الحركات مشيًا من الأصل، ولكنني وصلت إلى دورة المياه واختفيت داخلها. جذبت الباب بقوة من خلفي، وجلست إلى قعدة الحمام وأنا لم أخلع البنطلون بعد. أنا بالكاد أتمالك نفسي الآن. ضغطت على أسناني، وأنا أتحرك مثل دودة تحاول الخروج من شرنقتها بجنون، حتى تخلصت من البنطلون، وتمكنت أمعائي في النهاية من إفراغ حمولتها. أحيانًا تكون "مزنوقًا هكذا ولكنك تبقى قادرًا على تحمل الأمر لفترة

طويلة، ولكنك بمجرد أن تدخل الحمام تحتاج قوة إرادة خارقة لمنع نفسك من التبرز قبل أن تجلس إلى قعدة الحمام، فيبدو أن الأمعاء تعرف في تلك اللحظة أنها أقرب ما تكون إلى موضع تفريغ بضاعتها.

هكذا، لم يكن من المنطقي أو الممكن أن أمنع خروج الفساء مني بهذا الصوت القوي المندفع. وكان من المنطقي أن أسمع صياح "جوي" من الناحية الأخرى من الباب:

- أوباااا... وسّع طريق للصواريخ!

لم يكن باب دورة المياه سوى إطار من الأبلكاش مغطى بورق حائط مزركش برسوم الأزهار، وبالتالي كانت إيقاعات أمعائي مسموعة له بوضوح وبقدر ما أسمعها أنا. وطبيعي أن تكون هناك موجة ثانية من الفساء.

- العب!

كدت أموت من الخجل. وتذكرت أيام كان "إنجل" يساعدني على التبول. وتخيلت شعور المرأة الحامل التي تحين لحظة ولادتها، فتجلس على كرسي الولادة؛ مؤخرتها لأعلى وساقيها على أقصى اتساع، بينما تقتحمها أدوات الطبيب الباردة.

***

تحاشيت النظر إليه عندما عدت إلى الغرفة. النور يغطي كل شيء في منزلي الصغير ويبرز كل جانب فيها – متهالكة، فقيرة، قديمة، ولا مجال لإخفاء كل هذا. وصلت متعثرًا إلى التسريحة بجوار الفراش، حتى أتجهز للرحلة. تمتم "جوي":

- لو عندي كلب بهذه الرائحة، لأخرجته من البيت وضربته بالنار.

رحنا إلى منزله لنحضر الدراجة، وقبعت أنا بجسدي – الذي شعرت أنه تضخم بغتة – فوق حامل الأمتعة. صاح "جوي" وهو يلهث:

- أوكيه... من غير أي حركة.

قبض على مقود الدراجة، ووقف بقدمه اليمنى على البدال واستعان بكامل ثقله حتى يجبر الدراجة على الحركة. وعند نهاية الشارع، كان "جوي" يقف بقدميه على البدالين ليزيد من سرعتها، ولكنه ما إن قطع ثلاثة أرباع المسافة عبر الطريق المؤدي إلى سد النهر حتى اضطر إلى أن يقلل من سرعته.

وكدت أقع من فوق الحمال.

عندما أفكر في الأمر الآن، فإن العملية برمتها كلفت الكثير من الجهد لدرجة أنني تمنيت لو أنني لست طرفًا فيها. فقد كان الجو شديد البرودة لدرجة تشعر معها أن وجهك يتجمد ويتورم، وكانت الرياح تسحب الدموع من عينيّ وأنا عاجز عن مسحها عن وجهي لأنني أتشبث بجسد "جوي". ومثل حيوان دافئ هائج، شق طريقه في عكس اتجاه الرياح على طول السد إلى حيث مخبأ طائرته. تدلت ساقيّ بتلك القدمين التي ترتديان حذاء جلدي أسود مثل أحذية لاعبي السيرك على جانبي حامل الأمتعة، فلم يمكنني إسنادهما إلى جسم الدراجة، وهكذا اضطررت إلى الجلوس خلال كامل الطريق وأنا أقبع بوزني كاملًا على مؤخرتي.

عند منتصف الطريق بين "لومارك" و"فسترفيلد"، ابتعدنا في مسارنا عن السد واقتربنا من حي "جيمين شابس بولدر فيج". على طول هذه الطريق ثلاث مزارع معزولة عن بعضها. صارت الرياح في ظهرنا أخيرا. وعلى اليسار واليمين تمرق الحقول السوداء، فأرضها محروثة في أخاديد متجمدة من الصقيع. دخلنا في طريق خاصة، وصار الحصى يزقزق تحت العجلة. في نهاية الطريق كانت مزرعة "رينوس القذر". إذن كانت الطائرة مخبأة هنا كل هذا الوقت! لم أرَ أي أثر لـ"رينوس" نفسه أو لسيارته "أوبل إسكونا" البنية. في الفناء تقبع عربة يد؛ مقبضاها الجزء الوحيد فيها النظيف من طبقة السماد والقش الجاف. استمر "جوي" في طريقه حتى المخزن في الخلف، قبل أن يتوقف ويسندني أنا والدراجة إلى الجدار. قال لي، وكأن لي خيارًا آخر:

– انتظر هنا لحظة.

اختفى عبر باب صغير. لم يكن من الصعب عليَّ معرفة سبب وضعه الطائرة في مزرعة "رينوس القذر"؛ فرينوس لا يهتم لأي شيء. ومن مكاني جالس هنا عند جدار الطوب مثل شوال البطاطس، أرى صفًا من الماشية البلجيكية الزرقاء، وهي تحدق فيّ يائسة. إنها تغوص حتى ركبها في السباخ. وأرى على طول بطونها ندبات أفقية. إنها علامات الولادة القيصرية: فقد ابتليت الماشية البلجيكية بعيب خلقي في قناة الولادة جعلها ضيقة جدًّا. ولا يمكنها أن تلد صغارها إلا بقطع قيصري في جانبها.

الجو بارد وأريد أن أتبول. انفتحت بوابة في مكان ما، وتلى ذلك صوت سعال محرك ينطلق بعد مكوثه فترة طويلة عاطلًا. وبعد محاولات دار. أعرف هذا الصوت: محرك سوبارو 100 حصان. انتظر "جوي" لبضع دقائق حتى يسخن الزيت والماء.

كان بمقدوري حتى تلك اللحظة أن أغير رأيي. كان من الممكن أن نعود إلى البيت، وكان "جوي" سيندهش ولكنه سرعان ما سينسى بسرعة، وكنت أنا نفدت من هذه التجربة. ولكن ما إن ظهرت الطائرة حتى كان الأوان قد فات.

لا أعتقد أنني كنت مدركًا تمامًا لحقيقة أنني على وشك أن أطير. ولكن عندما رأيت ذلك الوحش السماوي وهو يظهر مرة أخرى بعد غياب سنة كاملة اعترتني موجة من الخوف والإثارة معًا. دار "جوي" حول الساحة وجعل مقدمة الطائرة نحو المرعى. ثم أغلق المحرك، وخرج من فوق الجناح وقفز إلى الأرض. قال في نبرة رضا:

– كأنه سحر.

دار من حولي، ووضع ذراعيه تحت إبطيّ وعقد أصابعه على صدري. سحبني من حامل الدراجة مثل الغريق. أنفاسه تهبط على وجهي، وشممت فيها رائحة طبخ "محفوظ".

- ساعدني فأنت ثقيل جدًّا.

تعلقت في ذراعيه مثل طفل يتعلم المشي. وبيدي السليمة تشبثت بجناح الطائرة وأومأت إليه أن يتركني. كانت هذه هي أول مرة نقف فيها إلى جوار بعضنا. كنت أكبر منه بعام وبعض العام، ولكني أقصر منه.

- كيف تصعد إلى الطائرة إذن؟

عثر على سلم ملطخ بسماد، وأسنده إلى جانب الطائرة. صعد فوق الجناح ثم دخل إلى قلب الطائرة، قبل أن يمد يده نحوي.

- لو أنك... أيوه... أول خطوة... ناولني ... ناولني يدك... الآن رجلك! ... خطوة كمان... اثبت...

هكذا وصلت بعد معافرة إلى مقعدي في الطائرة وراءه. أزاح "جوي" السلم بعيدًا قبل أن يجلس إلى طرف المقعد، فليس هناك إلا مقعد واحد. وكأننا معًا على دراجة.

- تقدر تشوف قدامك كويس؟

رفعت رأسي بقدر ما أستطيع إلى ما فوق حافة قمرة القيادة.

- الآن ننطلق، "فرانكي".

أدار المحرك. انطلقت بنا الطائرة عبر البوابة المفتوحة، واستمرت في طريقها على أرض المرعى؛ شريط من العشب المتجمد أمامنا. عوّم "جوي" ذراع تغيير السرعة قبل أن يجذب فرامل اليد. ضغط على دواسة الوقود بكل قوة. صوت كالرعد، وشعرت أن الطائرة تخترق إعصارًا ثلجيًا. وأحسست أن كل جسدي تجمد. صاح "جوي":

- خلي بالك!

ترك فرامل اليد، فزاد اندفاع الطائرة. تشبثت بخصره، ونحن نندفع بقوة في ضجيج يصم الآذان. شعرت بحركات جسده وهو يتعامل مع البدال وعصا القيادة، والتي جذبها للخلف بقوة عندما وصلنا إلى السرعة القصوى.

ها نحن نحلق. لم أعد أرى الأرض أسفلنا، وصرخت. ارتجفت الطائرة، وتمايلت الأجنحة يمينًا ويسارًا، ولكننا كنا قد وصلنا إلى ارتفاع كبير بالفعل، ولم يعد أي شيء يهم. أحسست بدغدغة لذيذة في خصيتي. كنت أتأمل منظر النهر والأراضي السبخة عن يميني في الأسفل. دار "جوي" بزاوية تسعين يمينًا ليحلق موازيًا للنهر، متجهًا نحو "لومارك". الرياح شديدة البرودة أسالت دموع عينيَّ ومخاط أنفي وشلت فمي، ولكنني لم أهتم. رائحة البنزين تعبق الطائرة.

يبدو أننا سنستمر على نفس هذا الارتفاع. ومن الصعب عليَّ أن أحدد هذا الارتفاع بالضبط. يمرق العالم أسفلنا مثل شريط سينمائي يعرضونه بأقصى سرعة. كل هذه المرتفعات والتلال التي يمثل لي كل واحد منها تحديًا لا أطيقه لم تعد الآن إلا ذرات. هذه هي بيئتي البيولوجية، بما في ذلك كل ما هو مخفي وراء المنازل والأسوار والجسور والسدود، أراها الآن مسطحة وظاهرة جدًّا من هنا. ولا أدري لماذا أضحكني هذا. فلم تعد هناك أسرار؛ تلك حقيقة أحزنتني وأطربتني في ذات الوقت.

بين فترة وأخرى، يستدير "جوي" نحوي ويصيح بكلمات غير مفهومة وسط هذا الصخب. ارتعشت الطائرة عبر السماء الزرقاء الذهبية، فتذكرت أفلام الوحوش الأبيض والأسود، حيث يتحرك "جودزيلا" وتلك الديناصورات بطريقة غير طبيعية متقطعة وساذجة. هكذا كان حالنا في كبد السماء.

ومن على البعد، شاهدت محطة الكهرباء يعلوها عمود رأسي من الدخان. أشار "جوي" إلى أسفل. كنا فوق "لومارك". هناك في العمق تقبع المدافن، حيث يبدو أن جنازة "لويز مانداج" قد انتهت. حاولت أن أتتبع الطريق إلى "هيت كاريفيل"، حيث يتناول ضيوف الجنازة الآن الساندويشات. رأيت

المطعم، وفي موقف السيارات وجدت عددًا من المتشحين بالسواد في طريقهم إلى قاعة الطعام الكبيرة لتناول القهوة وساندويشات السلامي والجبن، وهم لا يتخيلون أن هناك الآن من يراقبهم من فوق.

دفع "جوي" عصا التحكم إلى اليسار، فمال الجناح الأيسر للأسفل، بينما ارتفع الأيمن والطائرة تميل نحو النهر، عائدة إلى حيث انطلقنا. شعرت في داخلي بإحساس السقوط المبهج. سوف نهبط بالطائرة قبل أن نتجمد فيها ويضطرون إلى إخراجنا في قوالب جليدية مثل اثنين من صيادي العصر الحجري. انخفض ارتفاع الطائرة تدريجيًّا. لمحت مرسى العبارة، وساحة السفن القديمة، ثم رأيت كيانًا ضئيلًا بدا لي أنه يجر شيئًا أكبر منه. رآه "جوي" أيضًا. صاح بقوة:

- "محفوظ"!

يلتمع النهر، وكذلك أسقف السيارات المارة إلى جوار السد. كنت أحاول أن ألتهم تلك المشاهد التهامًا حتى لا أنساها أبدًا.

توترت لما رأيت مزرعة "رينوس" وهي تقترب بسرعة – إنه الهبوط! لا أريد أن أفكر في الهبوط، فأنا لم أشاهد "جوي" وهو يهبط بالطائرة من قبل، وكان الهبوط أصعب شيء في مراحل الطيران! فكرت في الموت، وكيف أنني و"جوي" ســ... ولكنني في لحظة لم أعد أخشاه. مرقنا فوق المزرعة، ولمحت سيارة "رينوس القذر" الأوبل وهي في الساحة. دارت الطائرة وانخفضت تدريجيًّا وبسرعة. صار المرعى أمامنا مباشرة، وبدأ "جوي" في خطوات الهبوط. سوف يحاول أن يكون أقرب ما يكون من الأرض لحظة أن يصل إلى الحقل، وشعرت أن جسده يتوتر، بينما يرتعش الجناحان بشدة، ورغم ذلك لا تزال سرعة الطائرة كبيرة جدًّا... ارفعها! ارفعها! ولكنه استمر، والمرعى يقدر بسرعة وكأنه جدار صخري. قلل "جوي" من سرعة الطائرة، فخفت الضجيج، ولكن الأرض ما زالت تقترب بسرعة. عندئذٍ لامست العجلات الأرض. ارتبكت الطائرة وترنحت وعلت

عن الأرض قبل أن تعود إليها من جديد، وأسرعت بنا فوق الحقل، وتطاير التراب والطين من حولنا. تراجعت سرعتها تدريجيًّا، حتى صارت تتباطأ.

نجح "جوي" في إيقاف الطائرة قبل السور بقليل.

تطلب الهبوط مسافة أطول قليلًا مما تطلبه الإقلاع.

استرخى جسد "جوي" بعدما أوقف المحرك. واندفع السكون عبر أذنيَّ.

أمامنا، وعلى بعد مترين من الطائرة، كان "رينوس القذر"؛ واقفًا يستند إلى السور، تتدلى سيجارة ملفوفة من بين شفتيه، بينما يرفع سبابته في تحية ساخرة لنا. استدار "جوي" نحوي وارتسمت على شفتيه – التي صار لونها أزرق – ابتسامة لا مبالية.

- نجحت في الهبوط بها بالعافية!

كان الجليد يؤطِّر حواف نظارة الطيران التي يرتديها.



22



بدأت الأجواء تبشر بالخير. تكاد الأراضي السبخة تجف، بينما تتمايل أشجار الصفصاف فوق برك المياه الصغيرة المتفرقة. أشياء مختلفة ضئيلة الاهمية تعلقت بفروعها، وفيما بينها تفتش طيور مائية عن مكان يصلح للتعشيش. وعند الغسق تأتي الخفافيش بكثرة، وفي الليل، عندما تسمع أصوات الضفادع، تعلم أن الطقس سيتحسن عمًّا قريب. وسيسعد "محفوظ" بشمس الربيع. في بعض الأحيان نجلس معًا على شاطئ النهر، مستمتعين بقليل من الدفء، بينما يمسح السماء بعينيه بحثًا عن طائر يتصايح في صخب.

– أوز النيل.

مرت على مسافة قريبة فوقنا أوزتان من النوع المصري. كنا في أواخر مارس. ثم حل أبريل ومعه تخلصنا من كابوس الشتاء. ورغم هذا، شهد الشهر الكثير من الرياح القوية، وكأن الطقس يتوعدنا أنه سيعود لقسوته ولو بعد حين. خضعت البيوت لوطأة الرياح. وخرج الناس للشوارع وهم يصيحون لبعضهم البعض: "عجيبة هي هذه الرياح!!"، إنها تتغلغل فينا وتكاد تدفعنا إلى الجنون. تهب بعشوائية محسوبة، وتتلاعب بأي شيء يقف في طريقها، مثل أي صبي مستهتر. وبعد أن كنت أظن أن كل شيء سيستقر، دبّ فيه الجنون من جديد. تغير الرياح من إيقاعها ومن درجات قوتها، بينما تصدح أجراس

الكنيسة وتتصاعد من داخلها أصوات الأطفال. أحسست أنها قادمة مباشرة من الصحراء الجليدية الروسية؛ رياح شرقية عاتية، تطرق جدران بيتي، لدرجة استحال معها أن أركز في مذاكرتي.

يتحدث كتاب الجغرافيا الذي أنكب عليه عن مساحات الجليد والتندرا (وجميعها أراضٍ تستحيل زراعتها) والتي تبقى متجمدة أبدًا. وفي بعض الأحيان يصل عمق الجليد إلى مئات الأمتار. الامتحانات النهائية في مايو، وأنا حاصل على متوسط 7.8 في امتحاناتي، ولكني ما زلت متوترًا. كم اشتاق إلى اللحظة التي ينتهي فيها كل هذا – وأرتاح لذلك الشوق، وإلى فكرة أن كل يوم يقربني من تلك اللحظة التي أقف فيها عند ضفاف النهر لأشاهد "يوردان" وهو يمر. يشاركني في هذا الشوق عشرون طالب آخر، يتصارعون في هذه اللحظات مع الملخصات والدفاتر، وحفظ المعلومات عن النشاط البكتيري المتدني في مناطق التندرا. نشتاق جميعًا إلى "المستقبل". ولكننا عندما نتجاوز كل هذا سيدخلون الأرض الموعودة، بينما أبقى أنا في مكاني. أنا أدرك هذا تمام الإدراك.

لما نفدت طاقة الرياح، حل محلها المطر غزيرًا لدرجة أنه صنع أنهارًا في الشوارع. واستمر لأيام. ولكنك تستيقظ ذات صباح ينتابك شعور بأن هناك شيئًا ما ناقص. ومن بقعة ما في الغابة أسمع هديل حمامة. أغصان الشجر في الخارج ساكنة، وإن كانت تلتمع في ضوء الشمس الوليدة. وتسمع صوت الغربان المرح في السماء فوق المدافن.

نحن في أواخر أبريل.

أحدهم منهمك في عمل يدوي هناك عند النهر.

أعرف أنه مشغول في العمل على تلك القطعة الخشبية التي رأيته أنا و"جوي" يجرها يوم أن كنا نحلق بالطائرة فوق النهر. إنه يصنع قاربًا.

– إنها فلوكة.

أخبرني "محفوظ"، الذي كان قليل الكلام بسبب انشغاله في تلك الأيام.

يقول "جوي" أن هذا القارب يرمز إلى الحب الذي يربط بين "محفوظ" ووالدته. وبينما تجمع أغنية بين أحباء آخرين، فإن هذا القارب هو ما يجمع بينهما. وقد أهداها "محفوظ" في أول لقاء بينهما نموذج قارب؛ فلوكة، تضعها الآن على حافة النافذة في غرفة نومها.

الاثنان لديهما شغف ما تجاه القوارب. فبعد أن تزوجا في القاهرة، انطلقا في رحلة نيلية قصيرة. وذات ليلة وقفا على متن الباخرة النيلية ونظرا إلى سماء صافية بدرجة غير عادية ومرصعة بالنجوم، وفي تلك اللحظات راودت "ريجينا" رؤية. شاهدت سفينة خشبية يقودها مجدفون أقوياء؛ بينما ترقد مع "محفوظ" على سرير ممتلئ بالوسائد، بينما تحرك فتيات متشحات بالأبيض مراوح ريش النعام من حولهما. كان أميرًا في غاية الجمال، وهي سيدة من المجتمع المخملي. تلألأت عينا "ريجينا" بالدموع عندما تلاشت تلك الرؤية. وقالت له:

– عشنا هذه الأيام من قبل، "محفوظ". هذه ليست أول حياة لنا معًا.

هز "جوي" رأسه:

– تزوجت والدي من قبل في زي أميرة هندية، وتزوجت "محفوظ" وكأنها نفرتيتي. إنها تجسيد للتاريخ.

في نفس المكان الذي كان فيه حوض شركة "ديمستي" التي أفلست في عام 1932، ولكن آثارها باقية ونراها كلما انخفض مستوى النهر، بنى "محفوظ" هيكل الفلوكة. ليست طويلة، ستة أمتار تقريبًا، وشكلها مختلف عن التصميمات التي نراها في المعتاد. ليس هذا الهيكل إلا الملامح الأولى لما سيكون عليه القارب، ولكنه أوسع من قواربنا الشراعية. المقدمة والمؤخرة مقوسة قليلًا، وتجعله أقرب إلى قارب بضائع منه إلى يخت. تنتشر مساند نشر الخشب على امتداد الرصيف وفوقها القطع الخشبية، والأثقال تضغط ببطء عليها حتى تكسبها الشكل المطلوب.

تستقل "ريجينا" دراجتها عبر "لانج نك" لتحضر لـ"محفوظ" الشاي والخبز والسجائر. تتأمل النوبي في عشق شديد. بدأ يستعيد لون بشرته الذي كان قد الشتاء قد بدده قليلًا. إنه يبني لها السفينة الحلم، بينما تشعل له السيجارة وتصب له الشاي مع كمية لا تصدق من السكر. يتردد في ترك عمله قليلًا، قبل أن يتجه للجلوس إلى جوارها. تخرج له من حقيبتها الساندويتش ملفوفًا في الفويل. تمر العبارة بينما ركابها يتأملون ذلك البعث الجديد لحوض السفن. يعمل "محفوظ" وسط حطام سفن شراعية استحال لونها، وإطارات مهترئة، وشمندورات النهر التي يصل ارتفاعها إلى ضعف طول الإنسان، كلها خردة تنتظر أن تنظر إليها شركة هيرمانز وأولاده بعين الشفقة. إنه يعمل بجد، ويرغب في أن يدشن قاربه في هذا الصيف. صندوق البخار الذي صنعه لتطويع العوارض الخشبية القوية يتألف من قصبة طويلة؛ يقوم بتعليق اللوح على القصبة، ويغلي الماء فوق النار، فينطلق البخار في القصبة، ومع الوقت ينجح في تطويع الخشب. صاح "جوي" في انبهار:

- واو!!... ماهر وبارع!

وعلّق "كريستوف":

- يقدر يخليها شغلانته.

وأضاف "إنجل" بعد تفكير:

- لو كنت مكانه أدهن القارب بالأزرق.

وبفعل قوة مغناطيسية غامضة، التفت أنا و"كريستوف" في نفس الثانية في اتجاه "لومارك"، لنرى "بي جي" وهي قادمة من عند "لانج نك". وكأن أحدهم أشعل النار بداخلنا، ولكنها سرعان ما خدمت لما اكتشفنا هوية من يمشي إلى جوارها: "يوب كوكشنايدر". همس "كريستوف":

- نازي قذر.

لن تزول تلك الوصمة أبدًا. إن "كوكشنايدر" - المعتز بنفسه دائمًا – ليس نازيًا بطبيعة الحال، ولكن جده كان، وبقيت هذه الصفة هي أول ما يتبادر إلى الذهن عندما يظهر حفيده في أي مكان، وخصوصًا عندما يكون مع "بي جي إيلاندر". ذلك الوغد. نحن نكره "يوب" كراهية سببها الغيرة. ونكره هذه الحقيقة أكثر. إنه يمتلك الفتاة التي نحلم بها – انظروا، إنها تلكزه فيبتعد عنها في شقاوة، حتى إنك تكاد تشعر بذلك الغرام بينهما، قويًا رغم المسافة بينهما وبيننا. ومثل عواجيز الفرح، عدنا نراقب "محفوظ" وقاربه في تأفف.

خيل إلينا أنهما لن يصلا إلينا أبدًا، ولكنهما في النهاية توقفا على بعد ستة أقدام منّا، وأخذا يتأملان العمل الجاري في الحوض القديم. أومأ "كوكشنايدر" لنا، ورد "إنجل" و"جوي" التحية. سمعت "بي جي" تصيح في انبهار:

- بيبني قارب.

بدأت لكنتها الجنوب أفريقية تختفي. أجابها "كوكشنايدر":

- وكأن الموجود غير كافٍ بالفعل.

لم أنظر نحو "بي جي"، فهي قادرة على أن تدرك ما يدور في عقلي، حتى لو كنت بعيدًا عنها.

- "جوي"... هو ده زوج أمك؟ المصري؟

أجابها "جوي" بحركة رأسه أن أجل، وأردف:

- "بابا أفريكا".

ضحكت في صفاء.

تحرك "كوكشنايدر" نحوها، وكأنه يحمي شيئًا عزيزًا عليه.

- "بابا أفريكا". طيب أنا أكون إيه؟

- بنت الرجل الذي ضربني من أسبوع.

وضع "كوكشنايدر" يده على أسفل ظهر "بي جي"، بطريقة زوج فارغ الصبر في ظهيرة يوم سبت يحاول أن يدفع زوجته بعيدًا عن فاترينة أحد المحلات. ولكنها صاحت:

- سنعبر النهر. باي باي!

تمتم "كريستوف" بكلمات ساخطة، بينما لاحقها "إنجل":

- "جود لك" في الامتحانات.

كانا آخر من استقل العبارة، وراقبناهما وهما يبتعدان فيها. ثم قال "إنجل" لجوي:

- معجبة بك.

- إنت خبير النساء في الشلة. خليني أنا خبير ميكانيكا وبس.

هز "إنجل"، الذي اعتاد حكاية تأثيره الغريب على الفتيات، رأسه وهو غير مصدق:

- بس... هي عمرها ما اهتمت بي... ولا مرة.

***

تحضرًا للمرحلة القادمة من حياتهم، حضر "جوي" و"إنجل" و"كريستوف" يوم التعريف بالجامعة. وعاد "جوي" من كلية التعليم الفني هناك وخيبة الأمل على محيَّاه.

- ولا لها لازمة. أنا أقدر أعلم نفسي أحسن من كده. مكان بلا طعم ولا رائحة.

هو لا يجد ما يبحث عنه إلا عندما يذهب إلى أكاديمية الفنون مع "إنجل". مراده هو قسم الفنون التطبيقية: مخارط الخشب والمعادن، وأدوات اللحام

بثاني أكسيد الكربون. الاستوديو هناك ممتلئ بالتكوينات الغامضة وهي في مراحل تنفيذ مختلفة، وعلى الجدران ألواح ورسومات.

– رائحة زيوت السيارات في كل المكان.

أدركت في تلك اللحظة ما قصده عندما وصف قسم التعليم الفني بأنه "بلا طعم ولا رائحة". أنفه هي التي تقوده. جديدة هذه المعلومة.

سجل "إنجل" في تخصص الرسوم التوضيحية، بينما سجل "جوي" في قسم الفنون التطبيقية. ومن أجل أن يتم اعتمادهما في القسم، لا بد من تقديم عمل يعكس الموهبة والحافز. قدم "إنجل" مجموعة كاملة من الأعمال التي أهلته مباشرة، فـ"إنجل" فنان بالفطرة. وأنا لم أعتبر "جوي" فنانًا أبدًا، وبقدر ما أعرف فهو لم يسبق أن قال عن نفسه هذا. يمكنه وبسهولة أن يكون خبير صناعة أو هندسة. ولكن على الرغم من أنه معجب بالمهندسين لأنهم وهبوا العالم المهارات الحركية، لكنه يعتقد أنه سيكون أفضل في منهج دراسي أكثر حرية.

في يوم امتحان القبول، قم بنقل طائرته بعد تفكيك جناحيها فوق شاحنة. قام "رينوس القذر" بتوصيله إلى الأكاديمية؛ ولما دخلا، نبه الحارس قائلًا:

– التدخين ممنوع هنا، سيدي.

مما أبقى المزارع خارج أبواب الأكاديمية لبقية الصباح. انهمك "جوي" في تركيب الطائرة في القاعة الخاصة بالتقييم. وما إن قام بتثبيت الجناحين حتى انعدم كل حيز في القاعة. سأله أستاذ عما إذا كانت تطير بالفعل. فصعد "جوي" إلى داخلها، وأشعل المحرك. وكأن إعصارًا ضرب القاعة... ونال هو القبول.

***

ولكن هيا بنا، فلم يعد هناك وقت، ففي يوم الاثنين ستكون بداية الاختبار الكبير، والذي منه سيتحدد المستقبل.

من الوحشية ألا يختاروا للامتحان إلا أحب الأيام إلى قلبي في العام كله. الحقول في أوج حيويتها، والأشجار فرحة وتكاد تحتضنك في غرام بعد وحشة. وفوق كل هذا شمس الربيع الحنونة التي عاودت الظهور لتستحث ما هو أفضل في كل كائن حي، بينما نجلس نحن في مدرجات قاعة الامتحان، محرومين من كل هذا. تتحرك أقدامنا في توتر، ونسعل في عصبية خافتة، ونعض بأسناننا على الأقلام التي وزعتها الحكومة علينا.

ملعون هو من ينتهي قبل الآخرين، ويسلم ورقته بكل زهو. ملعون هو ذلك المراقب خفيف الحركة بين الممرات. وملعونة هي "بي جي"، التي تشاركني نفس المواد الاختيارية، فيزداد الضغط على عقلي خلال امتحاناتها بأمور أخرى غير التحلل اللا هوائي، والأميبا ذات الأقدام الكاذبة. عيب عليها تكون بهذا الجسد المغري. إنه يشع بغزارة. أتأمل لحم ساعديها البض في نهم آكل لحوم بشر مخضرم، وأتأبط شرًا وأنا أراقب أردافها التي تتراقص في زهو وهي خارجة من القاعة بعدما انتهت من امتحانها، لتتركنا لبؤسنا المقيم. بعد بضعة أسابيع سأبحث أولًا في قائمة الأسماء التي تبدأ بحرف E، الحرف الأول في لقبها، فأعرف أنها حققت 9 في البيولوجي، ولم تنزل عن 8 في بقية المواد. أما أنا فأثبت لنفسي أني لن أنزل عن 7.8، ولن أعلو عنها، ولكنني ارتحت إلى فكرة أنها السبب.

اختار "جوي" و"إنجل" الرياضيات، والكيمياء، والفيزياء، وهي مواد "مشفرة" بالنسبة لي. وأعتقد أنها أتت لنا من كوكب آخر. أما الوحيد الذي اختار لنفسه الاقتصاد مادة اختيارية فهو "كريستوف"، ولعامين. ربما ليتعلم مبادئ وأسرار التجارة والمشاريع، وهي الصنعة التي تتوارثها العائلة جيلًا بعد جيل.

نجح ثلاثتهم أيضًا، ولكن "جوي" منع والدته من تعليق حقيبة الكتب والراية أمام المنزل، علامة النجاح. بل إن "كوينسي هانسن" نجح...

... ولكن بعد ملحق في الهولندية والإنجليزية.

23



هكذا... انتهت المدرسة، ثم جرى ما جرى. بابا وماما:

– هذا حل. مجرد حل.

– تحدثنا في ذلك كثيرًا. ولو لم ينجح الأمر فسوف نفكر في حل بديل.

– دعيه يجرب أولًا. فلا ضرر من أن يقوم بشيء ما. تظنين أننا كنا قادرين على القيام بما يحلو لنا؟ كنا نعمل بجد في كل يوم، ولا نسأل أنفسنا ما إذا كنا نحب ما نعمل أم لا: بل ننفذ الأوامر وحسب.

– "فرانكي"، ليس عليك أن تفعل أي شيء. هي مجرد بداية.

– إنه حل! الأنسب له. والأفضل للكل.

– ولكن ألا تقول لنفسك إن...

– هو يعرف ذلك بالفعل.

– أننا نريد أن نكسب مالًا من وراء ذلك، وكل ما نريده لك هو أن تتمكن من الوقوف على قدميك الاثنتين. فلن نكون من حولك بعد الآن.

– هل هو نائم؟

– بالتأكيد هو مرهق بعد كل هذه الأيام من المذاكرة.

– رغم ذلك فهو في "الفاندرز" كل ليلة. إذا كان قادرًا على ذلك، فهو قادر على العمل أيضًا. كما أخبرتك، هذا هو الحل.

***

أزاح بابا غطاء البلاستيك من فوق تلك الكومة في الحديقة، ووقف يتأملها للحظات. أقرب شبه لها هو جبل متشابك من العيدان، ولمحت الشك في حركاته. سحب بعضًا منها وأسند قطعتين إلى جدار بيتي. كان يتحاشى النظر إلى الداخل، فهو يعرف أنني أراقبه من حيث لا يراني. وبعد ساعة كان قد رتب مفردات الكومة: القضبان مع القضبان والشبك الحديدي مع الشبك الحديدي. واستخدمها كلها في بناء سقالة إلى جوار البيت. لم يتبقَ الآن إلا غسالة وكباس ورق. وهذا الكباس سيكون بداية حياتي المهنية. كباس ورق للمدفأة.

إليك ما فكر فيه بابا: سوف أتنقل من منزل إلى منزل لأجمع الصحف القديمة، وبما أني أنا في حد ذاتي "عمل خيري متنقل"، فسوف يكون الناس سعداء بمساعدتي، وهكذا أجمع منهم أكوامًا من الصحف لأجل كباس الورق.

تحولت الحديقة الآن إلى ورشة. تقوم الغسالة بتحويل الورق إلى عجينة، فأنقل العجينة إلى الكباس، لأعصر الماء منها. ثم أسند الكباس المبتل إلى السقالة. ويأخذ بابا الكتل المجففة إلى ساحة الخردة، ليبيعها للزبائن في الشتاء، أو يستخدمها في تسخين الكانتين. لا أعرف. "كما أخبرتك، هذا هو الحل...".

صرنا في ذروة الصيف، وأصبحت الامتحانات شيئًا من الماضي، وشعرت في بعض الأيام أن لي فائدة، كما يقولون. كنت اشتغل على الكباس بقوة تكاد تؤذي يدي، وعبر الشبكة المعدنية يقطر سائل رمادي، هو مزيد الماء بلباب الورق بحبر الصحف. ربما حمل هذا الحبر ذات يوم تفاصيل خبر مولد دب قطبي، أو مصرع ستة عشر شخصًا في تل أبيب. تمر أمامي عناوين الصحف في كل مرة أقوم فيها بتحميل الغسالة بالورق، وأحيانًا أجد نفسي مستغرقًا في

مطالعة صحيفة مر عليها أكثر من عام. فلا أجد محتواها يختلف كثيرًا عن صحيفة اليوم؛ الأخبار شبه بعضها، مثل الصينيين.

وكأنني قائد آلة زمن؛ أتنقل ذهابًا وإيابًا بين عصيان مسلح في أبريل وسقوط الرئيس في الانتخابات في أكتوبر، وأحملق في فتحة الغسالة فأرى كيف تدور وتدور أحداث العالم عدة مرات قبل أن تتحول إلى عجينة رمادية. حمّل، املأ، اكبس، وجفف – هكذا هي الميكانيكية والكفاءة. يمكنني في اليوم العادي أن أكبس ما بين 40 و50 قالبًا. حمّل، املأ، اكبس، وجفف. عمل سهل، ويسعدني. وشعرت بداخلي بارتباط غريب مع "بابا أفريكا" - كما صار "جوي"، و"كريستوف"، و"إنجل" يسمونه الآن – وهو يعمل على صنع قاربه في حوض السفن القديم.

كنت أذهب إليه عندما أجد في ذراعي بقية قوة في نهاية اليوم. أحببت جو العمل حول القارب، ويقشعر جسدي كلما رأيته يعمل على طي لوح الخشب. كان منهمكًا في العمل حتى الثمالة، وهو يقف وسط بحر من نشارة الخشب الصفراء له رائحة عجيبة. يتمدد عمود تلغراف خشبي طويل – سيكون صاري القارب – فوق مسند تقطيع الأخشاب. وكلما انتصب قوام "بابا أفريكا" واقفًا، يتأوه من ألم ظهره ويسند يديه على فخذيه وهو يقوم بحركات إطالة بسيطة لعضلات ظهره.

دار حول قاربه، يتأمله ويتفحصه عن كثب. قال وهو يرينا أصابعه العشرة:

- هكذا تعودت أنا أصنع قاربي.

ثم أشار إلى رأسه:

- وهذا هو من يخطئ.

كما أنني أحب صوت عمل الأزاميل، الذي يبدو من بعيد كما لو أن أحدهم يعزف موسيقى على قلب شجرة جوفاء.

بدأ "بابا أفريكا" يبني الهيكل بألواح متداخلة، وبدأ العمل من العارضة صعودًا ويدق الجدار الخشبي في مكانه على العوارض الخشبية. وعندما انتهى، كان أمامنا قارب حقيقي، لم ينته تمامًا ولكنه أوشك على الانتهاء. تتطاير نشارة الخشب من على طرف عارضة الشراع.

قال "كريستوف"، الذي يعرف قليلًا من المعلومات عن القوارب، أن فلوكة مثل هذه تستخدم شراعًا عربيًّا مثلث الشكل. وأنا لم أرتح أبدًا لنبرة "أبو العريف" الواثقة هذه. كان يستعرض معلوماته بكثير من الثقة بالنفس تدفعني في بعض الأحيان إلى الشك فأرجع إلى المنزل وأبحث في صحتها. ولكنني لم أمسك عليه ولا معلومة خطأ حتى الآن.

سيلتحق "كريستوف" بكلية الحقوق في "أوتريخت". وهو لن يوحشني. ولكنني عندما أفكر في الامر، أجد أنه في الحقيقة جزء لا يتجزأ من حياتي؛ مثل "جوي" و"إنجل". بقيت لسنوات أراقب حركاته عن قرب، وكنت أندهش كلما وجدت حركة فاتتني من قبل. أعرف أن العضلات حول عينه اليمنى ترتجف فتسحب زاوية فمه لأعلى معها. كانت طفيفة وسريعة، وكأنه يغمز لكائن لا نراه، وسألت نفسي عما إذا كان يعرف أن تلك الحركة لا تبدر منه إلا حينما يكون "جوي" موجودًا. وأعرف عنه أيضًا أنه لا يحب البصل مع البطاطس المقلية في غدائه، وأن حلمًا راوده وهو في السادسة عشرة من عمره رأى فيه والدته وهي بثلاثة أثداء.

فحتى لو لم أكن أحبه إلى تلك الدرجة، إلا أن العلاقة بيننا علاقة صداقة، وخاصة أنني صرت أعرفه مثلما أعرف نفسي. وأنا لا أحب مواجهة نفسي.

***

كنت أعمل واقفًا على قدميَّ. أستند إلى الآلات والسقالات التي أتحرك فيما بينها. أستيقظ في السابعة، في وقت مبكر بما يكفي لسماع الديوك المتصايحة في المزارع عند الأراضي المستصلحة من البحر. أشفق على هدوء تلك الساعة المبكرة

عندما يمزقه ضجيج الغسالة، فلا أشغلها، وأقضي تلك الساعة في قراءة الأخبار القديمة وتدخين السجائر التي لفها آخرون لي. أبدأ التشغيل في الثامنة. أرى قوالب الورق، التي كانت رمادية وهشة وأنا أخرجها من الكباس، وقد جفت وتحولت في ظرف أسبوع إلى أقراص قاسية ذات لون بني فاتح. مع حلول الظهيرة أشعر بألم في ساقيّ؛ وعندئذ أرتاح في العربة، وأعمل وأنا جالس فيها لبضع ساعات أخرى.

شعرت بسلامة صحتي وبقوتي، وتلمست في جيبي أول أجر حقيقي يدخله، وأحيانًا كنت أجلس مع "جوي" عند مرسى العبارة لنشرب البيرة، التي أحضرها معي في جراب عربتي. كان هو و"كريستوف" و"إنجل" لا يزالان موجودين، ولو تخيلت الوضع لربما تصورت أن الأمور ستبقى دائمًا على هذا النحو، وأننا سنكون معًا شلة لا تفترق، وأنني سأجلس بين وقت وآخر مع "جوي" عند الرصيف وهو يلقي بأغطية الزجاجات في الماء، بينما يفرد "بابا أفريكا" ظهره ليريحه وهو يتأوه.

كانت "بي جي" قد رحلت بالفعل؛ بعد أن التحقت بكلية آداب في أمستردام، وعثرت على غرفة هناك. قال لي أحدهم إن "يوب كوكشنايدر" راح لزيارتها مرة، وأنها تعاملت معه وكأنه غريب.

رأيت "كوكشنايدر" في سوق الشارع ذات ظهيرة، وفهمت فجأة ما كنت قد رأيته من قبل، ففي ذاك اليوم الذي عبر فيه النهر مع "بي جي" وتوقفا ليتحدثا معنا: كان يتصرف مثل من يوشك أن يفقد كنزًا ثمينًا. الحقيقة أنه كان بالفعل يجتر أحزانه، وكان هذا ظاهرًا بالفعل في حركاته، ولكن كبرياءه وحده الذي دفعه إلى التظاهر بالقوة. والآن بعد أن رحلت، لم يعد هو إلا عزيز قوم ذل.

شعرت بالأسى لأجله – لقد تضاءل حجمه، وكأنه شاخ فجأة، ولم يعد له علاقة بذلك العملاق الواثق من نفسه، ولكني أكذب عليك لو قلت لك إن

ارتياحي لم يكن أكبر من شفقتي عليه. فأنا لا أرغب في أن يكون أي أحد مع "بي جي"، وخاصة هو.

هي كانت وهمي المقدس.

كان الوضع أقل من أن يكون مثاليًّا: ففي عالم خيالي وجدتني مضطرًا لأن يشاركني "كريستوف" فيها، والذي كان بدوره في نفس الخيالات. أقصيته عن أحلامي بكل الأسلحة الممكنة؛ بلطة... فأس... شاحنة... وأشياء ثقيلة تسقط عليه بأمر مني.

***

كل يوم سبت أتنقل بين المنازل لأجمع الورق. وصار الكل يعرف سبب حضوري إلى منزله، وكانوا في بعض الأحيان يجهزون حزم ورق الكتيبات والصحف أمام منازلهم مسبقًا. ورغم أن تلك الكتيبات لا تفيدني، فإنني أتغاضى عن ذلك، وكم كنت أقدر ذلك الاعتناء الذي يظهر من طريقة ربطهم لحزم الورق حتى يسهل علي حملها. ويبدو أنهم كانوا مسرورين لقدرتهم على القيام بشيء من هذا القبيل. ولم أكن أعرف كيف أعبر لهم عن تقديري لهذا الحب.

بعضهم يطلب مني الانتظار في الخارج، وآخرون يصرون أن أدخل، ويقدمون لي القهوة أو السجائر. وحتى ذلك الحين لم أكن قد رأيت تلك المنازل إلا من الخارج فقط. ومنحني هذا آفاقًا جديدة. وصرت الآن قادرًا على أن أكتب "تاريخي" من الداخل أيضًا. كيف نعيش؟ ماذا يحدث وراء الأبواب المغلقة؟ ما هي رائحة البيوت؟ (هل لها رائحة ورنيش الأحذية، ملمع الأثاث، التحمير في المقالي على البوتاجاز، أم رائحة السجاد القديم؟) هنا في "لومارك" نستمع إلى الراديو من جهاز ترانزستور على طاولة المطبخ، وبجانبه نسخة من دليل الإذاعة، فوقه سلسلة مفاتيح لها حلية من جمعية خيرية كاثوليكية. في غرفة المعيشة، تجد الصور العائلية في براويز على رف الموقد (صور العائلات

الكاثوليكية تلتقط دائمًا من بعيد حتى يكون جميع أفراد العائلة داخل كادر الكاميرا)، والنباتات المنزلية تستقر على حافة النافذة.

ولكن ماذا تفهم من كلامي هذا؟ أن الأمور كانت تمضي في البلدة بشكل جيد خلال النصف الثاني من القرن العشرين؟ فنحن نقود سيارات مريحة ونستدفئ في منازلنا المتوسطة بالغاز الطبيعي. رحل الألمان منذ زمن، وبعدهم كنا نخاف من الشيوعيين، ومن الأسلحة النووية، ومن الركود، ولكن الموت هو أسوأ ما نخشى. لا أحد يملي علينا ما نفعله، ولكننا نعرف ما علينا أن نفعل. لا نتحدث عن أي شيء، ولكننا لا ننسى أبدًا أي شيء. ونتذكر كل شيء، ونختزن في صمت المعلومات عمن هم حولنا، حتى نجترها فيما بعد. بين حيواتنا خيوط غير مرئية تربط بينها أو تفصلها، خيوط لا يراها الغريب، مهما طال به الزمن بيننا.

سمعت ورأيت الكثير في تلك المنازل. سمعت ذلك الصوت الذي به نتحدث عن الحاضر والماضي، وسوف أبذل قصارى جهدي لأجعله مسموعًا عبر الزمن. سأكتب عن الحركة الاشتراكية الوطنية، مثلًا. عندما حصلت الحركة الاشتراكية الوطنية الهولندية على 8 في المئة من أصوات الناخبين في الانتخابات البرلمانية عام 1935، تحملنا نحن هنا في "لومارك" نصيبنا من آثار تلك النتيجة. يتذكر هذا بعض العواجيز هنا. ولو كان لأحدهم أن يتحدث، لقال:

حضر إلى هنا "أنطون موسيرت" ليلقي خطبة، وهو من بلدة بجانب النهر الكبير، مثلنا تمامًا. كان يمثلنا، ويمثل صاحب المتجر وبستاني السوق، وكل من يعاني من الأزمة الاقتصادية، وكل من لم يحصل على قرش من الدعم الحكومي. كان كبير مهندسين سابقًا في مصلحة "أوتريخت" للطرق والممرات المائية، أي إنه ابن بلد. ونحن، من لا نريد سوى العودة إلى ثوابت حياتنا القديمة، صفقنا طويلًا للرجل الذي وعدنا باستعادة قيم الإيمان بالرب، والولاء للشعب والوطن، وحب العمل. عقد الاجتماع في قاعة العبارة أسفل النهر. أمسية شتوية. ووصلوا من "أوتريخت" في بضع سيارات، مضت على طول "لانج نك". جيش صغير من الرجال ذوي القبعات والمعاطف الطويلة، ترجلوا واصطفوا

إلى جانب المدخل، أسفل ضوء ضعيف من مصباح فوق البوابة. وسرعان ما مدوا أذرعهم اليمنى بقوة أمامهم بالتحية الفاشية، وصاحوا في نفس واحد قوي "هوى زي!" حتى كدنا نرى بخار أنفاسهم، ولما دخلوا إلى قاعة العبارة، التزموا الصمت في انضباط شديد.

لقد أنعم علينا الحزب بشرف عظيم بزيارة زعيمه. وتجمع أكثر من مئتي شخص في قاعة السلام التي بنيت من خشب الصنوبر، قدموا من كل حدب وصوب لسماع صوته وهو يخطب. كان "موسيرت" رجلًا مدكوك الجسد، أقرب إلى أن يكون قصير القامة. أعتقد أننا ربما شعرنا بقليل من خيبة الأمل في البداية عندما شاهدنا هذا الرجل الذي انحسر شعره الداكن إلى مؤخرة رأسه، ولم يتبقَ له سوى خصل على جبينه حرص على أن يمشطها. لكننا كنا مخطئين جدًّا! فقد صاح صوت، "القائد!"، ثم وجدنا "موسيرت" يتقدم في ثبات إلى المقدمة عبر كتلة سوداء من القوات الخاصة، وهو يرمقنا بعينين كان شحوبهما لافتًا للنظر. لقد تشكل قوامه في ذلك القالب الذي اختاره التاريخ له: فذقنه بارزة، وكتفيه مشدودتان إلى الخلف، وكأنه أول عدَّاء يعبر خط نهاية السباق. وعندما رفع ذراعه اليمنى، كأنها مدفوعة بريح عاتية، أوقد فينا جذوة الرهبة والاعتزاز معًا، فنهضنا جميعًا واقفين تحيةً له. هكذا وقفنا، في مواجهة بعضنا البعض. ثم خفض ذراعه، وكأنه يعيدنا بحركتها إلى مقاعدنا مرة أخرى، قبل أن يطلق دفقة الكهرباء التالية.

– إخوة أمتنا!

سرت في أجسادنا ارتعاشة ممتعة، كلها دفء وخشوع. كانت عينه اليمنى تنفث نارًا، ولكن عينه اليسرى عاقلة تزن كل كلمة قبل أن تخرج من شفتيه الرفيعتين. تحدث إلينا بكل جدية عن انحطاط العصر الحديث. وعن الخطر الأحمر. وعن نظام "كوليخن" الهزلي المعادي للثورة.

"شهدنا التدهور المستمر في التجارة والصناعة، والترويع من قبل جيش من موظفي الخدمة المدنية الذين لا يفعلون أي شيء، وعانينا من الإفقار. ويجب علينا تحرير الشعب من نير الأحزاب السياسية! سوف يعود المزارعون إلى حياتهم التي ألفوها؛ وسيدرك العمال من أعلى درجة إلى أقل مرتبة، ومن المدير إلى الساعي، مرة أخرى أن عليهم مهمة ينفذونها في تناغم نيابة عن شعبهم! ولسوف تزدهر البلاد من جديد؛ وتعود صارمة وقوية ومحبة... وسوف يدافع القادرون عن أرضنا، ووطننا، وإمبراطوريتنا بكل ما أوتوا من قوة، ضد كل أولئك الذين يسيئون إلى زهو استقلالنا أو قدسية أراضينا!".

كنا أمام رجل دولة بحق. وليس ذاك السياسي الذي يتحدث عنه خصومه. هذا زعيم يحسن أن نتبعه، والرجل المناسب لقيادتنا عبر الأزمة إلى أيام أفضل. ومالت له حتى قلوب المتشككين. وارتفعت نبرة صوته، أكثر وأكثر.

"يجب على هولندا أن تكون مستقلة عن أي هيمنة أجنبية، وأن تصير حصنًا للسلام، مستعدة للدفاع عن نفسها ضد جميع المهاجمين، وعلى استعداد للمشاركة في بناء اتحاد الدول الأوروبية بعد أن عادت الثقة بينها، وأن تثبت كونها أداة جديرة بالحفاظ على السلام الأوروبي وحماية الثقافة الأوروبية!".

علا تصفيقنا صاخبًا طويلًا. وبدت سعادته واضحة للعيان. خطب لساعة، ثم أعقبه شخص أملى علينا طبيعة دورنا المساهم في إعادة بناء الأمة. وبعد ذلك أنشدنا نشيد "الرب حصننا"، وكذلك النشيد الوطني، قبل أن تنتهي الاحتفالية. وغادرنا القاعة ونحن مفعمون بأمل جديد. وابتاع أغلبنا نسخًا من كتاب "فولك إن فادرلاند"... (شعب هذه الأرض). وعلى البعد، عند السد، كانت الأنوار الخلفية الحمراء لموكب سيارات "موسيرت" تبتعد... متوارية في سواد الليل.

24



كل أنهار العالم واحدة في عيني "بابا أفريكا". ربما اختلفت أسماؤها، ولكن مجراها واحد. بالنسبة له، نهر النيل هو النهر الأوحد على وجه الأرض، ويؤمن أن مياه الدنيا كانت تتدفق عبر حوض بناء القوارب الذي امتلكه والده في "كوم امبو". سأل "إنجل":

- افتكر أنه يظن أن هذا هو نهر النيل، أليس كذلك؟

قلد "جوي" صوت زوج أمه، وهو يقول:

- راين... نيل... "سيم سيم".

- هو على حق... من الناحية الفلسفية.

وسأل "كريستوف":

- هو مش درس جغرافيا في مدارسهم؟

- هو لا يعرف مكان القاهرة على الخريطة. ولا يعرف بالتحديد أين هو الآن. وما افتكرش إنه مهتم أصلًا بالموضوع ده.

ساد بيننا صمت عدم الفهم، ونحن ننظر إلى تلك الظاهرة التي اسمها "بابا أفريكا"، وقلم رصاص دسه وراء أذنه، وهو يداعب شاربه، بينما يمشي في الفناء. طلى هيكل القارب الآن بالأحمر حتى المستوى الذي يلامس الماء، أما البقية فبالأبيض.

يريد أن يثبت الصاري، ولكنه ينتظر الشراع، الذي تحيكه "ريجينا" من قطع قماش. ستكون الرحلة الاولى في أواخر شهر أغسطس، و"ريجينا" تريد أن تقيم حفلة تدشين على الرصيف في ذلك اليوم. لديها خطط كبيرة؛ ولن تدع فرصة لنيل الاهتمام والإعجاب مثل هذه تذهب سدى.

اليوم نفسه يقترب بسرعة، ولكنَّ شعورًا سيئًا يراودني تجاه الموضوع كله. فبعد نهاية ذلك الأسبوع سيرحل "جوي"، و"إنجل" و"كريستوف"، فالدراسة تبدأ في سبتمبر وأنا سأبقى وحدي في عالم الموتى. مع كباس الورق. لقد عملت بجد وإلى حد مبالغ فيه؛ لدرجة أنه لم يعد هناك مجال لتخزين المزيد من كتل الورق المجفف. قال لي بابا:

- كثرتها ستؤدي إلى انخفاض سعرها.

سمعته ماما، فزمت شفتيها وعقدت ذراعيها أمام صدرها. فأردف بابا بنبرة معتذرة ولكنها عنيدة أيضًا:

- سعرها الآن خمسة وعشرون. ولا يزال سعرًا مناسبًا لك في نظري. ولكن غزارة الإنتاج تؤدي إلى انخفاض سعر المنتج. ده ألف باء اقتصاد.

- لازم تلتزم بكلمتك.

- هو من أنتج الكثير منها. اسألوا أي شخص عن هذه النظرية الاقتصادية البسيطة: زيادة المعروض تعني انخفاض سعره.

- ولكنه ابنك.

- هو هيصرفها في "الفاندرز" في كل الأحوال.

على كل حال، صرت منذ ذلك اليوم أحصل على 25 مقابل كل 50 كتلة، وعوضتني ماما عن الفارق من مصروف البيت. والحقيقة أنني كنت أصرف معظم المال في "الفاندرز" فعلًا.

ميزة استراحة "الفاندرز" أنها على الطريق السريعة، خارج القرية، وهو الأمر الذي أحدث الفارق، سواء بالنسبة لنوعية الزبائن أو أجواء المكان. هي أفضل من "ذا صن"، حيث المزاج العام في كثير من الأحيان، كيف أعبر عنه، غاضب، والكل متحفز لبعضه البعض. أما "ليتل ريد روستر" فهو أقرب إلى دار مسنين، فلا يقصده أحد غيرهم إلا إذا كان هناك حفل زفاف، أو إذا انهمرت الأمطار فجأة وهم في الشارع، فيدخلون ليحتموا منها وحسب. "فاندرز" هو الأفضل. هناك تتوقف شاحنات وسيارات ليخرج منها أناس لم أرهم من قبل، وهو ما يبث في الأمل، بنفس الطريقة التي تستمد منها امرأة الأمل من رؤية جنود العدو وهم يتدفقون على مدينتها.

أوضح لك بمثال.

- ماذا أحضر للسادة؟

هكذا تسأل فتاة البار قائد شاحنة دخل المكان لتفوح منه رائحة الأسفلت الساخن. ومعه صبي صغير، سمح له بأن يرافقه اليوم. فيسأل الرجل الصبي بصوت مغاير تمامًا لمظهره. كان يرتدي صندلًا مع جورب أبيض. فيرد الصبي:

- كوكاكولا.

- وتاكل إيه؟

- فرينش فرايز بالمايونيز.

- فرينش فرايز للولد، وأنا... ساندويتش لحم بالصوص. ومسطردة زيادة.

فتبادره فتاة البار:

– طبق سلطة صغير مع البطاطس مفيد. فيتامينات. وأنت تشرب حاجة؟

– آه... كوكاكولا.

***

طيب. ربما لا أكون اخترت أقرب مثال على الصورة التي أريد أن أوضحها لك. ولكن "الفاندرز" مليئة بالجديد. ففي عطلة نهاية الأسبوع يقيمون حفلة موسيقية حية، كما أن "إيلا بويي" تكون أقرب إليك من صديقتك طالما أنك ستدفع الفاتورة. إنها تمتلك روح راقصة محترفة، ولكنك تعلم أنها ما إن تدخل إلى المطبخ حتى تخلع هذا القناع تمامًا، وكأنه لم يكن. هي ليست من هنا. تأتي للعمل ظهرًا من مكان آخر، وتقود سيارة "مازدا" بيضاء أوتوماتك، وتعود إلى حيث تعيش عندما تنتهي ورديتها. لا أحد يعرف ما إذا كان لديها عائلة أم لا، ولا يبدو عليها أنها يمكن أن تقع في غرام أي شخص في هذا العالم. وأنا أقدر لها أنها لا تصطنع هذا التعامل اللطيف معي.

أحضرت لبغل الشاحنة ذي الجورب الأبيض وابنه كوبي كوكاكولا. يجلسان عند النافذة. وفي الخارج مرقت شاحنة مسرعة.

– كويس إنهم بيعملوا الطريق السريع الجديد.

رمقت "إيلا" الخارج، حيث تهيمن الشمس على كل شيء:

– آه... طبعًا.

– لكن السؤال هو إيه تأثير تشغيل الطريق الجديد عليكم هنا؟

نظر سائق الشاحنة إلى "إيلا"، منتظرًا أن يسمع منها رأيًا في مسألة الطريق E981 التي سترتبط هذه المنطقة من الغابة بألمانيا. ولما كانت ساكتة، أردف هو قائلًا:

– أعتقد أن الموضوع متوقف على مكانكم من الطريق الجديد. صح؟

– المسألة ليست في أيدينا.

– بالتأكيد... أكيد.

– لكن مفيش اعتراض من ناحيتنا...

– فيه تصاريف تانية للأمور.

بعد ربع ساعة، كان ساندويتش اللحم بالصوص ومعه طبق الفرينش فرايز جاهزين. وهكذا أمضى الرجل مع ابنه وقتًا مريحًا، قبل أن يستأنفا الرحلة حول الشمس.

***

حاليًا، يتعلق مستقبل "لومارك" بما هو أكثر قليلًا من هذا الاسم الرمزي: E981. سوف أقرأ عن هذا في الصحف؛ فهي خطة استحقت أن نهتم لها. وانطباعي هو أن البعض متحمس لها لأنهم يعتقدون أن طريق دولي كهذا سيجلب الازدهار الاقتصادي للقرية، ولكن أغلب الناس لا يلقي بالًا للموضوع. وعلى كل حال، لم تعد الطريق القديمة إلى ألمانيا مناسبة الآن، حيث صارت تزدحم بالسيارات والشاحنات بكل سهولة. والمنطقي ألا يفكر أحد في تقليل عدد السيارات، بل في توسيع الطريق نفسها. قرأت عبارة على مؤخرة شاحنة مرت أمامي سريعًا... "النقل... حياتي".

أما الاستيكر الذي أحب أن أراه على السيارات والشاحنات فهو الذي يحمل عبارة "أنا ♥ الأسفلت"، وذلك لأنني أعتقد أنه شعار كل حكومة تولت منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية. إنها ثورة أسفلت بالفعل. ثورة عارمة.

"جوي" معه حق. فالعالم ينطلق مستقلًا صاروخ. إنه وحش الطاقة الحركية.

"عباقرة العالم متخصصون في هذا المجال. أوعى تنسى أبدًا. وفكرة محرك الاحتراق الداخلي لم تتغير في آخر مئة عام. هم بيشتغلوا على تطويرها، وأن السيارة تنطلق بأقصى سرعة وبأقل قدر من الوقود وأقل نسبة من العادم".

"كل سنة في موديلات سيارات جديدة، وبطريقة تخلي الكل يركب سيارة. دي معجزة العصر: أن ننطلق على الطريق بسرعة أكبر وأكبر. ولكن لا تصدق أي أحد يسمي هذا العصر عصر التقدم. لا يوجد شيء اسمه تقدم. نحن في عصر الحركة. أهم وصف للقرن العشرين إنه قرن الحركة. يمكن للشخص إنه يتنازل عن حقه في التصويت، ولكنه لا يمكن يتنازل عن سيارته. وبالتالي، لو كان أنصار البيئة راغبين في تحقيق تغيير فعلي، فلازم يدخلوا في مجال غير ده. المجال ده عبقري في حد ذاته".

إنهم لم يحددوا مسار الطريق E981 حتى الآن؛ ويطرحون الموضوع بين حين وآخر في اجتماعات مجلس "لومارك" البلدي، ولكن الأسئلة عقيمة وإجاباتها أشد عمقًا.

الناس لا تتعامل مع أي تهديد... طالما أنه لا يزال بعيدًا عن أبوابها.



25



حظي فستان "ريجينا رازينجر"، الذي ارتدته يوم تدشين فلوكة "بابا أفريكا"، باهتمام فاق أي اهتمام بالفلوكة نفسها. وصفه البعض بأنه "فستان زفاف عربي". لونه أزرق قوي، مزركش في أشكال غريبة بخيوط ذهبية وفضية. ومن أسفل طرفه ترى حذاءً لامعًا. وضعت كمًا رهيبًا من المكياج، والترتر يتراقص في وشاح رأسها كلما تحركت ترحب بالضيوف. تمتم "جوي" ساخرًا:

- مش كانوا يقولوا إنها حفلة تنكرية؟!

تتجول "إنديا" بين الضيوف وهي تحمل صينية عليها أكواب من البيرة ونبيذ "الكافا". ترتدي تي شيرت زيتونيًا وبنطلون جينز فاتحًا. بشرتها برونزية، وكانت تستغل الأيام المشمسة لتغسل شعرها بعصير الليمون حتى استحال أشقر. وكأننا نراها للمرة الأولى. فعجزنا عن أن نبعد أعيننا عنها.

تفد مجموعات قليلة من الناس على "لانج نك"، في طريقها لمكان تدشين فلوكة "بابا أفريكا". الجو في أغسطس معتدل الحرارة، ويهب نسيم خفيف على أشجار الحور. بدأ الحفل على مهل، ولم يكن الضيوف متحمسين للتواصل مع بعضهم، واخمين. ولم يشعر بعضهم بارتياح لطلة "ريجينا" المبالغ فيها وانطوائية "بابا أفريكا" الواضحة. ولكن من الطبيعي أن يكون متوترًا، أليس كذلك؟ فهو صمم الفلوكة من واقع ذكريات قديمة ولم يكن معه مخطط مفصل،

وهو ما جعله متخوفًا من الفشل. هل كانت ذكرياته مضبوطة؟ هل حدد النسب والمقاييس على نحو صحيح؟ كان يرتدي البدلة بعد إلحاح "ريجينا"، رغم أنه رغب في ارتداء أوفرول الشغل، فاليوم يوم عمل، وليس يوم إجازة.

تعلو الضحكات وسط الضيوف، ولكن أغلبهم اكتفى بالترقب والانتظار. تواجد عواجيز الفرح بطبيعة الحال. يقفون إلى جوار بعضهم، وفي أيديهم كؤوس "الجين"، ولا يتوقفون عن التلفت حولهم. لا تفوتهم شاردة؛ حتى يتسنى لهم اجترار كل ما شاهدوه بعد ذلك بكل دقة، وهم جالسون على مصاطبهم.

يلتقط الضيوف المشهيات من فوق الطاولات الطويلة. أمضت "ريجينا" أيامًا في إعدادها. قطع اللحم المتبلة في أسياخ خشبية صغيرة أسفل الفويل، تمهيدًا لشيها لاحقًا. وهناك أرغفة عربية مسطحة وأوعية تحوي صلصة التغميس الحمراء والخضراء، وأعدت للأطفال – ولم يكن هناك أي طفل في المكان – كوكيز باللوز على شكل ديك "لومارك". صنعتها بروح محبة، وليست تلك الروح الجائعة.

وصل "بيت هونينج" بعبارته. أرساها، ثم اقترب مصافحًا "ريجينا".

– أليس قاربًا جميلًا، مدام؟ بالفعل هو جميل.

كان يحدثها وعيناه تمسحان طاولات الطعام وراء ظهرها. تعلقت بذراعه وتمشت، وهي تقول له:

– تعالَ "بيت"، تفضل وكأنك في بيتك.

اقتربت سيارة عائلة "إيلاندر" البيجو من جهة "لومارك"، تقودها "كاثلين إيلاندر". أوقفت السيارة بعد أن صعدت بإطاريها الأماميين فوق الرصيف. وخرج "يوليوس إيلاندر" من السيارة، بشعر غير مصفف، فخيل إليَّ أنه رهينة كان محبوسًا داخل السيارة ووجد فرصة للهرب. هللت "ريجينا":

– "كاثلين"! جميل أن أراكِ!

- أوه، تبدين مثل الملاك، "ريجينا"! هل هذا هو القارب؟ إنه جميل مثل جوهرة! أين "محفوظ"؟ أريد أن أهنئه وأعبر له عن إعجابي بالقارب!

- كلي واشربي أولًا! كلي! أوه، فالطعام كثير.

يمشي "يوليوس إيلاندر" في ظل زوجته وحماسها البالغ. بينما وقف "بيت هونينج" مع "بابا أفريكا" عند الفلوكة، يتحدثان بمصطلحات لا يفهمها غيرهما. أيديهما تمر على خشب الفلوكة، فتتفوه الشفاه بعبارات عن الفلوكة. إلى أن انطلق صوت بينهما:

- "محفوظ"، رائع، رائع! أنا فخورة بك...

تبسم المصري في خجل في وجه "كاثلين إيلاندر". بينما جذب زوجها يد "محفوظ" ليصافحها بكل حرارة.

- عمل عظيم، عمل عظيم. ستأخذني في نزهة بها عما قريب، أليس كذلك يا صاحبي؟

***

هناك حوالي خمسين شخصًا عند الماء. الفلوكة جاهزة، تنتظر في أوتادها من سيدفعها فوق المسار المطاطي ومنه إلى الماء. خلع "بابا أفريكا" حذاءه وجوربه وطوى طرفي البنطلون حتى أسفل الركبة. فعل "جوي"، و"إنجل" و"كريستوف" الشيء نفسه، وحتى "يوليوس إيلاندر" الذي جلس ليفك رباط حذائه. وخلع ثلاثة رجال آخرون أحذيتهم أيضا. والتقط "جون كراكمان" الصور لصحيفة "لومارك ويكلي". وصاحت "إنديا":

- هنطلع في الجرنان؟

بلل "كراكمان" شفتاه بلسانه، وهو يجيبها:

- انتظري، لا تتحركي، هكذا...

التقط صورة لـ"إنديا" وهي تبتسم للكاميرا بأسنان كبيرة قوية، ومن وراءها وقف الرجال يتناقشون حول أفضل طريقة لتدشين الفلوكة. كانت جوانب الفلوكة مرتفعة حتى خصرهم، وأقدامهم الحافية تجعلهم يخشون الإصابة. تخلص "بابا أفريكا" من سترته وناولها إلى "ريجينا"، التي أسندتها بعناية على ساعدها، حتى لا يتجعد قماشها. وقالت له بلهجة مسرحية:

- القبلة حبيبي!

منحته قبلة سينمائية، بفمها بالكامل، وهي مغمضة العينين. أحاطت بوسطه بذراع، بينما باعدت ذراعها التي تحمل السترة عن هذا الحضن. رد القبلة بقبلة روتينية، يشوبها الخجل؛ ففي بلاده لا يصح أن يكون مثل هذا المشهد الحميمي أمام الناس في مكان عام. ثم استدار وعاد إلى الآخرين. قبض الرجال على حواف الفلوكة، بينما راح "بابا أفريكا" إلى المؤخرة. "لما أنادي عليكم!".

- ياللا!

صاحوا كلهم في نفس واحد بالمصرية:

- ياللا!

انزلقت الفلوكة بضع بوصات. يقولون هكذا بنيت الأهرامات وأبو الهول والمقابر الملكية... صاح "بابا أفريكا"، فزاد الرجال من قوة الدفع، وخيل إليَّ أن من يراقب المشهد من بعيد سيظن أنهم يحاولون إعادة حوت تائه إلى البحر من جديد. اقتربت الفلوكة من الماء ببطء، وصار الرجال في الأمام في الماء بالفعل حتى كواحلهم.

"ياللا... ياللا!".

دفعة... دفعتان... ثلاث... ثم صارت الفلوكة في الماء بخفة مدهشة. "بابا أفريكا" واقف وقد وصل الماء إلى وسطه، ويداه لا تزالان على مؤخرة الفلوكة. لم يسمع "ريجينا" وهي تصيح:

- البنطلون يا حبيبي.

صعد إلى الفلوكة، وخفف ربطة الحبال وخفض الشراع في مكانه. كادت الفلوكة تصطدم بجانب العبارة. حبس الجميع أنفاسهم. اندفع "جوي" في الماء ليساعده، ولكن لم تعد المساعدة ضرورية، فقد أحكم "بابا أفريكا" وضع الشراع وثبت ذراع الصاري. ثم ركض إلى الدفة، وأبعد الفلوكة عن العبارة، ووجهها نحو المياه المفتوحة. ثم أنزل الرمانة إلى جانب الفلوكة لتستقر فوق الماء.

تحركت الفلوكة في سلاسة مع التيار. ولم تتوقف كاميرا "كراكمان" عن التصوير، وجه "بابا أفريكا" الفلوكة لتكون في مهب الريح. وصاح الحضور في انبهار وهم يشاهدون الشراع ينفرد بقوة مثل جناحي تنين. كانت الفلوكة تنطلق، ومن ورائها أثرها في الماء. رمق "بابا أفريكا" أعلى الصاري في توتر، ثم عاد ينظر نحونا. لم يمكننا من هذه المسافة أن نرى تعبيرات وجهه، ولكنه لوح لنا عندما أخذنا نصفق له. أحيانًا تظهر طيات في الشراع فيعيد "بابا أفريكا" توجيه الفلوكة ليضمن الاستفادة من مزيد من الرياح. مسألة وقت قبل أن يتوارى عن الأنظار، متجاوزًا أرصفة شحن "بيثليم".

الضيوف مبتهجون. فهم شهدوا انتصارًا؛ وكان التدشين على النحو الذي تمنوه، وهو ما أضفى على تلك الظهيرة جمالًا من طراز خاص. اختفى "بابا أفريكا" حول منعطف النهر، وعاد الناس إلى طاولة المشروبات الغازية والبيرة والوجبات الخفيفة. بقي السيد "إيلاندر" حافي القديمن، ينتظر عند الماء عودة الفلوكة. تلهو العصافير في تراب أشجار الحور... العالم يعيش لحظات سلام.

بقت عينا "ريجينا" على النهر. بينما سألت "كاثلين إيلاندر" "جوي":

- ستلتحق بكلية الفنون التطبيقية إذن؟

نفى "جوي" ذلك بهزة من رأسه.

- ولكن أمك قالت لي هذا؟

خيم الصمت عليهما لحظات. قبل أن تميل "كاثلين"، وهي أطول من "جوي"، عليه ثانية، وتسأله:

- طيب هتدخل إيه؟

- أنا ها أكون فنان. برغم أن الكلمة مطاطة. ولكن إما يكون الإنسان فنانًا من الأصل أو لأ. بمعنى إن مفيش حد بيتعلم يكون فنانًا. الواحد بيدخل كلية الفنون ليكتشف هو فنان ولا لأ. خذي "إنجل" مثلا، هو فنان والكل عارف إنه فنان. أما أنا؟ أنا بارع في صنع الأشياء، ولكن دي حقيقة ليس لها أي معنى.

حدق في وجهها، قبل أن يوشك أن يضحك. فسألته:

- فيه إيه؟ هل هناك في وجهي ما يضحك؟ هنا؟

كانت تمسح فمها بأصابعها.

- فيه أحمر هنا... فوق شوية... أيوه... هنا.

بحثت "كاثيلين" في حقيبتها عن المرآة الصغيرة.

أعطته ظهرها وهي تحدق في المرآة بحثًا عن العيب في شفتيها. أثارت عجلات درَّاستي المحاصيل الغبار خلفها.

- راح؟

- أيوه.. راح.

- لماذا يناديك الناس "جوي سبيدبوت"... "جوي اللنش"؟

- لأنه اسمي؟

- لكن انت مفيش عندك لنش، صح؟

وافقها "جوي" بهزة من رأسه.

- وماذا عن اسمك الحقيقي؟

- مفيش اسم حقيقي، مجرد غلطة ارتكبها بابا وماما.

أضفت ابتسامته على الحوار بعض الود.

- اسمعي، مسز "إيلاندر"، "جوي سبيدبوت" هو اسمي.

- ناديني "كاثلين"، من فضلك. أشعر أني عجوزة لما أسمع كلمة مسز.

نظرت "كاثلين" إلى شط الماء، حيث ينتظر زوجها وآخرون عودة الفلوكة، مثل مريدين ينتظرون عودة شيخهم.

- كان لازم يلبس قبعته. ستحرقه الشمس هكذا. كما أن زوج أمك استغرق وقتًا أطول من اللازم. لو كنت مكان "ريجينا" لتوترت أعصابي قلقًا. مش ممكن تكون الفلوكة غرقت؟

"ريجينا" مع "إنديا" عند الماء، ولكن بعيدًا عن الآخرين. تطمئن "إنديا" أمها بكلمات، بينما لم يحتمل جسد أمها كل هذا القلق، فمال جذعه إلى الأمام. واقترب "يوليوس إيلاندر" من الحاجز الإسمنتي، وحذاؤه في يده، واقترح عليهم أن ينطلقا بالسيارة إلى جوار النهر حتى يطمئنوا على "بابا أفريكا". وطلب من زوجته مفاتيح السيارة. أما عواجيز الفرح فبلغت الإثارة بهم مبلغها، فسارعوا متعثرين إلى شكر "ريجينا" على حسن الضيافة، قبل أن ينطلقوا إلى حيث تجمعهم مصطبة النميمة والإشاعات.

عاد "يوليوس إيلاندر" بعد نصف الساعة. كان قد راح بالسيارة حتى الجسر الجديد، ولكنه لم يعثر على أي أثر للفلوكة. فتبدد كل أمل في نهاية سعيدة. وخيم الوجوم على الكل. وكانت وطأته شديدة. وقال "يوليوس":

- علينا إبلاغ الشرطة.

فقالت زوجته:

- لن يكون بيدهم الكثير ليفعلوه هنا.

لا أحد يجرؤ على النظر إلى "ريجينا"، كما لو أن مجرد نظرة إليها كفيلة بانهيارها بكل هذا الخوف والألم، وحدوث مصيبة جديدة. عاد "يوليوس إيلاندر" بالسيارة إلى "لومارك"؛ وبقت زوجته عند حوض السفن القديمة، مع عدد قليل من الآخرين الذين كانوا يحدثون أنفسهم بكل دهشة، "هل سبق لكم أن رأيتم أي شيء مثل هذا؟" و"لولا أني حاضر لما صدقت". انطفأ اللهب تحت الصواني الساخنة، ولم يهتم أحد ليشعلها مجددًا، فقد كان الانتظار والترقب عنوان المشهد. يكاد المساء يحل، بينما يشدو الشحرور ويطارد بعضه بعضًا عبر الشجيرات. همت السيدة "تاباك"، التي تقوم "ريجينا" بتنظيف منزلها، بالانصراف. وقالت:

- تفاءلي، "ريجينا"، مهما بدا الموقف صعبًا.

لاحت سيارتان عند "لانج نك"؛ كانت سيارة "يوليوس إيلاندر" في المقدمة تتبعها سيارة شرطة يقودها الرقيب "أوس مانتنج". توقفتا على مقربة. وترجل "مانتنج" على مهل، ومشي نحو الجمع مثل دب سيرك عجوز. أومأ برأسه يحيي "كاثلين"، التي يتذكرها منذ أن جاءته بشكوى ضد طائرة تحلق على ارتفاع مزعج من منزلها. وسأل "ريجينا":

- مسز "راتزينجر"؟

أخرج دفترًا صغيرًا من جيب سترته، وفتحه، وهو يقول لها:

- شرح لي هذا السيد الموقف. واتصلت بالشرطة النهرية لأبلغهم عن قارب خشبي مفقود، طوله ستة أمتار تقريبًا، لونه أحمر في أبيض. صح؟

وافقته "ريجينا" و"إنديا" بهزة رأس.

- طيب... فوق القارب السيد...

بادرته "إنديا":

- "محفوظ"... "محفوظ الحسيني".

- السيد. "الحسيني". هل لي أن أسأل من أي بلد هو... السيد. "الحسيني"؟

- هو مصري.

- يتحدث الهولندية؟

- يفهمها أحسن من التحدث بها.

- هل عرفكم بالوجهة التي يقصدها بالقارب، هل ترك أي...؟

تمتمت "ريجينا" بكلمات غير مفهومة. قبل أن ترفع صوتها قليلًا:

- كان "محفوظ" يجرب الإبحار بالقارب. هذا كل شيء. جولة قصيرة.. مش أكتر. أين هو الآن إذن؟

كانت تشير بسبابة التوبيخ إلى "مانتنج".

- أين هو؟

- زملائي يبحثون عنه، مسز "راتزينجر"، وليس بيدنا ما...

- أين هو؟

- تمالكي أعصابك، مدام، فزملائي يمشطون النهر بحثًا عنه في هذه اللحظات.

هي لحظة الانهيار إذن. فقد سارعت "ريجينا" بالابتعاد، وانخرطت في البكاء، لأول مرة في ذلك اليوم، ونحيبها يعلو ويخفت قبل أن يعود ليعلو. بينما حدجت "كاثلين إيلاندر" الرقيب "مانتنج" بنظرات تأنيب بسبب افتقاره إلى الكياسة المطلوبة، قبل أن تلحق بصديقتها. عاد "مانتنج" ليستقل سيارته، وابتعد. وهبطت أضواء سيارته على جسد جالس عند الشط. جسد "جوي".

هكذا انتهى ذلك اليوم، و"ريجينا" غارقة في البكاء، وقد استدنت إلى الطائرة البرمائية التي يمتلكها مصنع الأسفلت، بينما يتمشى "جوي" جيئة وذهابًا فوق الرصيف، ويتوقف لحظات عند الطاولة التي لا تزال تحمل الكثير من الطعام والشراب. دس قطعة بسكويت في فمه. قبل أن يردد في لا مبالاة ساخرة:

- الحمار عارف طريقه... الحمار عارف طريقه.

26



عاد أكتوبر ولم يعد "بابا أفريكا". وبقيت في عيني "ريجينا راتزينجر" نظرة مريرة تتهم العالم الذي اعتاد أن يسلبها كل شيء تحبه. وأضحت سيدة يتحاشا الناس النظر إليها حتى لا تعكر عليهم صفو حياتهم.

وبينما لزوجها الأول قبر يمكنها أن تزوره، لم يترك لها زوجها الثاني حتى ولو جسد تودعه. ما إن تبزغ الشمس فوق شبورة الصباح بضوء ضعيف وإن كان إشراقًا، حتى تنطلق "ريجينا" لتمشي بطول "لانج نك" إلى النهر. وهناك، حيث انطلقت الفلوكة، تقف مثل تمثال أبدعه فنان ليجسد زوجة بحار، بلا حراك. تعيش حائرة بين الأمل والأسى، دون أن يقدر لها أن ترتاح للأمل أو أن تستسلم للأسى. ولم يعد لصوت رنين الهاتف نفس الوقع في أذنيها أبدًا.

لو أنك شاهدتها وهي تقف هناك، لذبل قلبك مثل تفاحة مسكينة. ولصليت لأجلها كي يظهر ذاك الشراع التنين في أي لحظة. وأن يخرج لها "بابا أفريكا" ليصيح: "أنا آسف... ذهبت بعيدًا... ولم أجد رياحًا تعود بي".

اعتصر "ريجينا" الحزن. بذلت "إنديا" قصارى جهدها لأجل أن ترعاها، ولكن الرعاية تحتاج إلى شخص لديه إرادة أن يعتني به أحد. لو كان بيدها، لآوت "ريجينا" بنفسها إلى كهف في جبال جرداء، فقد وصلت إلى درجة من الإنكار تجعل "القديس أنطونيوس" السائح نفسه يهز رأسه في شفقة من

حالها. لا تأكل سوى الفتات، وتلوذ بالصمت. تعود "إنديا" من المدرسة لتطهو وجبات لذيذة وفيرة، ولكن والدتها بالكاد تتذوق صحنها. ويكاد يكون للتوتر الذي ساد المنزل صوت مسموع، وربما انهار كل شيء في أي لحظة.

أنهكتهما تلك الحالة، فصارا يتربصان لبعضهما. وأحيانًا، ومن دون سبب حقيقي، تسترجع "ريجينا" ذكريات الطفولة وعندئذٍ، وللحظات، تشعر أنك ترى أمًا وابنتها يعيشان معًا رأسًا برأس.

***

بعد اختفاء زوج أمه، انتظر "جوي" أسبوعان قبل أن يغادر إلى أكاديمية الفنون؛ بعد أن حاول مواساة والدته.

- ربما أبحر عائدًا إلى حيث أتى. ربما هو الحنين إلى الوطن.

وكانت مقاومة "ريجينا" لتلك الفكرة مريرة. وبينما اعتبرها "جوي" امرأة هجرها زوجها، كان تعتبر نفسها أرملة من جديد. ولم تسمح لأي شخص أن يعزيها أو أن يغير رأيها؛ فلم يعد لدى "جوي" ما يدفعه للبقاء لفترة أطول. فحمل حقيبة والده العسكرية القديمة وقصد "إنجل"، الذي عثر على غرفة في حي للعمال في "انشيده". أخبره "إنجل" أن مكانه على الأريكة محفوظ. رحل "جوي" في أتوبيس 6.45 صباحًا، ورافقته إلى المحطة. لم يتحدث بالكثير. نحن في لحظة مهمة على مسار صداقتنا، الذي يوشك أن يصل إلى نهايته مع توديع "جوي" لي عبر النافذة الخلفية للأتوبيس، ومن ثم عودتي إلى المنزل وغصة في حلقي، وقد آمنت أنها صفحة جديدة طويت في حياتي.

27



عاد "جوي" إلى "لومارك" في نوفمبر. واتسعت ابتسامتي عندما انتبهت إلى أنه واقف بالخارج عند نافذتي. لوح لي، قبل أن يدخل ومعه لفحة من الهواء البارد. بدا لي أكبر حجمًا، وهو يقف في غرفتي مرتديًا معطفه العسكري الثقيل، وقد بلل المطر شعره. كنت سعيدًا مثل جرو وجد صاحبه. وانتبهت إلى أن سجائري قد نفدت، وأن من الممكن أن يقوم بلف بعض السجائر لي. علّق معطفه على الكرسي وجلس قبالتي.

كتبت على ورقة:

- ازيك؟

هز رأسه، قبل أن يقول لي:

- رجعت البيت في الوقت المناسب.

لم تكن أموره تسير على ما يرام، فوالدته و"إنديا" وصلا إلى حد الإنهاك. نظرت له وهو يلف لي السجائر، قبل أن يضعها في علبة المستردة الفارغة. شعره أطول، ولكن لم يكن هذا ما جعلني أشعر أن شيئا ما فيه قد تغير. حدقت فيه بتركيز أكبر وأنا أحاول أن أستوعبه، ولكنني عجزت عن التعرف على ذلك الشيء. ربما شعرت بذلك لأني لم أره منذ مدة.

- كنت في "أمستردام" لمدة أسبوعين.

لعق ورقة البفرة قبل أن يلف السيجارة.

- مع "بي جي".

عندئذٍ أدرت وجهي بعيدًا عنه. الغيرة واضحة عليّ مثل كسوف شمس.

- هي على علاقة بكاتب. بنت مخبولة.

حكى لي "جوي" ما جرى له خلال الأشهر القليلة التي مضت، بداية من صباح مغادرته في الأتوبيس.

تقدما لدرجة الزمالة في الفنون في "انشيده"، هو و"إنجل". وكانا سيقيمان معرضًا. ولكن في يوم من أيام أواخر الخريف، ذهب "جوي" ورفاقه في رحلة إلى متحف فان جوخ. ولكن الطابور كان طويلًا لدرجة أنهم كانوا بالكاد يتقدمون نحو مدخل المتحف. أمامهم أتوبيس محمل بالسياح اليابانيين، ومن خلفهم شلة من صيّع "جرونينجن"، لم يسكت صخبهم ولو لحظات. وتلفت "جوي" حوله. وشعر ببرودة في قدميه. وفجأة، قرر مفارقة الطابور من دون أن يتفوه بأي كلمة، وركض بخطوات مسرعة إلى ساحة المتحف.

هناك وقف، بعيدًا عن بلدته، ولا سبب يدفعه للعودة إليها. أخذ نفسًا عميقًا، وتطلع حوله، قبل أن يحسم قراره. سوف يبقى في "أمستردام" لفترة قبل أن يتخذ قراره الأخير.

انشغل في المساء في البحث عن مكان يقيم فيه. لم يكن يعرف في المدينة كلها إلا "بي جي إيلاندر". فاتصل بوالدة "بي جي"، فأعطته عنوان ابنتها في "تولسترات"، حيث تقيم فوق إحدى الكافيتيريات. الكافيتيريا اسمها "بابيلون"، حسبما تتذكر الوالدة.

استقل "جوي" الترام. شعر بسعادة غريبة؛ فلا أحد يعرف مكانه، وهو نفسه إلى أين ستمضي به حياته، فالخيارات عديدة، وكلها على صواب، حسبما يرى.

لم يجد "بي جي" هناك. فانتظرها "جوي" في كافيتيريا "بابيلون"، حيث جلس بجوار النافذة تحسبًا لرؤيتها. ليس أمامه الآن إلا أن يستمتع بهذا التعاطي القانوني للمخدرات. كان يتسلى في "لومارك" أحيانًا بتدخين بعض الجوينتات سريعًا، قبل أن يعبر الحدود إلى ألمانيا – ليأتي منها بقصص من كوكب آخر. كان يدخن بدافع التسلية، أما هنا فيبدو أن التدخين والمخدرات عمل جاد لا هزل فيه. وجد أن المتعاطين يتجنبون ضوء النهار قدر ما أمكنهم هذا، وينخرطون في تدخين السجائر ولف الجوينتات وضبط أدوات التعاطي قبل التدخين منها. عالم كامل يستحق المشاهدة. لو أنهم أتوا ببدائي من أدغاله وأدخلوه إلى هذا المكان، لظن أنه يتابع طقسًا دينيًّا يمارسونه بجدية تامة.

– هاي... مان... تضرب؟

رفع "جوي" رأسه. وجد أمامه شابًا يرتدي كاب أحمر، وأسفله شعر أسود مجعد، ويمد يده بجوينت في طول الترومبيت.

– متشكر... أنا في انتظار واحد صاحبي.

– فكها، مان، كل اللي هنا بيضربوا وبس.

– لأ... متشكر.

– طيب... خد الصغير ده.

تناول "جوي" الجوينت منه.

– اسمي "جورجي". هندي متحضر. أكيد سمعت الوصف ده قبل كده.

عاد الشاب للظهور أمام "جوي سبيدبوت" بعد أن انقشعت سحابة الدخان الكثيف التي ظهرت فجأة بينهما. فأجابه بصوت مختنق من الدخان:

- اسمي "جوي سبيدبوت".

- "جوي سبيبوت"! إنت مية مية، مان، مية مية!

وكما هو حال عشرات ألوف السائحين، انسطل "جوي سبيدبوت" في أول يوم له في "أمستردام". وكان الظلام قد حل في الخارج عندما غادر "جورجي الهندي المتحضر" المكان، وهو يصيح من خارج الكافيتيريا مخاطبًا "جوي" عبر نافذتها:

- جود لك، "جوي سبيدبوت"! جود لك، مان!

وسرعان ما استقل دراجته، وانطلق بها سريعًا. عرف "جوي" من الدراجة أنه عامل دليفري. وبقى "جوي" في مكانه وسط أحلام سعيدة تراوده بعد أول، وثاني، وثالث جوينت يدخنه. (يا ريتني أقدر ابني كل حاجة أفكر فيها... كنت هموت واشرب زبادي فراولة. عشان كده طلب واحد كبير. ونزل المشروب لمعدتي كأنه نهر جليد. أحلى زبادي فراولة شربته في حياتي).

لم يمكن له أن يتخيل ما سيؤول إليه مصيره لو أن السجائر لم تنفد من "بي جي" في ذلك المساء. فقد عادت إلى شقتها في حوالي الساعة السابعة، ثم اضطرت إلى النزول منها حتى من دون معطف، كي تبتاع علبة سجائر من الكافيتيريا. راقبها من في المكان وهي تتجه واثقة إلى الكاونتر الذي يزود زبائنه بعلب التبغ وورق البفرة والولاعات:

- واحدة مارلبورو، لو سمحت.

- تؤمري في أي وقت.

وعندما همت بالخروج، رأته قابعًا في سحابة من دخان التبغ عند النافذة. تكاد تتعرف عليه، جالسًا بعينين ناعستين إلى طاولة تحتشد فوقها زجاجات زبادي الفراولة الفارغة. اقتربت "بي جي" منه:

- هاي... "جوي". إنت "جوي"، مش كده؟

فتح عينيه قليلًا:

- هاي.

- أنا "بي جي". كنا في المدرسة سوا.

- أوه... هاي... بالتأكيد.

- بتعمل أيه هنا؟ مفيش حد من "لومارك"...

هكذا يمكنك أن تتخيل "جوي" دائمًا؛ فوق بساط سحري ومحط اهتمام كل الفتيات، ومثار كل الأسئلة.

أين يقيم؟ ليس لديه مكان؟ لا مانع في أن ينام في فراشها. فهي دائمًا ما تبيت في شقة صديقها، وسوف تعود إليه صباحًا. لا بد أنه جائع، وبدأت تتحدث عن شيء اسمه "فجع المخدرات"، فكل من يتعاطى الماريجوانا يصاب بحالة جوع شديدة. ولكن كان من الحكمة ألا يتناول "جوي" تلك الباستا التي أعدتها له. فما أن نزلت إلى معدته واختلطت بتلك الكمية من زبادي الفراولة، حتى اندفع إلى دورة المياه ليفرغها، ولتفوح رائحة كريهة في جميع أنحاء المكان.

- أوه... أنا آسف.

- إنت عملت في نفسك أيه بالضبط، "جوي"؟ شربت المخدرات بأكياسها؟

عيناه شديدتا الحمرة، وجسده لم يكن بهذا الوهن منذ يوم أن رآهم يضعون والده في قبره، فدسّ جسده الصغير في أمه من الحزن.

- لازم تنام كفاية، "جوي". مش عايز تغير ملابسك؟ لأ؟ أوكيه؟

- متشكر... جدًّا.

في الصباح التالي، وجدها تركت له رسالة:

ازيك يا ملك الضرب؟

راجعة على الظهر.

الفطار في الثلاجة... كل زي ما تحب.

(بي جي)

***

خُيل له أن الليلة الماضية دامت مئة عام. يتسلل ضوء بارد عبر فتحات في الستائر، عاد ليرقد في الفراش، مسندًا رأسه إلى ذراعه، ودخن سيجارة. لمح نباتات ميتة في أركان الغرفة. انشغل بالتحديق في الظلال الساقطة على السقف، الذي كان أعلى كثيرًا من المفروض. نظر إلى إفطاره في ضوء الثلاجة؛ نصف علبة جبن أبيض، قطعة من الجبن الفلمنك، ونصف لتر من الزبادي خالي الدسم.

عندما عادت "بي جي" بعد ساعات قليلة، كان جالسًا بلا حراك في مقعد عند النافذة، تطل على شرفات وحدائق معتمة لا ترى الشمس أبدًا. كان قد رتب الفراش بكل هندمة وعناية، وأطفأ المدفأة.

- واو... الجو بارد كالقبر هنا. فضلت قاعد في الضلمة كده؟ ومافطرتش؟ أوه، أنا آسفة... بأكون دايمًا متوترة وأنا راجعة من شقة "آرثر".

- "آرثر".

- أيوه. إنت أكيد متعرفهوش. "آرثر ميتز" كاتب. نصي التاني. أسلوبه بيتميز بالصراحة لدرجة الوقاحة.

- الوقاحة.

- "آرثر ميتز". ما سمعتش عنه؟ دي آخر رواياته.

دست كتابًا بين يدي "جوي". عنوان الرواية "موتى اللطيف". انشغلت "بي جي" عند الكاونتر في إعداد القهوة، وكانت ترمق "جوي" بين لحظة وأخرى. أردفت:

– هو كمان شاعر؟

تتحدث عنه في افتتان شديد. طالع في الغلاف الخلفي صورة لرجل وسيم تميز جبهته علامات تقدم في السن ظهرت قبل موعدها، وأسفل عينيه تلك السمات المميزة لمن اعتاد السهر والشرب.

– دايمًا بأكون عنده بالليل، لأنه بيحب يكون وحده في النهار. لازم يكون وحده وهو بيكتب. وفي الليل بيتصل بي عشان أروح له. "آرثر" بيحتاج الخلوة دي، لأنه حساس جدًا. بينزعج جدًّا من أي حاجة تفسد عليه روتينه. ولو تأخرت عليه عشر دقايق يقلق ويتصل.

– واو.

– كان نفسي أعرفك بيه، ولكن هو مش بيتعرف على شخص جديد بسهولة. تحس إنه بيخاف من الناس. وساعات بيكون رد فعله عدوانيًّا. لدرجة إنه بيتضايق لو لمسه حد، وأحيانًا بيتخض لو لمسته.

– هو... أوه؟

– أعتقد إنه بيعاني من حالة نفسية. ده حاول ينتحر ثلاث مرات. بس أنا اتعلمت منه حاجات كتير! حاجات مدهشة! وأنا معاه باحس إن العالم مختلف تمامًا، وبأكون في عالم تاني خالص، مكنتش أتصور إنه موجود أصلًا؟ فاهم قصدي؟ صعب إني أشرح لك.

– يعني هو أفضل من "يوبي كوكشنايدر"؟

عندئذ، ضحكت "بي جي" بشدة... لدرجة أن تناثرت القهوة على حواف القدحين اللذين تحملهما.

***

- إيه الأخبار هنا، "فرانكي"؟ إيه الجديد؟

سألني "جوي" بعد أن فرغ من حكايته.

شعرت بالسخط. اكتشفت أنه ليس لديَّ أي حكاية تستحق أن تروى. كانت أجواء البلدة هادئة من دونه، ومن دون "إنجل" و"بابا أفريكا"، وحتى من دون "كريستوف". كل من أعرفه رحل، ومن بقي لا يثير اهتمامي. وطبعًا كان "كوينسي هانسن" موجودًا؛ لن يتوه عن بالي ما بقيت حيًّا. يعمل في مصنع الأسفلت، ويقوم بأعمال إدارية تافهة. خسارة السنوات التي ضاعت في التعليم.

أما أنا، فما زلت أشتغل على الكباس، رغم انخفاض الإنتاج بسبب الأمطار.

- بجد؟ مفيش أي جديد؟

هززت رأسي، وكتبت له: "بابا أفريكا"؟

- موضوعه صعب. كل شيء ممكن. ونظريًّا ممكن يكون رجع مصر، ولكن...

لكن تعبيرات وجه "جوي" تعكس كل الصعوبات الهائلة التي يمكن أن تنطوي عليها رحلة كتلك.

- أمور كتير مستحيلة وحصلت. إنت رأيك إيه؟ تفتكر إنه ممكن يعمل كده؟ قصدي، انكم كنتم دايمًا مع بعض.

كتبت... "صعب".

- صعب لكن مش مستحيل! أنا رجعت للخريطة؛ فيه مسار ممكن يوصله للبحر. من القناة الجديدة إلى بحر الشمال، عبر مضايق "دوفر". ولو أبحر بمحاذاة الساحل، هيوصل ساحل فرنسا، وبعدها خليج "بيسكاي"، في شمال إسبانيا... يمكن؟

دس يده في علبة التبغ، واخرج سيجارة ملفوفة صغيرة عسلية اللون. كنت أتخيل ذلك المسار البحري الذي رسمه، ولكن الحدود الخارجية لأوروبا ملتبسة في عقلي.

- تخيل، ممكن يمر على البرتغال ومنها إلى جبل طارق!

إذا أمكن لـ"ثور هايردال" أن يعبر المحيط الأطلنطي فوق زورق من ورق البردي، فما الذي يمنع "بابا أفريكا" من أن يعود بحرًا إلى مصر فوق الفلوكة؟ هو بالتأكيد بحار بارع، ومع حسن حظ وظروف طقس مواتية... ما المانع؟

أومأت برأسي، برغم عدم اقتناعي.

- فكر في كل اللي مر عليه ورآه من وقت ما عبر جبل طارق... الجزائر، طرابلس، طبرق، وبعدها الإسكندرية، ومنها إلى داخل مصر. أكاد أتخيله.

كان "جوي" بحاجة إلى ذلك الاقتناع، فمن الصعب عليه أن يتقبل خسارة زوج أمه، تمامًا كما هو حال أمه. ولكن بينما اختارت هي تلك الرحلة الصباحية الحزينة، أقنع هو نفسه بتلك الرحلة الملحمية الأوديسية. فكر في الرحلة كلها وبتفاصيلها، حتى اقتنعت أنا بقدرته على أن يخوضها بنفسه لمجرد أن يثبت إمكانيتها. ورغم الاستحالة، فقد شعرت ببهجة النهايات السعيدة. فلو أن "جوي" قال ممكن، فمن الذي يجروء على أن يقول له "مش ممكن"؟ إنه رجل المستحيل. ولكن لو أن "بابا أفريكا" حاول بالفعل الإبحار عائدًا إلى بلاده، فإن هناك شيئًا واحدًا لم يذكره "جوي".

كتبت... "لماذا؟".

- نسيت أنها كانت مخبية الباسبور؟

عندئذٍ تذكرت السبب.

- غير إن فيه حاجات تانية. أنا فاكر مرة بعد شهر رمضان، قبل الكريسماس السنة اللي فاتت. يمكن موضوع ملوش علاقة، مش عارف، ولكن عمري ما نسيته. إنت عارف إن "بابا أفريكا" ما بياكلش لحم الخنزير، وكان معتقد تمامًا إن لو كل منه هيموت، أو على الأقل هيمرض مرضًا شديدًا. أكله حرام عليه. وفيه حاجات تانية زي كده؛ فمثلًا، لو كانت "إنديا" بنته من صلبه فكان هيبقى مضطر يختنها. وكان بيقول إن اليد الشمال يد الشيطان، علشان كده حرام تاكل بيها. كانوا بيتجادلوا في الموضوعات دي كتير، ولكنه ما كانش بيرد على أمي. هو هادي عمومًا. كان يقول لنا "راسها ناشفة"، وميفتحش الموضوع تاني بعدها. ورغم كده، أمي عملت له على العشا كرات اللحم من لحم ضاني ليلة الكريسماس. وتاني يوم – في يوم الكريسماس – سألته عن صحته. ولما استعجب من سؤالها، قالت له إنه لا تعب أو مرض، وإنه بصحة جيدة. سكتت لحظة قبل ما تقولها له في وشه: "إنت امبارح أكلت لحم خنزير. ما كنش لحم ضاني. شفت، ولا مت ولا مرضت! والله لم يعاقبك!". واستمرت تتكلم، وهو ساكت من شدة الدهشة والذهول.

كان يحكي لي وهو يلف لي السجائر، ويضعها في علبة المستردة، إلى جوار أخواتها.

- تخيل بقى اليوم عدى إزاي. "إنديا" اتضايقت من ماما، ولكن هو ولا اتكلم كلمة واحدة. والكريسماس باظ.

***

لم أدرك أن "جوي" قد عاد إلى "لومارك" ليبقى إلا في أواخر نوفمبر، عندما التحق بعمل؛ حمّال. يروح في السادسة من كل صباح إلى رصيف النهر، حيث تأتي عربة فان لتأخذه مع بقية العمال. تنطلق بهم عبر الطرق الخلفية إلى ألمانيا، حيث يعملون في مشروع بناء شقق سكنية ومناطق صناعية. لم يكن عبور العمال غير القانوني للحدود بالأمر المستغرب، فهو قائم منذ قرون، ومن

الناحيتين. فمن خلال شبكة معقدة من المقاولين ومقاولي الباطن، يتم إحضار العمال إلى ألمانيا، ولا يدفعون عنهم ضرائب أو معاشات. ويتسلم العمال أجورهم أسبوعيًّا، وهم وحظهم. فقد يسقط أحدهم من فوق ساقلة، أو تسقط على ساق آخر عارضة خشبية أو إسمنتية. شاهد "جوي" عاملًا يروح في غيبوبة بعد أن سقطت على رأسه كتلة خرسانية بعد ان أفلتها ونش. ذهب رفيقه ليشتكي، ولكنهم قالوا له أنها غلطة الرجل، *Man soll aufpassen an der Baustelle*، فهجم العامل على المقاول وكاد يخنقه بربطة عنقه. وأمور كثيرة من هذا القبيل.

وفي نهاية الأسبوع، يشرب العمال العائدون منقوع البطاطس وهم في العربة الفان، ويتناولون العشاء في مطاعم حقيرة، ويعودون إلى منازلهم ساخطين. وفي فترة الجليد توقف العمل، وكان هذا إيذانًا بانتهاء مشوار "جوي" في هذا المجال؛ ومع حلول العام الجديد، كان قد حصل على وظيفة في مصنع الأسفلت.

سائق بلدوزر.

***

والآن، أرسلت عائلة "راتزينجر" ابنها إلى مصنع الأسفلت، لتستمر على عهدها مع ذلك المصنع. وبالتالي قد تظن أنها قد رسخت مكانتها في البلدة، ولكن "لومارك" لا تبتسم لك بهذه البساطة، فأمور مثل هذه تتطلب مرور أجيال وأجيال. وحتى عند ذاك... ولكن المهم هو أن "جوي" قد عاد إلى قواعده؛ إلى حيث بنى طائرته، وصار هذه المرة يعمل لدى والد "كريستوف"، "إيجون ماندراج". كان الإنتاج متوقفًا بسبب ارتفاع المد، ولكن ملاحظ العمال "جراد هويسمان" علّم "جوي" ما يلزم أن يتعلمه. دروس في فنون البلدوزر. وجد أن "هويسمان" ينخرط أحيانًا في البكاء في ساعة الراحة. ولكن "جوي" لاحظ أن أحدًا من العمال الجالسين داخل الكانتين لا يندهش لما يرى؛ وعرف منهم يبكي

في كل يوم، منذ أن عرف أنه مصاب بسرطان الركبة. تفوح من الكانتين رائحة هي مزيج من عبق البرتقال والتبغ.

صار "جوي" الآن واحدًا من عمال الأوفرول البرتقالي، وعليه أن يرتدي الخوذة الصلبة. لم يخطر لي أبدًا أنه سيضطر في يوم من الأيام للعمل كي يكسب رزقه. مثله مثل بقية البشر. وعندما انحسر ماء النهر عاد للعمل؛ وأحيانًا ترافقه أمه، وهي في طريقها الخالد إلى النهر لتشهد لحظة عودة "بابا أفريكا" المستحيلة. يودعها عند بوابات المصنع، وفي يده عمود الغداء، وفي جيب سترته تفاحة أو برتقالة. يتجمع العمال في الكانتين لتوزيع المهام، ثم ينصرف كل إلى محل عمله. يصعد "جوي" إلى "اللايبير"، ويستقر في مقعده، قبل أن يدير المحرك. يزمجر المحرك، ويطلق الشكمان دخانه الأسود، ويبتهج "جوي" لأنه يسيطر على ذلك المحرك. ويصر على تشغيل التكييف على الساخن، والراديو على أقصى صوت. يقول لي إن الردايو صديق العمال.

أراضي المصنع ممتلئة بأكوام الرمل والحصى التي أحضرتها المقطورات. وحسب توجيهات التشغيل، فإن مهمة "جوي" هي أن يعمل على أن تكون حاويات الخلط ممتلئة دومًا. تلك القواديس الضخمة المقسمة التي تحمل بداخلها مكونات صنع الأسفلت. فيحرك البلدوزر متنقلًا بين تلك الكومات والقواديس، وكذلك أكوام الخامات المعدنية، التي عليها أن يكسرها إلى كتل ليحملها. ومن القواديس تنتقل الخامات فوق السيور إلى أوعية الخلط في ماكينة الأسفلت.

تحين ساعة الغداء في الثانية عشرة والنصف. لتدور الحوارات المعتادة بين العمال

– مالك؟

– أوه.. مفيش.

– شكلك سهرت الليل.

– لأ... مش المرة دي.

– طيب، مالك؟

– قلت لك مفيش.

28



هكذا حلّ الربيع. ولكنه لم ينسَ أن يجلب معه الرياح والعواصف الشرقية، عقابًا لمن ابتهج قبل الأوان. كانت أغصان أشجار المقابر تهوي مثل عصي الطبلة على ظهر بيتي. والشبورة تغطي النوافذ. قرأت في أكوام الصحف أن الطريق E981 ستتجاهل "لومارك" تمامًا. وذكرت نشرة البلدية أنه قد تم تشكيل لجنة للاعتراض على هذا القرار. فقد خشي الناس من أن تبقى القرية حبيسة وسط الدربين الرئيسين إلى ألمانيا؛ النهر من ناحية والطريق E981 من ناحية أخرى، وخاصة أنه ليس لـ"لومارك" طريق واصل يخصها. وهو أمر حيوي. فعندئذٍ ستكون الوسيلة للوصول إلى القرية هي الخروج من "فيسترفيلد" في طرق فرعية تمتد بطول سد النهر حتى "لومارك". إنها خطة شيطانية.

ظهرت لافتات على طول الطريق السريع وسط مراعي المزارعين الذين كانوا متعاطفين مع المعترضين. وجدت أن أكثرها شاعرية تلك التي تستغيث: "دعوا لومارك تتنفس". العبارة من بنات أفكار "هاري بوتيك"، رئيس لجنة سميت بنفس الاسم. قارن "بوتيك" بين هذا الحصار لـ"لومارك" واختناق الانسان؛ وكان لهذه الصورة المجازية تأثير فاق أي نقاش. "هاري بوتيك" أفضل من يكون لسان حال القضية، وتلك هي لحظته الفارقة. بقي على مدار عشرين عامًا رئيسًا للجمعية التاريخية المحلية، وبوسعه أن يخطب على نفس منوال تلك الكتب العتيقة التي أمضى وسطها ساعات لا تحصى ولا تعد، وجهدًا

جهيدًا. وكان مشروع الطريق الجديدة إيذانًا بتحول جذري في حياته، التي لم تشهد من قبل أي منعطف يستحق الذكر. هي فرصته كي يطرح القضية باسم الجمعية أمام اجتماع مجلس المدينة. قال لهم:

– لو تم إنشاء حاجز كاتم للصوت، على النحو المبين في الخطة أمامنا، فإلى أين المفر إن فاض النهر؟ سنصبح محاصرين كالفئران. لا مفر، وطريق السد مغمور بالمياه، ومنازلنا غارقة، والمهرب الوحيد مسدود بذلك الحاجز الصوتي.

سكت حتى تستقر كلماته في عقول أعضاء المجلس ومن يشهد الاجتماع من العموم. ثم أردف:

– سؤالي، سيدي الرئيس، هو: هل تخططون لتزويد كل منزل بقارب مطاطي؟

تعالت الضحكات في القاعة، بين ساخرة وخجولة. فبادر الرئيس:

– أرجو أن تلتزم بالحقائق التي بين يديك، سيد. "بوتيك".

أومأ "بوتيك" برأسه في خضوع، وإن كان من الواضح أنه يضمر شيئًا آخر.

– ولو قلتم إن المياه لن تصل إلى ذاك الارتفاع، فما الذي تعرفونه عن التغير المناخي العالمي؟ وعن الخلل البيئي الذي سببه الاحتباس الحراري؟ وعن ذوبان الجليد؟

في تلك اللحظة، أشار بحركة مسرحية إلى جدار القاعة، حيث يموج العالم خارجها بمآسي التغير المناخي.

– ألم يخطر ببالكم أن النهر قد وصل في هذا الصيف إلى أدنى مستوى له، وأن مياهه في السنوات الماضية كانت أعلى مما كانت عليه هذا الصيف؟ أنسيتم؟ إن السيد. "أبلسن"، وهو رجل ذو حيثية لديكم، ويبلغ من العمر ثلاثة وتسعين عامًا، لم يشهد مثل هذا من قبل في حياته. هناك قوى فاعلة لا نعرف عنها شيئًا ولا بمقدورنا التنبؤ بأفعالها، فعلينا أن نأخذ في حسباننا اليوم ما يبدو أنه سيناريو نهاية العالم في المستقبل البعيد.

كان مطلب اللجنة واضحًا وبسيطًا؛ يمكننا القبول بالطريق السريعة من باب المصلحة العامة والرضا بالأمر الواقع، ولكننا لن نرضى بعدم وجود طريق يربط "لومارك" بالعالم من حولها. لن ترضى "لومارك" بعدم تزويدها برئة من الأسفلت تنقذها من ذلك الاختناق.

ولما أدرك "هاري بوتيك" أن عليه ألا ينتظر الكثير من أعضاء المجلس خاملي العقول، قرر أن ينفذ هو ومؤيديه خطوة أشد راديكالية. غادروا في ظهيرة الأربعاء في عربة فإن استأجروها من "فان باريدون رنتالز" قاصدين البرلمان في "لاهاي". وقد صورة مسبقة للمشهد الاحتجاجي؛ مظاهرة تتقدمها الطبول والمزامير، ولكن الواقع صدمهم بساحة خاوية في "بيننهوف" تحت سماء ملبدة بالغيوم، وليس هناك من كائن يسمعهم. ورغم ذلك جربوا الهتافات التي كانوا قد تدربوا عليها في الطريق، ولكنها خرجت من أفواههم ميتة، وكأنها شتائم يتلفظون بها بلغة لن يفهمها أحد.

مر عليهم رجل يحمل حقيبة ومظلة، وسألهم في أدب عن سبب تجمعهم. فهمست له السيدة. "هاربينو"، أمينة المكتبة:

- إنها مظاهرة احتجاجية.

شدّ "هاري بوتيك" قامته عن آخرها، وبدأ يردد البيان، ولكنه سرعان ما وجد مقاطعة.

- ذلك اعتراض على الطريق السريعة؟ ولكنكم في المكان الخطأ، فعليكم أن تكونوا عند وزارة المواصلات. في "بليسمانفج". هي على مسافة بعيدة من هنا.

هكذا اتجهت المجموعة المرهقة إلى المكان الجديد، والذي كان بعيدًا بالفعل. توقفوا في استراحة للقهوة والساندويتشات، ووجدوا أن السماء ازدادت عتمة. ورغبت السيدة "هاربينو" وسيدتين أخريين في العودة غلى القرية، لأن لديهم أطفالًا... وكانت هذه هي نهاية قصة الزحف إلى "لاهاي".

التقطت الصورة التي ظهرت في جريدة "لومارك ويكلي" في كادر بعيد، لدرجة أن أحدًا لم يتبين محتوى تلك اللافتات، وبدا جمع المتظاهرين ضئيلًا إلى حد مثير للشفقة وسط تلك الساحة مترامية الأطراف.

احتفظت بتلك الصورة. وجدتها نموذجًا لحقيقة أننا لا نمثل في هذا البلد إلا نكتة سريعة سخيفة...

... لم ولن يسمعها أحد سوانا.



29



أتانا معرض الربيع بشيء جديد "ماوس تاون". كان مبهرًا، وذلك لأنه كان ذا طابع عتيق. تمر عبر ستار أسود لتجد نفسك في مكان حار غير مريح تفوح منه رائحة بول الفئران ممزوجة برائحة نشارة الخشب. أمامك نموذج كبير لقلعة خشبية، وهي على مستوى نظر الأطفال والمعاقين مثلي. نموذج القلعة من طابقين، وهي مضاءة من الداخل بعدد من المصابيح الصغيرة غير الظاهرة لنا. وتزين أنوار الكريسماس الشوارع من حولها، وتتناثر نشارة خشب صفراء ناصعة على أرضها. الحصن بأكمله على مساحة عشرة أمتار مربعة، وهو محاط بخندق مائي، مياهه معكرة تذكرني بمياه الحوض الذي تشرب منه الخنازير التي يربيها "ديرك" – والتي توالى نفوقها واحدًا تلو الآخر في حالات موت غامضة ملتبسة.

عنصر الحركة في "ماوس تاون" – فهو كعامل جذب، كان رائعًا، وخصوصًا أنه كان مواكب للتطور حولنا ففيه التحليق والدوران والأرجحة؛ لذلك فهو أعجوبة صغيرة، فلا عجب إذن من أن لا يفارق "جوي" المكان تقريبًا – المكان الذي يحوي بضع مئات من الفئران. وشاهد الزوار تلك القوارض وهي تتحرك مرعوبة بسرعة رهيبة. تتبول، وتتغوط، وتمارس الجنس في ما نسميه نحن البشر الأماكن العامة، وهي المفارقة التي تبعث على الكثير من الضحك. وكان هناك كوبري متحرك يؤدي إلى جزيرة في الخندق

المائي تمثل، جنبًا إلى جنب مع الجدار الخلفي، حدود عالم الفئران هذا. المدينة مستطيلة الشكل، ويمكنك أن تدور حولها من ثلاث جهات، وظهرها حاجز من خشب الأبلكاش اتخذ شكلًا بسيطًا لسماء زرقاء بها سحب وشمس. المدينة نفسها مضاءة بشكل جيد؛ والمنطقة المحيطة بها، حيث يقف الناس يتأملون عالم الفئران، مظلمة كمنزل مسكون.

أنا بالطبع قارنت "ماوس تاون" بـ"لومارك"؛ ذلك العش النتن الذي حوصرنا فيه، بين النهر من ناحية والحاجز كاتم الصوت مستقبلًا من ناحية أخرى. ولكن لجنة "هاري بوتيك" فشلت في نيل الاقتناع بحجتها حتى مع هذا التشبيه المجازي البليغ.

ذات يوم، رأيت "جوي" مع "بي جي" في المعرض. كانوا يقفون عند نموذج بيت العنكبوت، وظهريهما لي. كانت "بي جي" تلوح لشخص جالس بعيدًا في واحدة من تلك المقاعد، بينما يحصي "جوي" النقود في محفظته. يا ربي، مر وقت طويل منذ آخر مرة رأيت فيها "بي جي". هل صارت أنحف؟ حدقت في الشعر الأشقر الذهبي، ووجدتني أتنهد مثل كلب حزين.

صار "جوي" و"بي جي" صديقين منذ أيام أن رحل "جوي" إلى أمستردام، ويلتقيان كلما كانت هي في "لومارك". وهي مرات قليلة. كانت آخر مرة في الكريسماس، ولكني لم أرها وقتذاك لأنني لم أرغب في الذهاب إلى قداس منتصف الليل. ذلك كان منذ تسعة أشهر... أشهر توقف بي الزمن خلالها وركبت فيه هي آلة الزمن.

تبعتهما بعربتي في اتجاه "ماوس تاون". الضوضاء القادمة من ساحة المراجيح والحلزونات تضايق أذنيّ. وكنت أجد صعوبة في التحرك على العشب المسطح، فربما كان المعرض هو المرة الوحيدة التي فارقت فيها الإسفلت والطرق المعبدة بالحجارة. وودت ألا ينتبه إلي أحد. وفجأة، غضبت من حقيقة أني كسيح غير قادر على أن أقف على قدمين لأرى وجهها؛ وها أنا ذا... كائن

كسيح أبكم. أجبرت نفسي على ألا تستغرق في التفكير فيما آل إليه حالي... ومنعت عني تخيل نفسي وأنا أقف قبالتها وأنظر في عينيها، وأقول لها كلمات تجعلها تضحك، كما يستطيع "جوي"، وبنفس الطريقة التي يضحكها بها ذاك الكاتب الأحمق. (صادفت اسمه عدة مرات في الصحف منذ أن سمعت عنه، وكلما رأيته أسخر منه وأنا أكور الجريدة. عليه أن يعرف أن هناك في مكان ما شخص يمقته). تتضخم إعاقتي في حضور "بي جي"، وأتضاءل واختفي. ولم يكن لي من خلاص.

في واحدة من أصدق المدونات في مذكراتي، لأنها من النوع الذي يجب أن يكون كذلك، هذا لأنه عن المشاعر والأحاسيس (فالدموع لا تكذب، أو هكذا اعتقد السذج!)، تحدثت عن الورطة السخيفة التي وجدت نفسي فيها.

... لك أن تحلم، ولكن لا تضحك على نفسك بكثير من الآمال. أنا أحلم بلون حبي لها، "بي جي"؛ إنه برتقالي بدرجة لون الشمس المشرقة. ولكني عاجز عن أن أبوح لها بذلك. وتلك هي مصيبتي. عندما أفكر في احتمال أن يتماس المسارين؛ حياتي وحياتها، أجد تلك الاستحالة، فأنا بالنسبة لها أغرب من صيني عاش عمره في "ووهان". وأحيانًا يغالبني البكاء، ولكن كرامتي تحولني إلى حجر أصم. تدربت على هذا حتى اعتدته. فكما قال "موساشي"... لا تتوقف عن التدريب ما حييت. إذن: توقف عن التفكير في "بي جي". أكبت مشاعرك. تدرب على أن تمحوها من داخلك. وتدرب على هذا التدريب. حتى تستحيل حجرًا. وذلك هو سبيلك الوحيد.

لجأت إلى ظلمة "ماوس تاون" حتى أستغرق في أفكاري المتناثرة، وشغلت بالي بالكيفية التي نقلوا بها مثل هذا المجسم من بلدة إلى أخرى، ووجهت عقلي ليبحث عن حل لمشكلة الإنفجار السكاني في عالم الفئران المصغر هذا. فهي تتوالد بإيقاع متسارع غريب، ولن يمر وقت طويل قبل أن تصل إلى النقطة الحرجة، وعندئذ ستجدها تشكل فرقًا وجماعات، تتقاتل على ثروات هذا العالم، لتسيل بحور من دماء و...

ربما يلجأ صاحب النموذج إلى التخلص منها بمبيد أو سم. وربما اعتادت الفئران الكبيرة أن تأكل الصغيرة، وهي ظاهرة شاهدتها ذات مرة بين خنازير "ديرك"، الذي دمر وكرها بالكامل ذات ليلة في نوبة غضب غير مفهومة. ولكننا عثرنا على صغار الخنازير في الصباح التالي وقد انشطرت أجسادها إلى شطرين. وبث هذا في قلوب الخنازير رعبًا لا يمكنك أن تتخيل قدره. ولم يمر وقت طويل قبل أن تلقى الخنازير الكبيرة ذات المصير. ولم يُسق الفاعل إلى العدالة أبدًا.

قبعت في الظلام عند الجدار الخلفي، لأنني وجدت راحة غريبة في مراقبة الفئران ومرقابة من يراقبونها في الآن نفسه. كانوا مصممين على وجود مصدر ضوء قوي وسط الظلام حتى أنهم لم يروني. أحاول جاهدًا التسلل إلى عقولهم لمعرفة ما يدور فيها.

أخمن من الضحكات المكبوتة ما تفعله الفئران، ومن حين لآخر تشتكي سيدات من "تلك الرائحة"، إنها مثل الأمونيا، بينما الأطفال منتشون من مشاهدة هذا التلاطم بين مئات من الحيوانات الصغيرة القذرة.

انفتح الستار السود، وتسلل شيء من النور، ورأيت لمعة شعر "بي جي". ومن خلفها برز "جوي". صاحت "بي جي" في اشمئزاز:

- أوه... الريحة!

عاد الستار إلى مكانه، واقتربت "بي جي" من "ماوس تاون" بحماسة طفلة.

- شوف! حبوبة قوي! شوف الفار أبو رجل مكسورة ده.

أسندت ذراعها فوق الخندق المائي وحاولت لمس بعض الفئران. ولكن إصبعها أرعب عشرات منها.

ممنوع تمامًا

لمس الفئران!!!!!

لافتة كبيرة تنبه على ذلك. لذلك صاح "جوي" يؤنبها:

- "بيكولين جين!".

وددت لو أمكنني كتم أنفاسي، فكلما طال بقائي في مكاني زاد ألمي لو أنهما انتبها إلى وجودي. وارتفعت حدة نبضات قلبي. أدركت منذ زمن أن تعبيرات وجه من يعرفونني تتغير لحظة أن ينتبها إلى وجودي في المكان ويظنون أني كنت أسمع ما يقولون. فقد اتسعت المسافة بين وبينهم؛ وبدلًا من تزيد بيننا الحميمية يتنامى الاغتراب.

لن تتوقف "بي جي" عن إغاظة الفئران. مالت أكثر فوق الخندق وحاولت أن تفصل فأرًا بعينه عن بقية القطيع. ونجحت في أن تجبره على صعود الجسر، ثم سدت طريق العودة إلى بلدة الفئران بيمينها، وباعدت بين أصابعها قليلًا لتصنع سورًا. فلم يكن أمام الفأر إلا عبور الجسر إلى الجزيرة وسط الخندق.

- ياللا، "روبنسون"، قربت توصل.

عبر الجسر مذعورًا نحو الجزيرة؛ ثم رفعت "بي جي" الجسر لتعزله تمامًا عن بقية الفئران.

- إنتي رخمة جدًا.

- لأ طبعًا، أنا عارفة إن "روبنسون" بيحب أن يكون وحده.

وجد "جوي" نفسه يضحك رغمًا عنه، ثم تبعها نحو الستار عند الجهة الأخرى من القاعة، حيث لافتة الخروج بضوئها الأخضر. بينما تودع "بي جي" فأرها:

- باي... "روبنسون". خلي بالك من نفسك!

خرجا عبر الستار، و"بي جي" تضحك على تعليق هامس من "جوي"، وعدت وحدي من جديد. أخذت أنفاسًا عميقة متتالية ونظرت إلى الفأر المنفي، الذي يوشك أن يصاب بانهيار عصبي. كان يتشمم محيطه الجديد. لحظتها... اكتشفت أن للفئران أعينًا خرزية صغيرة... جميلة.

30



أنجزت معدل إنتاجي اليومي من كتل الورق الجاف المضغوط، رغم أننا الآن في أوائل الربيع ويكاد موسم التدفئة ينتهي.

– تنتج وكأن الناس ينتظرونها جائعين ليتناولوها بنهم على الأفطار.

هكذا كان بابا يعلق وهو يحمل الإنتاجية الجديدة في الشاحنة.

صار بوسع الناس الآن التنزه خارج منازلهم من دون أن تجمد الرياح أطرافهم أو تغسلهم الأمطار؛ وسادت الخضرة أنحاء البلدة. ووجدت أن طول نباتات الحصر ازداد بضعة سنتيمترات كذلك. والأشجار، التي كانت جافة يابسة في الشتاء، أضحت خضراء غناء، واشجار الجوز تزينها أزهارها مثل شموع شاحبة. وينتابك أحيانًا شعور جذل لا علاقة له بأي خبر سار أو أي أمور تجري. "الدنيا ربيع"، هكذا يقولون، وهكذا لا أجد تفسير لإحساسي هذا أفضل من تلك المقولة.

كنت في الحديقة، أنتظر جفاف كتل الجرائد. الساعة الحادية عشرة، وماما نادتني بالفعل لتناول القهوة، لحظة أن ظهر "جوي" فجأة عند بوابة دخول الدراجة. بادرني:

– ازيك. يوم العمال المجيد.

هو الأول من مايو بالفعل، وأعرف أن "جوي" مهووس بأمر ما: فأنا أعرفه لمدة تكفي لأن أحدس هذا ما إن أراه. يداه في جيبيه، ويتطلع في أنحاء ساحة الخردة، التي بدأت أفكر جديًا في تحويلها إلى مقر لشركتي: "ف. هيرمانز وابنه"، وهذا الابن سيكون بالطبع نتيجة زواجي الرائع من الآنسة "إيلاندر". رد "جوي" على نفسه:

- طبعًا... النهارده يوم حظي.

رفع سلم الألمونيوم من على الخطاف خلف البيت، وسألني عن شاكوش بكماشة. ثم بدأ يطرق على حدوة الحصان المعلقة فوق باب بيتي. جذب الصوت ماما التي اقتربت من النافذة، وهي تلوح لي متسائلة عما يفعله. فهززت كتفي في حيرة. وانفتح باب المنزل. سألته ماما:

- صباح الخير، "جوي"! بتعمل إيه؟

التفت إليها من مكانه فوق السلم:

- مسز "هيرمانز"، صباح الخير. بأقلب الحدوة. هي بتجيب حظ سيئ لما تعلقيها مقلوبة. وأنا باحب أدور على المتاعب، لو فاهمة قصدي.

وبطرقتين أخرتين، اهتزت لهما أفاريز النوافذ، كانت الحدوة قد عادت إلى مكانها، بحيث يشير طرفاها لأعلى. وبدأ "وينزداي" يصيح ويتقافز في قفصه متوترًا. كنت قد أهملته في الأشهر الخيرة، حتى وعدت نفسي أن أضع حدًا لهذا التجاهل. كانت أمي تصيح:

- بتتكلم جد؟! تقصد أن الولد المسكين عاش السنين دي كلها في الـ...

أحدثت صوتًا كالهسيس حتى تسكت. فوقفت عند الباب وهي تعتصر يديها وكأنها بذلك تمنع نفسها من الكلام؛ إنها "ماري هيرمانز"، التي يطاردها إحساس بالذنب ممزوج بحب الأم. قال لها "جوي" وهو يعيد السلم إلى مكانه:

- ماتخافيش. النهاردة يوم حظ في كل الأحوال، مسز "هيرمانز".

أخرج علبة المارلبورو. بدأ يدخن السجائر من ماركات محترمة منذ أن عمل في مصنع الأسفلت؛ وخصوصًا أن من الصعب عليه أن يلف سجائر وهو داخل المصنع.

- سيجارة؟

طبعًا. وعرفت من تعبير وجهه أنه يشعر برضا. تلك النظرة في عينيه تحمل وعدًا وأملًا، وبشرى تغيير.

ولكني انتظرته أن يتكلم. بقينا لبرهة من الوقت نجلس ساكتين قبالة بعضنا البعض في صباح صافٍ في أول أيام مايو، نزفر حلقات الدخان في الهواء، فأود أن ألعقها وهي في الهواء من فرط حلاوة شكلها. علّق الجيران البطاطين فوق النوافذ استفادةً من الشمس. وكان "جوي" يتأمل حركة كتل الورق وهي تجف داخل الماكينة. وفجأة سألني:

- كم كتلة أنتجت؟ ألفًا؟ ألفين؟

أومأت برأسي... ألفًا... ألفين... كيف لي أن أعرف تحديدًا؟

- وناوي تنتج كم كتلة في النهاية؟ ألف كمان؟

رفعت أمامه خمس أصابع.

- خمسة آلاف! أكيد بتهزر! يا ربي، "فرانكي"، إنت هتفضل تشتغل الشغلانة دي لبقية حياتك؟

أومأت أن نعم. رسالتي في الحياة هي تحويل الورق إلى وقود. لم يصل عقلي إلى مهمة أفضل. دفن "جوي" عقب السيجارة في الأرض بإبهامه، فتركت بصمتها في الأرض الخضراء.

– عارف. أنا ماصدقش ده ولو لحظة. "فرانكي". شغلي على البولدوزر طول الشهور اللي فاتت إداني وقت طويل مع نفسي وكنت بأسرح مع أفكاري، ودلوقتي هقولك ليه أنا اعتبرت النهاردة يوم سعدنا أنا وأنت. أنا شايف إن ثروتك في دراعك. وبدرجة إنت نفسك مش ممكن تتخيلها. وأنا عرفت الطريقة اللي ممكن نستفيد بيها من دراعك علشان نوصل لأهم حاجتين البشر كلها بتطمح لها: الفلوس والبرستيج. أنا شايف إنك، "فرانك هيرمانز"، هتكون مصارع دراع محترفًا. لاعب ريست يعني.

كانت سعادة وجذل "جوي" تشع في أرجاء المكان، حتى وصلت إلى حديقة الجيران.

– الصديق الحقيقي هو اللي يشوف في صديقه الحاجات اللي هو نفسه مش واخد باله منها.

ولكني تضايقت، وتناولت جريدة من الكومة وقلمًا صغيرًا وكتبت له... "تقصد إيه بلاعب ريست؟".

– لاعب ريست. اتنين مصارعين بيقعدوا قصاد بعض وقدامهم ترابيزة صغيرة، وبيسندوا عليها ويحاول كل واحد يغلب التاني بدراعه. وانت موهوب بالفطرة! وكأنك كنت في معسكر تدريب بقى لك عشر سنين لحد دلوقتي، بتحرك عربيتك طول الوقت، وبتعصر كل أكوام الورق دي كل يوم، ودلوقتي لازم نستفيد من التدريب ده. فاكر يوم ما كنا في المخزن وطلبت منك تلوي القضبان؟ لما كنت في "ألمانيا" شفت العمال اللي شغلتهم يلووا الحديد، وحوش حقيقيين، ورغم كده أنا عارف إنهم ميقدروش يعملوا نص اللي انت بتعمله! محدش هيقدر يغلبك، "فرانكي"، ولازم نخطي الخطوة الأولى. اللعبة دي لها بطولات في كل أوروبا. وأنا ها أكون مدير أعمالك. وهيكون لي نسبة ولك نسبة من أي فلوس نكسبها، وبالمرة هنمتع نفسنا.

كان يتأمل ذراعي في افتتان، كما لو أنه ليس متصلًا بهذا الجسد الكسيح، الذي هو أنا، مما جعلني – وياللغرابة – أغار من ذراعي. وهذه خطته؛ سوف

أتبع أولا نظاما غذائيا متوازنا يعتمد على البروتين والكربوهيدرات والدهون. وفي نفس الوقت أبدأ برنامجًا تدريبًا يوميًّا على أساليب مصارعة الذراع، معتمدًا على المعلومات التي يأتي بها من شبكة الإنترنت. سيكون مدربي. وسوف نمضي الصيف كله في الدراسة والتدريب، وأول بطولة في مدينة "لييج" في أكتوبر. قيمة الجائزة الكبرى سبعة آلاف. والمركز الثاني خمسة آلاف، والثالث يحصل على ثلاثة. علّق "جوي" في رضا:

- مدينة أغنياء.

كان قد وضع بالفعل جدول بطولات سيأخذنا في رحلة إلى جميع أنحاء أوروبا. وهذه اللعبة ذات شعبية كبيرة في دول أوروبا الشرقية. مصارعان أمامهما طاولة، وذراع في ذراع، إلى أن ينهار أحدهما. قال لي مدربي الذي نصّب نفسه في هذا المنصب "غصبًا واقتدار":

- خلي بالك. اللعبة دي لها عدد كبير من الأساليب والتكتيك... بصورة تفوق ما تتخيل.

كانت الأشهر الستة الأولى من الموسم بمثابة "تسخين"، بطولة هنا وبطولة هناك، حتى أعرف حقيقة مستواي بين محترفي اللعبة. ولأن "جوي" كان متفائلًا بلا سبب، أخبرني أننا سنشارك في بطولة العالم في "بوزنان"، "بولندا"، في شهر مايو من العام التالي.

- نقطة ضعفك هي الوزن؛ والوزن في اللعبة دي زي كعب أخيل. نقطة ضعف مميتة. لازم نركز على الكتف والصدر والذراع. الترابيزوم، والباي، والتراي، والساعد، وعضلة الصدر، لازم يكون بينها هارموني، وساعتها محدش هيقدر يقف قدامك. أنا شايف إن...

أسكته بإشارة من يدي. قال في استسلام:

- طيب... قول.

أمسكت بقلم وورقة لأكتب حرفين... **لا**.

عض "جوي" على شفتيه، وكأنه متورط في حركة على رقعة شطرنج.

- لأ؟

هززت رأسي مؤكدًا.

- طيب ليه... طيب فكر... ليه ترفض وبسرعة كده؟

"اللعبة دي مش بتاعتي".

بعد دقائق، مضت و"جوي" يحاول بشتى الطرق إقناعي بجدوى ومزايا خطته، كنت قد مللت الاستماع له.

- "اتفضل امشي".

***

أرجو أن تنتبه إلى حقيقة ما يحدث عندما يأتيك شخص في صباح يوم جميل ليعرض عليك أن يتسع بنطاق عالمك الذي تعيش فيه عشرة آلاف ضعف، من الطبيعي أن أصاب بالذعر. "جوي" أهداني تحدٍ. وأنا، هذا الكيان المسكين، الذي اعتبرت نفسي غير أهل لأي صراع، الذي أخرج نفسه من الحلبة، ليكون مجرد مراقب ومعلق، صار مطلوبًا مني أن أتدرب وأتصارع بذراعي. سينظر الجمهور لي، ويحكم علي، وإما أن يتعاطف معي أو أكون هدفًا لعبثه. "جوي" يعرض علي أن آخذ مكانًا في هذا العالم، وأتمتع بحرية حركة لم أكن لأستوعبها. كان الأمر مخيفًا بالنسبة لي. لذلك رفضته. ولم أرفض فحسب، بل طردته لأغلق الموضوع تمامًا. لا بد أن يبقى كل شيء على حاله. فأنا مرتاح لهذا الحال. ولا بأس في هذا الحال. وحتى لو كان فيه بأس، فربما كان القادم أفضل. فجأة، وجدت نفسي أدافع باستماتة عن وجودي في الظل، وعن عالم انحصر في عيناي بين بيت هزيل وحديقة تعسة وماكينة كبس. عالم مساحته بضع مئات من

الأمتار المربعة. وأي شخص سيفكر لو مجرد تفكير في إخراجي منه سيلقى مني ما يستحقه.

راقبت "جوي" وهو يرحل كسير النفس عبر الحديقة. كله حيرة من إصراري على المضي في درب مآله الخزي، بدلًا من أنهل من نبع المغامرة. ولما عرفت أن اليأس قد تملكه بهذه السرعة... اعتراني إحساس غريب...

... امتزج في الارتياح بخيبة الأمل.



31



انشغلت بعجزي. وبررت ذلك لنفسي بأنها محاولة للتناغم مع كل ما هو حولي ومن هم حولي. لا يمكنك أن تسميه بالإحساس السعيد، فالسعادة أجمل من هذا بكثير؛ هو إحساس يغيب عنه أي شعور بالقرف والرغبة في الموت.

طار "وينزداي" من القفص بعد يومين من حواري مع "جوي" في الحديقة. أخرجته من قفصه، ولكنه لأول مرة يطير فلا يعود. قالت لي ماما إن السبب هو أننا في الربيع، وأن هذه هي الطبيعة، ولكني كنت كسير القلب نوعًا ما. وكلما سمعت غرابًا ظننت أنه هو، ولكن القفص بقي فارغًا.

بدا لي أن "جوي" قد انصرف عن فكرة مصارعة الريست، أو هو على الأقل توقف عن الكلام في هذا الموضوع. وشغل نفسه بشراء سيارة، وكانت أول سيارة يشتريها: سوداء طويلة، كانت منذ سنوات تنقل الموتى لصالح الحانوتي "جريفيون". سبق لها أن أقلت جدة "كريستوف" إلى حيث مثواها الأخير. إنها بالفعل سيارة تليق بجوي، موديل "أولدزموبيل كتلاس كروزر"، ولها هيكل مستطيل مميز بحوافه المستقيمة الحادة. احتاجت إلى بعض الشغل، ولكنها كانت في حالة جيدة وخاصة أنها لم تقطع الكثير من المسافات الطويلة. ركب فيها "جوي" نظام استيريو هائل، فصرت تسمع السيارة من قبل حتى أن تظهر أمامك. علّقت ماما عليها قائلة:

- يقشعر بدني كلما رأيتها. وكأن الموت يحضر عند بابك. كنت أعرف كل شخص انتقل إلى العالم الآخر محمولًا فيها. ألم يكن من الأفضل أن يبيعها "جريفيون" خارج البلدة؟ رأفة بنا؟

قام "جوي" بفك الكرسي المجاور للسائق حتى يتسنى لي الخروج معه في نزهة بالسيارة؛ فقد صار هناك مجال لي ولعربتي داخلها. تجولنا بها عند السد، ودخلنا في الطريق السريعة، وتوقفنا لتناول الآيس كريم في الاستراحة، مثل أي مسافرين "دقة قديمة". على الأقل هو الذي تناول الآيس كريم، أما أنا فطلبت بيرة مع شاليمو، فأنت بالتأكيد تعرف نكتة مريض التشنجات الذي حاول أن يتناول آيس كريم. تأملنا السيارات المارة على الطريق، وانعكاس الشمس التي تتأهب للغروب على النوافذ. في ساحة اللعب الصغيرة رأينا أبًا ينتظر هبوط ابنته من فوق الزحليقة.

- مرة كمان!... مرة كمان!

كانت الصغيرة تصيح في كل مرة تهبط فيها للأسفل، وتظل تلح وتصر حتى تسيل دموعها.

***

مر عام على رحيل "إنجل" و"كريستوف" عن "لومارك"، بينما استقر "جوي" بعد عودته في عمله في مصنع الأسفلت. ورضي بحاله. أو يبدو عليه ذلك. ما أقصده هو كيف يمكن أن يسعى إلى أن يكون شيئًا مهمًا بينما هو بالفعل شيء مهم: "جوي"؛ ذلك المنتج الخيالي ثلاثي الأبعاد. وكم أنا ممتن لعودته.

ولكنهما عادا، واحدًا تلو الآخر، مع حلول يونيو. حضر "إنجل"، ثم "كريستوف"، ولحقت بهما "بي جي". طالت فترات ابتعادي عن بيتي في كل يوم، تمامًا كما كان حال "وينزداي" ايام كنت أسمح له أن يطير، حتى يوم طار ولم يعد.

عرفنا أن "إنجل" نجح في عامه الأول بسهولة؛ اعتبروه موهبة استثنائية ونال منحة دراسية في "إيكول دي بو آرت" في باريس بدايةً من الفصل الدراسي الثاني من العام المقبل. ورغم أن خبرًا كهذا يعطي أي إنسان الحق في التباهي والتفاخر، فإنه كان يحكي عنه بكل بساطة ولا مبالاة، مما جعلني أشعر بالحسد تجاهه. أجد نفس هذا الطبع الرائق في "جوي" كذلك. أما أنا و"كريستوف" فمختلفان؛ على أعصابنا دومًا، ونترقب، ونتشاءم، ونتفاءل ونخشى تصاريف القدر.

صار إجتماعنا عند مرسى العبارة موضة قديمة منذ اختفاء "بابا أفريكا". ومكثنا الصيف بطوله معًا، وملتقانا في سيارة "جوي"؛ ونتوجه في بدايات كل مساء إلى "فاندرز"، فأشرب وأنا أستمع إلى حكاياتهم عن عام مضى. التحق "كريستوف" ببيت الشباب، وعرفّنا من خلالها على عالم جديد. ففي ذلك العالم تسود قوانين أقرب ما تكون إلى القوانين العسكرية، وعلى الكل الالتزام بها، حتى ولو كانت الحياة في الدار تسودها الفوضوية الشبابية والعبث والعربدة، وعلى كل وافد جديد أن يبدي فروض الولاء والطاعة لها، وكذلك أن يتعلم المصطلحات والمسميات الدارجة بين المقيمين في الدار. وهو يرى أن السلطوية القاسية التي يفرضها القدماء على الجدد هناك، تنتهي دائمًا "بصداقات تدوم العمر كله". وهو فخور لكونه قد تحمل منهم أصناف الإهانة بأنواعها. ولم يبد على "كريستوف" أي غضب وهو يحكي عما كانوا يفعلونه به؛ بل أظن أنه متشوق لقدوم العام الجديد، حتى يمارس على الجديد نفس الهيمنة التي مورست عليه.

حدق "إنجل" في صاحبنا بشيء من الرعب:

- تقصد أنهم كانوا بيقفوا بأرجلهم عليك؟

- مش كده بالضبط... الموضوع كان أقرب للهزار منه للجد.

في تلك اللحظة، سكت الجميع. فبادر "كريستوف" بالدفاع عن تصرفات رفاقه:

- الكل كان بيعمل كده. والجداد لازم يستحملوا. الوضع بقى أفضل بعد الكريسماس. وبيبقى فيه جانب كوميدي، خصوصًا لما بتكون حفلة.

وتنهد قبل أن يردف:

- صعب أشرح لكم حاجة من غير ما تكونوا حضرتوها بنفسكم.

واقترح "جوي" أن ما يحدث في بيت الشباب هذا ما هو إلا إرساء لقواعد، وترسيخ فكرة الجماعة التي لا يعلم عنها أحد شيئًا إلا أعضاؤها. وجد هذا الاقتراح هوى في نفس "كريستوف"، فأومأ برأسه سريعًا، وممتنًا. يبدو أن "جوي" منقذه على الدوام من أي ورطة. وأنا منذ عرفت "جوي" وأنا أدرك أنه تطوع بالاعتناء بكريستوف.

بادر "إنجل" إلى محاولة تغيير الموضوع:

- بدأ الجو يبرد.

كان في ذلك اليوم يرتدي بدلة بيج وقميصًا أبيض ياقته مهترئة. لم يغير عالم الفن فيه شيئًا تقريبًا، ولكن صار من السهل عليَّ الآن أن أتبين أي نوع من الرجال سيكون في المستقبل؛ سيكون مثل أولئك العارضين الذين اعتدت أن أراهم في ذلك الإعلان واقفين على متن يخت في استعراض أنيق للمنتجات التي يرتدونها. فهو يمتلك ذلك الوجه الذي تمتزج فيه البراءة بالوسامة، والخدان شبه الحليقين، والوقفة الاستعراضية الرشيقة.

نجح في بيع أول أعماله - لوحة هائلة من ثلاث قطع، رسمها بالحبر على الورق، وأبدع فيها جوادًا معلقًا في شجرة بطريقة تبعث القشعريرة في بطنك - لمعرض في بروكسل. وعندما سألته، شرح "إنجل" لي مصدر الفكرة: فهناك متحف صغير عن الحرب العالمية الأولى بالقرب من "إبريس" في "ويست فلاندرز". وهناك شاهد صور جياد نفقت فوق أعالي الشجر بعد أن طيرتها القنابل المتفجرة؛ ولم تفارق تلك الصور مخيلته منذ ذلك الحين.

التفت "إنجل" إلى "جوي":

- بالمناسبة، مش هاتيجي تاخد حاجتك؟

- هي عاملة مشكلة؟

- لأ، طالما إنك هاتاخدها قبل ديسمبر. لإني بعدها هاكون في باريس.

- ها أمر عليك مع "فرانكي" قريب.

لمحت "إيلا بويي" وهي ترفع الأكواب من فوق طاولات الشرفة، فجذبت انتابهها بحركة قوية من ذراعي.

- بيرة، "فرانكي؟".

سألتني وهي تقف عند زبونين، كانا رغم شعرهما الأشيب في صحة جيدة وقوة بنية، غالبًا ما جاءوا على دراجتهم كما في إعلانات فيتامينات "جيريتول" لكبار السن الشهيرة.

لما أحضرت "إيلا" البيرة، لاحظنا أنها نادت "إنجل" حوالي ثلاث مرات بوصف "السيد الشاب"، وهو الأمر الذي أثار بيننا بهجة كبيرة. يبدو أن "إيلا" قد تعلقت بوسامته. ومازح "جوي" "إنجل" ساخرًا ما إن تركتنا وانصرفت:

- إنت هدية من ربنا للستات.

***

كان الصيف شديد الحرارة. واشتكت ماما من تورم كاحليها واصابعها، حتى إنها لم تكن تحتمل خاتم الزواج في إصبعها. وأصبت أنا بطفح جلدي أغاظني في ظهري ومؤخرتي، وصرت كأنني أتقلب فوق الشوك. ثم عادت "بي جي" إلى "لومارك". فماذا فعل "جوي"، الأحمق؟ في صباح السبت، وبينما كنت منهمكًا في كبس الورق تحت الشمس، عاري الصدر (بناءً على نصيحة

ماما التي نبهتني إلى أن أشعة الشمس تخفف من هذا الطفح الجلدي)، وجدته يحضرها إلى بيتي.

دخل "جوي" مع "بي جي" من باب الدراجة من دون أن أنتبه لهما، فوجدتهما أمامي بغتة، ولم يتفوه أي منا بكلمة. بحثت عن شيء أغطي به جسدي، ولكني كنت قد تركت القميص فوق الفراش. كنت خجلًا من نظرات "بي جي"، فكابدت حتى انتقلت سريعًا إلى داخل البيت. وتبعني "جوي". حاولت بحركات عصبية أن أرتدي القميص، ولكن كم القميص يعاندني، بينما الذراع الأخرى متشنجة للغاية وأعجز عن التحكم فيها.

- هدي أعصابك. اهدى. أنا ما تخيلتش إني هلاقيك بره في نص هدومك. سيبني أساعدك...

ضربته على يده كي أبعدها. لا بد أنه قصد هذه الحركة. فهذه هي المرة الأولى والوحيدة التي أخرج فيها من البيت من دون قميص، وإذا به يحضرها لتراني على هذا الوضع. في الخارج، كانت "بي جي" تجرب حظها مع ذراع الكباس. لم تعد بشرتها على تلك الدرجة من البياض، فهي الآن أقرب إلى اللون البيج، ولكنَّ عينيها صارتا فيروزيتين أكثر. عرفت بعد ذلك أنها كانت في جزيرة يونانية بصحبة رفيقها الكاتب.

حضر "جوي" ليطلب مني أن أذهب معه لإحضار حاجياته من "انشيده". وستكون "بي جي" معنا. وعلينا أن نمر على "إنجل" أولًا، في الجزيرة. زرر لي القميص، وهو يتمتم:

- إنت وغد عصبي المزاج.

يرتدي تي شيرت أسود عليه ماركة المعدات الشهيرة DEWALT بأحرف صفراء كبيرة.

بادرتني "بي جي" عندما خرجت:

- أهلًا، "فرانكي". آسفة إن كنا أزعجناك.

هذه أول مرة تتحدث فيها إليَّ مباشرة. ولمحت ماما تنظر إلينا من نافذة غرفة المعيشة، فلوحت لها. ولما ظهرت عند بابا المطبخ أشرت لها بمعنى أن تأتينا بشراب. رحبت ماما بــ"جوي" وقدمت نفسها لــ"بي جي":

- رأيتك من قبل طبعًا.

التناقض بينهما واضح، بين هذه الفتاة التي تعيش حياتها بالطول والعرض، وماما التي هي نموذج الإخلاص والجدية. ورغم أنهما يتحدثان اللغة نفسها، ولكني واثق من أنهما لو اجتمعا سويًا لساعة إلى طاولة المطبخ، فإنهما في النهاية لن يفهما بعضهما، وسوف تتقطع خيوط التواصل بينهما.

كررت إشارة الشرب.

- تحبون القهوة أم الشاي؟ أم شيئًا غيرهما؟ حاجة ساقعة؟ قهوة؟ أوكيه... مش هاتاخد وقت. كريمة... سكر؟ كله بلاك؟ طيب، هذا أسهل.

أموت وأحك ظهري الآن، وزاد الطين بلة كل هذا الوقت الذي أخذته ماما حتى تتأكد من أننا لا نريد إلا قهوة. قهوة وحسب. طرحت "بي جي" علي اسئلة عديدة عن عملي في إنتاج الورق المكبوس، وكنت أكتب الإجابات في الدفتر من دون أن أنظر إلى عينيها. فقالت "بي جي" وماما تحضر القهوة:

- خطك حلو.

بادرت أمي:

- إنه يكتب كل شيء. كل ما يمكن تخيله. يجلس هناك ليكتب طول اليوم. "فرانكي"، فرّج الآنسة على دفاترك! لديه مكتبة كاملة منها.

حاولت إسكاتها بصوت خرج كالفحيح من فمي، ولكنها كانت قد نجحت في إستثارة فضول "بي جي". التي قالت:

- غريبة أن يحتفظ شاب بمذكرات مكتوبة.

أومأت ماما، بعد أن تراجعت حتى باب المطبخ، لي وأشارت بيدها بالطريقة التي أعرفها عندما تريد أن تؤنبني. بينما طلبت مني "بي جي" أن تطالع المذكرات. فأدخلتها إلى المنزل، ثم أشرت ناحية الدفاتر.

- هذه هي؟

وبإصبعها، نفس الإصبع التي كانت تخيف بها فئران "ماوس تاون"، مرت على أغلفة الدفاتر المجلدة، والتي صار عددها اثنين وتسعين دفترًا، مرتبة بتسلسل تاريخي. أشتري هذه الدفاتر من مكتبة "برامسترا"، واعتقد أني الزبون الوحيد لهذا النوع من الدفاتر. استدارت تواجهني.

- أكيد مش هينفع إني...

هززت رأسي أؤكد لها رفضي أن تطالعها.

- أنا قلت كده برضه.

مالت ناحية الرف الذي يحتوي دفاتر الأعوام الأقرب، وتنهدت.

- طيب... اللي مكتوب فيها شخصي ولا عن كل حاجة؟

أصدرت صوتًا موافقًا.

- الاتنين؟

أومأت برأسي، فاعتدلت.

- تعرف إن صديقي كاتب؟ أكيد "جوي" حكى لك عنه. كان "آرثر" هيعجب بالفكرة. أوه، "فرانكي"، ينفع أشوف ولو صفحة واحدة... لو سمحت؟

في عينيها لمعة انتهازية. إنها تجذبني شيئًا فشيئًا إلى أمر خطير. أعرف أنه لن يكون هناك مستحيل بالنسبة لها، وأنه لا أحد بوسعه أن يقاوم جمالها. ووجدتني أجذب دفترًا من دون اختيار دقيق، وأضعه على حجري، وأقلب صفحاته، حتى عثرت على صفحة ليس منها ضرر: فيها الكثير عن "جوي"، وبداية الشتاء، ويوم صعب في المدرسة. ناولتها لها. فتنهدت مرة أخرى. وقالت بعد برهة:

- جميل. جميل فعلًا. خطك جميل ومنظم. مكتبة كاملة بخطك إنت. عمري ما شفت حاجة زي كده، وكأنك كتبت كل حاجة مرت عليك. أقصد إنك شفت كل حاجة ومن غير ما تتكلم كتبت كل حاجة.

كتبت لها سريعًا.. "تمامًا مثل الرب". ضحكت من العبارة، فذقت في ضحكتها طعم البهجة. أغلقت الدفتر، وأعادته إلى مكانه.

- كتبت حاجة عني؟

ماذا أقول لها؟ فلو أخبرتها أني كتبت، فسوف تصر على أن تعرف ما كتبت عنها، ولو أنكرت ففي هذا إنكار لحبي، وقد يخيب أملها. مرت عليّ نوبة تشنج سرعان ما انحسرت. وكتبت لها:

حقائق

الوصول إلى "لومارك" 1993

متوسط الدرجات: 8.4

"يوبي ك."

- إنت شفت درجاتي! ولكن المتوسط كان 8.5.

هزرت رأسي في عناد، ثم خططت عمودًا كتبت فيه درجاتها النهائية، وحسبت المتوسط فكان 8.4 (وجدتها منبهرة للغاية).

راقبتنا ماما من النافذة ونحن نخرج. وركبنا السيارة. كنت جالسًا في الأمام في عربتي، بينما جلست "بي جي" على بطانية وراء المقعدين، حيث لا توجد أي مقاعد بالطبع، فهذا المكان الذي كانوا يضعون فيه تابوت المتوفى. علَّقت تخاطبني:

– أمك طيبة جدًّا.

أخذنا "إنجل" من عند منزله، وانطلقنا خارج "لومارك". كانت ماكينات دراسة القمح تشتغل في الحقول، وتتعقب أسراب النوارس الماكينات مثلما اعتادت أن تتعقب قوارب الصيد. تعلو فوق المنطقة سحابة خفيفة من غبار لونه أصفر خفيف.

طلبت "بي جي" من "جوي" أن يفتح النافذة الخلفية (التي يفتحها بزر كهربائي)، ثم مدت قدميها الحافيتين خارجها. رقدت على ظهرها، واسندت رأسها إلى ذراعيها، فارتفعت حافة سترتها لتكسف عن بطنها. تأملت تكوين ثدييها. كان "إنجل" يستمع إلى نظرية "جوي" عن ملحمة الأوديسا التي قام "بابا أفريكا" ببطولتها، وفق خيال "جوي" الخصب. توصل الآن إلى نسخة أرقى للقصة: كان قد بحث في خرائط الطقس وتتبع ذلك المسار المحتمل لفلوكة زوج أمه. تأكد من أن شهرا أغسطس وسبتمبر لم يشهدا أي عواصف قوية في العام الماضي.

كنت طوال هذه الرحلة أسير إحساس لذيذ بأن شيء ما جميل سيحدث. فتحت النافذة قليلًا، وشممت رائحة الأرض؛ الغبار والعشب الساخن. وتحدث "إنجل" بصوت عالٍ ليتغلب على صوت الرياح.

وصلنا إلى منزله في "أنشيده" في ساعة ما من ذلك اليوم الرتيب المائع، وهو يقع في حي مخصص لعمال الطبقة الوسطى، بنيت منازله كلها بالطوب الأحمر. رأيت هنا وهناك رجال بدناء قابعين في كراسيهم في الحدائق، بينما انتشر الصغار في كل مكان وهم ينهلون من زجاجات المياه الغازية التي يحملونها. ابتسم "إنجل"، ورحب بنا:

– أهلًا بكم في أرض الباربيكيو. وحيث يباع كل شيء بأرخص السعار.

كانت "بي جي" مندهشة من علامات البدانة الظاهرة على كل مخلوق هنا تقريبًا.

– أكيد دول عمرهم ما سمعوا عن حاجة اسمها نظام غذائي.

رفع أحد الجيران زجاجة مياه غازية ماركة "جرولش" يحيينا، فلمحت الشعر المتعرق أسفل إبطه.

– أهلًا، "إنجل"، صحابك دول؟ تعالوا... اتفضلوا.

يعيش "إنجل" في الطابق الثاني، وعندما فتح باب البلكونة شاهدنا عبرها الحدائق الخلفية التي تعج بقطع الأثاث البلاستيكية وأكوام لعب الأطفال التي تدهور بها الحال إلى مصير محتوم.

كانت هناك زجاجة بيرة نصف لتر في خزانة المطبخ، ولكن لا يوجد شاليمو. صب "إنجل" المشروب في أكواب صغيرة. وقالت "بي جي":

– أنا ها أساعدك تشرب. زي ماما بالضبط.

شربت وأنا أنظر إليها في طمع، فهي قريبة مني لدرجة أنني أرى من فوق حافة الكوب آثار لفحات شمس الصيف الخفيفة على حافة أنفها. شربت الكوب كله في جرعة واحدة.

– شاطر.

شرح لها "جوي":

– البيرة بالنسبة له دواء. بتمنع الرجفة. عايز تاني، "فرانكي"؟

ابتسمت.

– صب له.

سمعنا ما يشبه هزيم الرعد على البعد، وبدأ "جوي" في جمع أشيائه. حقيبة النوم، حقيبة الظهر التي كانت تخص والده، وحافظة تحتوي على اسكتشات، وتمثالين من الصلصال يتخذان نموذج ماكينات مثل تلك التي تكون في مواقع البناء. نبهه "إنجل":

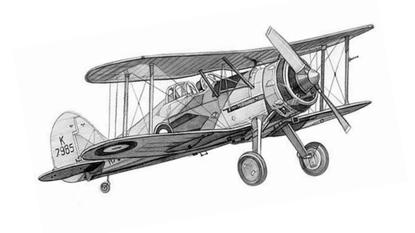
- الأحواض... ماتنساش الأحواض.

وضع "جوي" كل شيء في السيارة، وطلب منا أن نركب.

- لازم نرجع قبل الليل. الكشافات عطلانة.

ساعدتني "بي جي" على شرب آخر كوب، وأنا أشعر بجذل شديد لاعتنائها بي. بقي "إنجل" في منزل "انشيده" وودعنا. صار الرعد والبرق أقرب الآن، واستحال لون السماء فوق المدينة إلى السواد. أخذ "إنجل" يلوح لنا حتى ابتعدنا عن أنظاره.

كانت هذه هي آخر مرة أراه فيها... على قيد الحياة.



32



في عطلة الأسبوع التالية حضر "جوي" ليأخذني معه في طريقه إلى ساحة الخردة؛ فهو بحاجة إلى قطع غيار لنظامي التبريد والكهرباء في سيارته. وكان من الدرامي أن أتذكر أن هذه هي أول مرة أروح فيها إلى الساحة منذ الحادث. زادت الطاقة التشغيلية للمكان بنسبة خمسين في المئة خلال آخر عامين، وهناك كباس جديد للسيارات الخردة، وتطور أسلوب فصل المخلفات. ورغم هذا التطور التكنولوجي الواضح فإن النشاط الأساسي هو هو على حاله. الخردة ولا شيء غير الخردة. ولكني أنبهك إلى أن الأمر ليس بالبساطة التي قد تتصورها؛ حيث يتم فصل جميع المخلفات مع الحرص على التخلص من أي زيوت أو سوائل ضارة بالبيئة. "هيرمانز وأولاده" حاصلة على الأيزو 9000، فلا تنسَ هذا. وكان رأيي دومًا أن بابا "محبكها" زيادة عن اللزوم، وأنه يريد من الزبائن أن يحضروا ليجدوا أمامهم ساحة خردة، ولكنها في نفس الوقت نظيفة تمامًا، مثل جزار حريص على ألا تظهر في محله نقطة من دماء مواشيه.

أوقف "جوي" السيارة بالقرب من المكتب الأمامي. هناك، في الداخل، القلب الإجتماعي للشركة؛ ماكينة القهوة وماكينة بيع أكياس الشوربة الجاهزة. فتح "جوي" الباب من ناحيتي، فرفعت نفسي عن العربة حتى ينزلها "جوي". دفعني فوق الصفائح المعدنية الصدئة إلى داخل الساحة. تلفت حولي، ولكني لم

أجد لافتة تقول "ورق مكبوس للبيع"، وهو ما جعلني أتعجب وأتساءل عن الطريقة التي يسوّق بها بابا إنتاج الكباسة.

يقود "ديرك" الونش المتحرك. يحمل بين فكيه حطامًا مهروسًا طازجًا، وهو يناور قبل أن يضعه بكل دقة فوق كومة أخرى من الحطام. يقوم الكباس بطحن هياكل السيارات حتى لا يزيد سمك المكبوس منها على ثلاثين سنتيمترًا، أما الضجيج الذي يصدر عنها فيشبه صوت حادث تراه أمامك بالتصوير البطيء. ولما رآنا "ديرك"، توقف الحطام فوقنا، يتمايل في الهواء. صاح:

- بابا هناك!

علّق "جوي":

- مان، وزنه زاد جدًّا.

كنا على مسافة آمنة كافية، فلم يسمع "ديرك" ذلك التعليق حول منظره. بالفعل، صار أخي بدينًا، وليس بالطريقة التدريجية أو شبه المتناسقة، ولكنها بدانة تفجرت فيه بغتة، من دون أن تمنح من يحيطون به فرصة الاعتياد على منظره الجديد. لديه بقع حمراء على عنقه، وتفشى الحب والنمش على خديه بسبب معاناته من ارتفاع ضغط الدم. وهكذا صار "ديرك" أقرب شبهًا إلى الصورة التي انطبعت لديَّ عنه. خمورجي غريب الأطوار تفوح منه رائحة الوحدة والانعزال.

ذهبنا إلى المستودع. وهناك سمعنا صوتًا يأتينا من طابق الميزانين الذي يحتشد بالصناديق، وكان صدى الصوت متضخمًا جدًّا. صوت شخص يبحث في توتر عن مفك صغير في أسفل صندوق أدوات معدني. صاح "جوي":

- مين هناك؟

سكت الصوت، وظهر بابا.

- أهلًا.

يلتصق بشفته السفلى طرف بقايا ورقة بفرة. رأيته ذات مرة يبصق عقب مثله، فيسقط على الأرض ويبقى منتصبًا بمهارة، وكأن بابا قصد تلك الحركة. نزل بابا على السلم بحذائه الجلدي طويل الرقبة. سأل "جوي":

- أي خدمة؟

تلتمع سنه الصناعية من داخل فمه في وسط عتمة المستودع. بينما تردد "جوي":

- أنا كنت...

في تلك اللحظة رآني بابا، فاختلجت أعصابه ذعرًا. لم يكن الذعر باديًا عليه، ولكنه كامن هناك في أعماقه. ولقد تعودت على الانتباه إلى أصغر وأدق ردود الأفعال. فقد كانت عيناه تختلجان في قلق بيني وبين شيء ما خلفي. فاستدرت قدر استطاعتي، ولكن الزاوية كانت حادة جدًا علي. فاستندت على مقبض عربتي وأدرت العجلتين الأماميتين فدارت العربة تسعين درجة. ورغم أن الجدار الخلفي في الجزء المظلم، ولكني قادر على رؤية ذلك الكيان بوضوح: برج من كتل الورق المكبوس... مكوم عند جدار الطوب. ألف... ألفان... ثلاثة آلاف... يا مين يعد؟!

عندئذٍ، سرت في جسدي قشعريرة باردة. كان الورق المكبوس مرصوصًا بكل دقة ونظام، وكأنه في حد ذاته جدارًا عازلًا. إذن لم يبع بابا طوال هذا الوقت ولا كتلة واحدة منها، ورغم هذا فقد كان يدفع لي أجري مقابل أن أنتج المزيد والمزيد منها، وتذكرته وهو يحكي لي عن إقبال الزبائن الهائل عليها... (كأنهم يتناولونها على الإفطار، "فرانكي")، وأدركت أن ذلك الأجر الذي يمنحه لي هو ثمن مشروع تجاري فاشل – ولأجل أن يشعرني بأن لي قيمة، أو أيًّا كان ما فكر فيه هو وماما لأجل خاطري.

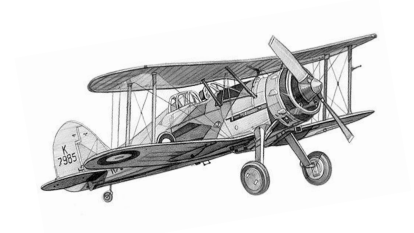
أخذ بابا يسعل مثل محرك سيارة قديم في صباح بارد. وكان هذا هو أسوأ ما في المشهد؛ أنه محرج مني بقدر ما أنا محرج منه. سمعت "جوي" يسأل عن قطعة لرادياتير السيارة، ولكن صوته أتاني من بعيد وكأنه في مكان آخر من العالم. التزم بابا صمتًا يائسًا، ورأيت خجلي وعاري في عينيه، وبقينا هكذا؛ عيناي في عينيه... داخل قاعة من المرايا... مرايا الخزي.

علّق "جوي":

- أوكيه... لما تكون عندك عرفني.

غادرت المستودع إلى السيارة. الطين الجاف ينسحق أسفل عجلاتي. بعد دقائق خرج "جوي" ورائي من المستودع وهو يحمل مطرقة ومفكًا، ويشير إلي أنه سيلحق بي سريعًا. كان راديو السيارة يذيع النشرة الجوية...

... يبدو أنها ستمطر.



ساموراي

33



وهل تبقى لي الآن من شيء سوى أن أجرب أن أكون مصارع ذراع؟ هكذا انخرطت في التدريبات؛ وحدد "جوي" هدفًا لي وهو المشاركة في بطولة "لييج"، في أواخر أكتوبر. وهكذا ظهرت الدمبلز في بيتي، وأحضر "جوي" كمية كبيرة من مكملات البروتين الغذائية بطعم الفراولة والفانيليا والليمون. هي مساحيق يتم مزجها مع الحليب. وجدت أن علاقة النكهات باللون أقرب كثيرًا من علاقتها بالفاكهة نفسها؛ فكلها حلوة وكريمية، وتترك في الفم مذاق الجير.

أقوم بأهم تدريب لضبط الوزن وأنا جالس على الأرض؛ مرفقي يستند إلى ترابيزة قصيرة، وفي يدي دمبل، وأقوم بدحرجة الثقل ببطء نحوي، ثم أنزله حتى يكون فوق الترابيزة تمامًا، وأنا خلال كل ذلك أشد عضلاتي حتى تتحق أكبر قوة ممكنة. وعليَّ أن أقوم بذلك إلى أن أشعر بخط نار يسري في ذراعي. بدأنا بثقل ستة عشرة كيلو، وتكرار التمرين ثلاث مجموعات، كل مجموعة عشرون عدة، مع فاصل زمني قدره اثنتان وثلاثون ثانية بين كل مجموعة. وتدريجيًّا، تناقص عدد التكرارات وتزايد الوزن المضاف إلى الدمبل. وهكذا، وبعد خمسة أسابيع، صرت أتدرب بوزن ثمانية وثلاثين كيلو، وهو وزن كبير بالنسبة لتدريب هدفه فقط عضلات الباي. بينما أدرب ساعدي عن طريق تحريك رسغ يدي حركات منتظمة وهي تحمل الثقل.

واتبعت رجيم غذائي نظمته ماما وراقبه "جوي". صار وجهي أنحف (فأصاب ماما القلق) وتضخمت عضلات ذراعي والجزء الأعلى من جسدي (فزاد حماس "جوي"). ولكثرة عدد تكرارات المجموعات التدريبية، كنت أحاول التغيير قليلًا فأقوم بالخروج بعربتي في كل يوم ما بين "لومارك" و"فيسترفيلد". وهي مسافة تبلغ 4.2 كم خروجًا و4.7 كم عودة، وذلك لأنني في طريق العودة اتخذ المسار الذي يتيح لي المرور على "البيت الأبيض"، حيث يعيش والدا "بي جي". على الرغم من أن البيت فقد بياضه منذ سنين، واستحال لون الطبقة النباتية الخضراء للسقف إلى البني، وبدا الإهمال واضحًا عليه. وحتى بعد مرور كل هذا الزمن، فإن خيالاتي الساذجة عن الجنس اللطيف في هذا البيت قائمة وتتجدد بفعل قوة لا يد لي فيها. ربما تقول إني أتعمد أن أمرَّ من هناك لأتشمم أي جديد، وأن هناك غوايات تحركني أقوى من أي محفز بصري. كما يمكنك أن تقول إن الملل أصابني في مقتل، وأرغب في أن أشغل عقلي بإيهامات حلوة، وأنني أمقت نفسي بعد ذلك لأنني أكون قد خالفت عهدي ألا أقترب من "أشياء بي جي".

هكذا، ونتيجة التدريب المركز، صرت أمتلك ذراعًا قريبة الشبه بساق الفيل. تبدو وكأنه لا علاقة لها ببقية جسدي. لا نسبة ولا تناسب. ولكنني نسيت أني نسيت موضوع القوام المثالي هذا منذ سنوات وسنوات. وتعمد "جوي" كذلك أن يجعل جسدي أثقل. وهو ما يعني أن وزني قد زاد أحد عشر كيلو. أحد عشر. تضاف إلى ستة وأربعين سابقة، بما يعني أن أثقل خصم سيقابلني سوف يزيد وزنه عن وزني قرابة عشرين كيلو، لأن حد فئة الوزن الخفيف هو خمسة وثمانون كيلو. ووجدت أنني حتى لو تناولت الطعام في كل الأوقات، فسوق أبقى في حيز خفيف الخفيف. فاستشرت "موساشي" في هذا، ولكني لم أجده يتحدث أبدًا عن الوزن المثالي للساموراي الفذ.

ركزت على إعادة قراءة مقالين، "الماء" و"النار" في "جو رين نو شو". لا تتحدث كثيرًا عن الاستراتيجية، ولكنها ذات طبيعة عملية تطبيقية تعرف القارئ بطرق القتال. كتبها مقاتل لم يخسر نزالًا حتى بلغ التاسعة والخمسين من عمره.

عندما قرأت الكتاب وأنا صغير اعتبرته كتابي المقدس. هذا هو عالم "كينسي"؛ قديس السيف. ولكني لم أكن فهمت منه سوى غشاء رقيق من الموضوع الذي يتحدث عنه، ذلك الذي كفل لي خيالات الفروسية، والتي حفزتها مسميات الأساليب التي تستخدمها في قهر الأعداء. ومنها مثلًا "ضربة النار والأحجار". وهي تلك التي جربتها على "كوينسي هانسن" في ساحة المدرسة، فقمت بسيفي/عصا المقشة بتحطيم دفاعات درعه/حقيبته. وهناك أيضًا "الجسد الصخرة"، والتي تدربت عليها من دون خصم: "**عندما تتمرس على أسلوب هذه الاستراتيجية، فسوف يتحول جسدك بغتة إلى صخرة. وعندئذٍ تكون العشرة آلاف شيئًا بلا حيلة في مواجهتك. ذلك هو الجسد الصخرة. محال أن يزحزحك أحد من مكانك**".

كنت أتدرب على "الجسد الصخرة" في ذلك اليوم؛ يوم الجرار. ظننت أنني قد توصلت إلى ذلك التحرر من الجاذبية الذي تحدث عنه. واقترب الجرار، فبقيت في مكاني. كان عليَّ أن أكون أعقل من هذا؛ "موساشي" نفسه يؤكد أن الاستراتيجية التي لم تترسخ بعد مآلها الخسران.

الآن... وبعد كل هذه السنين، أقرؤه من جديد، فأجده مختلفًا. كتاب "الحلقات الخمس" أشبه بتلك الكرة البراقة التي تعطيك لونًا جديدًا في كل غمضة عين. بوسعي الآن أن أستعين بهذا الكتاب في قهر المصارعين. وجدتني أستبدل كلمة "سيف" بكلمة "ذراع". وهو مجاز لا أجده مبالغًا فيه؛ فما السيف إلا امتداد بارع وحاد بتّار للذراع، أليس كذلك؟ ربما كان "موساشي" نفسه يقصد بكلمة "سيف" أشياء أخرى كذلك، فهو من قهر خصمه اللدود، "ساساكي كوجيرو"، بمجداف. فالمقصد هو روح الأشياء، وما الكلمة إلا وحش يحمل معانيه المتغيرة فوق ظهره أينما راح.

تفاعل "جوي" مع انبهاري بالكتاب. وكان يتجول في المنزل وهو يقرأ فيه... "القبض على الظلال"... "تأديب التوت توت". لا يتوقف عن التعبير عن إعجابه بالكتاب. وخاصة "تأديب التوت توت".

وهو يقصد بالتأديب هنا أن الخصم عندما يحاول القيام بهجوم مرتد فيكون عليك أن تبادر بدحر هذا الهجوم المرتد وكأنك توقفه عند حده. تؤدبه. ففي رد فعلك السريع تأديب للخصم. هجمة.. "توت!"... رد "توت!". هذا هو الرتم. ويعتمد على التبديل بين ساعدي الذراعين. وفي الحركتين تناغم مع السيف. وهو أسلوب يحتاج إلى الكثير من التدريب والصبر.

أكثر ما أعجب "جوي" هو اسم الأسلوب؛ وظل يردده وهو يضحك.. "توت توت!"... "توت توت!".

هو أدرك أن هذا التدريب الطويل المتكرر يحتاج إلى خصوم، فلا معنى لأن أظل أطبق كل شيء على الدمبلز. وأنا كنت بالفعل أتوق إلى وجود خصم أمامي أنفذ فيه فكري القتالي وقوتي المتنامية.

باختصار... عثر "جوي" على "هيني".

يغسل "هيني أوسترلو" الصحون في "ليتل رود روستر"، وهو يقيم في "لومارك" منذ زمن بعيد. يعيش في أحد تلك المنازل الخشبية الرخيصة جدًّا، وقد نصّب ذلك المنزل في الساحة الخلفية للمطعم. ويوجد بيني وبين "هيني" قواسم مشتركة أكثر من مجرد أن لكل منا بيتًا خشبيًّا يخصه. فهو يأتي في المرتبة الثانية من بعدي في السباق على لقب "صامت القرية". لا بد أنه في العقد الخامس من عمره، ولكنه بريء مثل طفل رضيع. والناس يقولون عنه إنه لا يمكن أن يؤذي حشرة، رغم أنه رزق قوة الثور.

منذ بضع سنوات، كان "هيني" حديث القرية بعد أن وافق بعد إلحاح زملائه على المشاركة في سباق جر الجرارات الذي يقام سنويًّا في يوليو. وتوجد الآن صورة في المطعم يظهر "هيني" فيها وهو يحمل شهادة تقدير وطبقًا فضيًّا

منقوشًا وهو يرتدي زيًّا رياضيًّا ضيقًا عليه شعار المطعم: CAFÉ REST. THE LITTLE RED ROOSTER LOMARK. هو في الصورة أشبه برجل كهف من العصر الحجري يحمل مكنسة كهربائية بكل دهشة واستغراب.

أنا لا أدري إن كان عقل "هيني أوسترلو" يعمل أم لا، ولا أدري إن كان قد وجد سعادة في ذلك الانتصار، أو أنه يشعر بعدم رضا عن تضييع حياته في غرفة غسيل صحون في مطعم، ولكني لا أجد أيًّا من هذا على وجهه. ذلك الوجه المحايد دومًا، بلا أي تعبير على الإطلاق. تميزه لحية خفيفة غير منتظمة، وشفتان متلعثمتان، وبخلاف ذلك فلا توجد علامة مميزة على وجهه، حتى تظن أنه مشدود شدًا. "هيني" مجرد جزء طبيعي من المنظر العام للمكان، والآن أراه يدخل حياتي بهذا البنطلون الرياضي الأزرق الذي يذكرك ببشكير الاستحمام. وتيشيرت عليه عبارة HARD ROCK CAFÉ CAPE TOWN، رغم أني متأكد من أنه لم يزر ذلك المكان في حياته. اتخذ طريقه عبر باب بيتي.

قام "جوي" بتعريفنا على بعضنا البعض.

تلفت "هيني" حوله. كنت قابعًا في مكان ما وسط حيز نظره، ولكن من الواضح أنه لا يميز بين راديو ترانزستور وكومة صحف ورأسي. شعرت أن "جوي" غير مرتاح لهذا الموقف؛ فهو اعتاد التعامل مع كائن صامت واحد، ولكن عليه الآن التعامل مع اثنين. أمر صعب بالتأكيد، حتى بالنسبة له.

- هانبدأ، "هيني". اقعد هنا، قدام "فرانكي". أيوه... هنا.

أجلسنا "جوي" أمام بعضنا، وأخرج من حقيبة بلاستيكية قطعتين خشبيتين متشابهتين.

- دول مقبضين. فيه مشكلة لو ثبتهم بمسامير في الترابيزة؟ بكده نعمل ترابيزة شبه ترابيزة الماتشات. وهي بتساعد على إنك تستخدم وزنك بشكل متوازن.

ثبت المقبضان، اللذان ينتهي كل منهما بمفصلة معدنية بها ثقبين، فوق الترابيزة بيني وبين "هيني". ثم أخرج من نفس الحقيبة حفار وشنيور ببطارية وثبت المقبضين بالمسامير سريعًا في سطح الترابيزة. انزلقت في مقعدي، واستعنت بيدي السليمة في السيطرة على يدي المتشنجة. فتحت أصابعي بصعوبة واحدًا تلو الآخر قبل أن ألفها حول هذا المقبض الذي صار مثل الوتد. تشبثت بإحكام شديد. بينما أسندت مرفق ذراعي الأخرى في وسط الترابيزة، وفتحت يدي.

- باقي حاجة واحدة. ثوانٍ.

رسم "جوي" مربعًا حول ذراعينا بقطعة طباشير.

- ده اسمه الصندوق. لازم تفضلوا داخل الصندوق. لو مر ذراعك فقو الخط، تخسر الماتش. أوكيه... "هيني"، لو ممكن... أيوه كده. بعدها نزل ذراعك الثانية، أيوه، زي "فرانكي". شكرًا.

هبطت ذراع "هيني" اليمنى مثل حاجز مزلقان سكة حديد، وتشابكت يدي ويده في نقطة ما من منتصف المربع. تشبث كل منا بالمقبض باليد الأخرى، لنشكل ذلك الشكل الكلي المتناسق. راودني شعور حميمي غريب وأنا أمسك بيد جافة دافئة لشخص بالكاد أعرفه. وصاح "جوي":

- ابدأ.

ضغط على زر التوقيت في الساعة. تشابكت يدانا بشدة. حرصت على أن تكون يدي فوق يد "هيني" من الثانية الأولى، حتى يضطر لثني رسغه للوراء؛ فهذه الوضعية تمنحك ميزة نفسية. ولكن السؤال هو ما إذا كان لعلم السيكولوجيا كله أي تأثير من الأصل على مخ السلحفاة الذي يمتلكه "هيني أوسترلو". بقيت ذراعه ثابتة من دون أي حركة، في منتصف الترابيزة. وهو ما يعني أنه يتبع استراتيجية كسب الوقت، وتركي أهاجم، تحينًا للحظة المناسبة. فتأكدت من استمرار ضغطي، وحرصت على أن أظل منتبهًا متحفزًا، وتذكرت استراتيجية "أن تكون العدو" (وهي استراتيجية تقوم على فكرة أن الناس في

أي مواجهة تعتبر أن العدو قوي، وبالتالي تلجأ إلى الحذر). ولكن ما الذي يقصده "هيني" من عدم القيام بأي حركة؟ هل يقصد أي شيء؟ عليَّ ألا أستغرق في التفكير، ويجب ألا أضع نفسي في مكان الخصم إلى هذا الحد – **هاجمه مثل حجر انطلق من مقلاع**. أطلقت الترابيزة صريرًا وشعرت أنه ينهار ولو قليلًا. ربما شجعه هجومي نوعًا ما؛ فقد شد كتفيه وقام بضغط مضاد مثل الهجمة المرتدة. بدأت ببطء، ولكني شعرت بها تتعاظم مثل سحب داكنة في طقس سيئ. سمعتني أطلق آهة شبيهة بتلك التي أقرؤها في قصص الكومكس، وفقدت المبادرة الاستراتيجية (**لا بد ألا تقطب جبهتك والمسافة بين عينيك. لا تدر عينيك في محجريهما، ولا تسمح لها بأن يرمشا، ولكن ضيّقهما قليلًا**). وببطء، وكأني أذوب، تراجعت.

– ياللا... "فرانكي"!

أوه، أنا لا أتمنى أن أخيب ظنه. ليس هو، وليس في أول مباراة. أغلقت عيناي بشدة، وعقدت العزم على النهوض من هذا الانحدار، وشعرت بموجة غضب دموية، مثل تلك التي اعترتني وأنا أحاول خنق ذلك العامل؛ بريق أحمر ساخن خلف عينين مغلقتين.

– و... انتهت الثلاث دقائق!

افترقت اليدان في نفس الثانية. انتهت الجولة الأولى. تنتهي المباراة بعد ثلاث دقائق طالما لم يتغلب أحد الخصمين على الآخر. ويفوز بالمباراة الأفضل خلال الجولات الثلاث. وتكسب لو كانت يدك فوق يد خصمك، ولو لجزء من الثانية. انتهت جولتي الأولى مع "هيني أوسترلو" تعادل، أو هكذا قدرت أنا. ورغم أن "جوي" لم يتعمد إظهار مشاعره، إلا إنني أحسست أنه يريد مني ما هو أفضل.

– جاهز؟ جاهز لجولة جديدة؟

أومأت برأسي.

- وأنت، "هيني"؟

قبض "هيني" على المقبض وثبت مرفقه على الترابيزة. نفضت الإنهاك عن ذراعي واتخذت وضعي. هذه المرة تجاهلت الاستراتيجية، وأغلقت عينيَّ على الفور، فقد فكرت أن النظر إلى خصمي يستنزف قوتي. شرعت منذ البداية في طريقة "النار والأحجار"، وبكل ما فيّ من طاقة وعزم. شعرت بارتجاف ذراعي وكتفي من فرط القوة، وانتشر الغضب الأحمر الساطع داخل عينيَّ انتشار الحبر في الماء. وندت من أعماق أعماقي صرخة. كان وقعها مثل "توت توت!"، وعندما فتحت عينيَّ ثانيةً رأيت جذع "هيني" مائلًا في زاوية غريبة. يدي تثبت يده إلى سطح الترابيزة. ومن تلك الوضعية المائلة المهزومة، كان "هيني" ينظر إلي نظرة محايدة بعينين خاملتين.

- مش ممكن!

تركت يده، فعاد جسد "هيني" مستقيمًا في مكانه.

كانت هذه هي مباراتي الثانية. فسبق أن هزمت رجلًا يفوقني وزنًا بأربعين كيلو. ربت "جوي" على كتفي بقوة في جذل:

- راااائع... مان... راااائع!

ابتسمت، فابتسم "هيني"، من دون أن يعرف السبب. هكذا انقشعت الغمامة السوداء التي خيمت على بيتي منذ يوم اكتشافي لخدعة الورق المكبوس. راحت، وتركت مكانها للنور والتفاؤل.

كانت هناك مباراة ثالثة، وخسرتها لأنني كنت لا أزال منتشيًا بالفوز في المباراة الثانية. وخضت مباريات عديدة في الأسابيع التالية؛ ينال "هيني" اثنين ونصفًا عن المباراة الواحدة، وفي كل مرة نتصارع فيها أتعلم المزيد عن "الانهيار الخبير" و"تحرير الأيادي الأربع"، وكذلك المبدأ الذي يطلق بداخلي دفقة أدرينالين بمجرد التفكير فيه... "روح التحطيم".

***

سادت أجواء الخريف، واقترب موعد البطولة. أحيانًا أشعر أنني لا أقهر، وأحيانًا أخرى أتمنى لو أني ما كنت بدأت. في أواخر أكتوبر توجهنا بالسيارة إلى "لييج". ونحن في الطريق السريعة، على مسافة كليومترات قليلة من "لومارك"، صادفت بشائر أمور تجري. فهناك في الحقل، رجال يرتدون صديريات برتقالية فسفورية فوق ملابسهم: إنهم مساحون. تباطأ "جوي" بالسيارة. يتصايح الرجال لبعضهم البعض على جانبي الحقل الواسع، ثم يعودون للنظر في أجهزتهم. كانت الأرض مقسمة بخطوط لا نراها، وفي مكان ما افترشوا خريطة يحددون عليها شكل مستقبلنا، مثل مصمم أزياء منهمك على باترونات مجلة أزياء. علّق "جوي":

– المشروع هيتنفذ. من وقت ما بقى عندي سيارة وأنا متفهم ده. ولازم يكون عندك سيارة علشان تفهم ده. هولندا لحقت بإيقاع العصر، عصر السرعة، ولو وقفت هتتأخر. هتتأخر كتير. دلوقتي وفي كل مكان تروحه انتشار سرطاني فظيع للطرق السريعة والمدن السكنية والمناطق الصناعية. البلد دي بتتحرك وتتغير بالسرعة الكبيرة دي لأنها ما بقتش تفكر في نفسها، أو يمكن علشان هي بتفكر في نفسها زيادة عن اللزوم، ومن هنا بتجري بكل سرعة الدنيا علشان تبقى زي زي بقية العالم. بلد له وجهان: التقاليد والانتهازية. ديك "لومارك"، والطريق E981؛ والكل عايز يستفيد منه. ومش هتلاقي حد بيعترض على المشروع، إلا شلة "بوتيك"، وده لأنه مش في مصلحتهم مش أكتر. بلد مافهاش أي فايدة. بلد مافهاش أي رجاء.

كانت هذه هي أول مرة أسمعه يتحدث فيها بهذه الطريقة – وكأنه غريب عن القرية. أنا بالطبع أوافقه الرأي، وامقت ما آلت "لومارك" إليه. "لومارك" معتادة على الضعف وانعدام الحيلة، والثرثرة. حتى ديك "لومارك"؛ فالكل يعلم يقينًا أن ذلك الطائر كان يصيح ساعة غزو الفايكنج من الخوف، وليس من باب الشجاعة. ولكنني لم أشعر بارتياح وأنا أسمع "جوي" يتحدث عن

"لومارك" بهذا الصوت العالي، كما لو أن في ذلك ما يعني أنه لم يعد كلانا فقط المنكوب بهذه القرية، والوحيدان اللذان بوسعهما السخرية من تخلفها. ولن يطول الوقت قبل أن يبدأ في التعامل معي على النحو نفسه. ربما. فكم يلزمه من وقت قبل أن يتقين من أني حالة ميؤوس منها؛ مجرد ريفي غاطس حتى رأسه في طمي النهر؟ لماذا كان يتعامل فجأة مثل غريب - أو هذا ظني على الأقل - عندما أكون دائمًا مدافعًا عنه كلما تحدث ناس "لومارك" ساخرين من كونه وافدًا عليهم هو وعائلته؟ إن كان قد بدأ ومن دون سبب في الارتكان إلى كونه غريبًا، والتباهي بذلك، فهو بالتالي يؤكد لي على عقلية أمقتها كثيرة: عقلية تصر على أن الغريب يبقى غريبًا، ومحل شك وسخرية من كل الناس حوله ما أن يدير لهم ظهره. ألم ينتبه إلى هشاشة البناء كله، وأنه بتعمده هذا الأسلوب يجعله أشد هشاشة؟ وأنه وعائلته نذر شيئًا جديدًا، ومنطلقًا للابتعاد عن مرارة استمرت عمرًا، وتاريخًا يرثى له حتمًا؟ إنه يثبت لهم صحة موقفهم عندما يضع نفسه في تلك المكانة المتعالية، وكيف لي أن أشرح كل هذا له؟

دخلنا في الطريق السريعة. نظرت من النافذة. تلك هي الطرق التي كنا نسير فيها وقت كانت ماما تحضرني إلى د. "ميرمان". أتذكر درجة حرارة أدوات "ميرمان" التي كان يفحصني بها. وكأنه كان يحتفظ بها في الثلاجة لي أنا وحدي. وأتذكر من بين تفاصيل رحلة العودة تلك النبرة التي يمتزج فيها التفاؤل بالقلق وماما تخبرني عما قاله د. "ميرمان": ثابر، لا تستسلم، مارس الكثير من التدريبات، لا تَخَف - وهكذا وهكذا، حتى كنت أشعر برغبة في فتح باب السيارة المسرعة والقفز منها.

أخذ "جوي" يقلب في محطات الراديو، ولكنه لم يجد ما يعجبه، وهو ما أراحني، فقد كنت مستكينًا إلى هدير المحرك الرتيب. أتوق إلى نهاية اليوم، عندما تنتهي مبارياتي وأعرف ترتيبي الحقيقي. كان "جوي" قد طبع قائمة تضم أقوى أربعين مصارعًا في فئة الخفيف (لكل اسم تاريخ ميلاد ووزن)، ولكن أهمهم العشرة الأوائل، وأهم الأهم المصارع رقم واحد. ما زلت أتذكر

عندما سمعت اسمه لأول مرة. وضع "جوي" إصبعه على القائمة، وكأنه يشير إلى حصن عدو خفي في خريطة.

- "إسلام منصور". هو ده الراجل بتاعنا. ملك مصارعة الريست. طوله متر وسبعة وسبعون، لكن وحش. أيه رأيك، شايف إنه الخصم اللي يستحقه "فرانكي الدراع"؟

ضحكنا على المفارقة؛ من "هيني أوسترلو" إلى "الملك منصور". كنت متحرقًا لأن أراه وهو يلعب: "إسلام منصور"، الليبي الذي يهزم مصارعي الوزن الثقيل بسهولة. كان "جوي" يأتيني خلال التدريبات بمعلومات عنه. يقال إنه مولود في خيمة في الصحراء، ولكن لا أحد يعلم تاريخ ميلاده يقينًا. عرف عن هذه الرياضة أثناء وجوده في الخدمة العسكرية مع كتيبة أجنبية في جيبوتي. وصار يهزم الكل في المباريات التي تجرى في المقاهي. بعد انتهاء خدمته العسكرية، انخرط في ممارسة رياضة كمال الأجسام في أوروبا. كان يلعب مصارعة الريست للترفيه ليس إلا، فلم يبالِ كثيرًا عندما فاز ببطولة العالم في اللعبة. ويعتبر "منصور" بطلًا في بلده الأم، ولكنه يعيش الآن في إحدى ضواحي "مارسيليا". اسمه وحده يثير أمورًا كثيرة في نفسي؛ فأنا بالطبع ربطت بينه وبين الفارس الياباني "موساشي". "إسلام منصور" هو قديس الذراع، تمامًا مثل قديس السيف، الذي لم ينهزم قط.

توقفنا عند محطة "شل". هذه السيارة تستهلك الكثير من البنزين. لمحت في المرآة الخارجية "جوي" وهو يضع فوهة خرطوم البنزين في التانك، ثم يرفع رأسه ليراقب الارقام التي تتعاقب في واجهة المضخة. مرت دقيقتان قبل أن أجده يحدثني من النافذة:

- تشرب حاجة، "فرانكي"؟ ولا تحب واحدة شوكولاتة مارس؟

راقبته وهو يدخل المحطة. وعاودني الشعور الكئيب الذي يلازمني مؤخرًا، مشاعر متضاربة، وكأن شيئًا سيئًا قد حدث. ذلك كان حالي في تلك اللحظات،

وأنا أتأمل جينز "جوي" الذي يكاد ينزلق عن فخذيه. دائمًا ما يملأ جيوب الجينز بأشياء كثيرة، حتى تكاد تلك الأشياء تسقط منها، ولكن في تلك اللحظة، وعندما افتتح بابا المحطة ومر هو عبرهما، تنبهت حواسي بغتة. وجدت ارتباطًا بين ما أراه واستراتيجية "أن تكون صخرة". وجدت غرابة، خاصة وأنني كنت قد بدأت أحاول الحفاظ على بعدي عن أشياء "بي جي". أنا أحيانًا أعايش أمورًا وكأنما حدثت في الماضي بالفعل، وعندئذٍ انفعل. ولكني في بقية الأوقات أقرب إلى صخرة ساكنة. أو أحاول أن أكون كذلك. وهو أمر صعب.

دخل "جوي" إلى السيارة.

- لو عايز الحمام قولي... أوكيه؟

أصدر محرك السيارة الكسول طنطنة عميقة كانت تسري في هيكل السيارة حتى تصل إلى عظامي. لم نتوقف ثانية إلا حينما وصلنا إلى "ماستريخت"، حيث كنا نضطر للوقوف في إشارات مرور، ومن بعد ذلك كانت اللافتات تشير إلى أننا في الطريق إلى "لييج"، التي لم يبقَ عليها سوى سبعة وعشرين كيلومترًا. ووصل توتري إلى ذروته.

- عايز الحمام؟

هززت رأسي أن لا. وساد الصمت بيننا بعدها لبرهة من الوقت.

- دي مجرد لعبة. مجرد لعبة. ومش هنخسر حاجة في كل الأحوال. ومن عارف ... يمكن نكسب حكاية لطيفة.

نظرنا إلى بعضنا وابتسمنا، مثل عجوزين خطرت لهما ذكرى مشتركة قديمة. انشغل بالي بذلك الموقف الذي يمكن أن يمثل حكاية لطيفة. من المؤكد أن الهزيمة في "لييج" لا تعتبر حكاية لطيفة. فهناك الكثير على المحك الآن. ومن بين ذلك الإيمان، والتأكد من قدرتنا على تحويل الفكرة إلى واقع من لحم ودم، ومعرفة ما

إذا كنا سادة ذواتنا أم عبيدًا لها. وأمور مثل "**القتال لأجل الحياة، ولاكتشاف معنى الحياة والموت، وتعلم أسرار السيف**"، كما يقول "كينسي".

دخلنا "لييج". الآن بلغت نرفزتي ذروتها. سأل "جوي" المارة عن الطريق بالكلمات الفرنسية التي تعلمها في المدرسة، وكلما اقتربنا من وجهتنا زاد تقلص أطرافي من فرط العصبية. سوف نخوض تلك المغامرة إذن، ومهما كان عدد المباريات التي خسرتها في ذلك اليوم، فإنني سأجلس الآن إلى الترابيزة المعدنية لأتحدى لاعبين لم أرهم في حياتي من قبل. كرر "جوي" لنفسه توجيهات الطريق التي سمعها ممن سأله، وقاد السيارة - التي صارت تعرف في "لومارك" باسم (قبر سبيدبوت المتحرك) - عبر الشوارع الواجمة. يبدو أننا دخلنا في طريق خطأ، وحاول "جوي" أن يبقى هادئًا وهو يتمتم:

- ثلاث مرات شمال ترجعنا يمين.

يبدو أن نرفزته مثل نرفزتي. ليس مثلها تمامًا، ولكنها نرفزة بالتأكيد. لقد رتب لهذا الأمر كثيرًا وطويلًا.

وصلنا إلى "متروبول كافيه" قبل بدء البطولة بساعة. بالمكان قاعات للبلياردو، ولعبة التصويب بالسهام الصغيرة، وقاعات للرقص، وقاعة لمصارعة الريست. أمضينا وقتًا طويلًا في البحث عن ركنة تكفي هذه السيارة الأولدزموبيل الغريبة. رأيت حول الكافيه سيارات تشير ألواحها إلى أنها من فرنسا وألمانيا وإنجلترا. تصلبت ذراعي اليسرى حتى صارت مثل العصى، بينما لم تتوقف اليمنى عن التشنج، حتى يظن من يراني أنني أتعمد أقوم بالتحية الفاشية من دون توقف.

دفع "جوي" عربتي عبر الشارع، ومن ثم إلى الرصيف، ومنه عبر البوابة الأمامية. وجدنا أنفسنا في ممر ضيق ينتهي بسلم، والباب المفتوح عن يميننا يقود إلى الكافيه. خلف البار رجل له شارب مبالغ فيه، منهمك في تلميع المرآة. سأله "جوي" عن المكان المنشود. رفعت نفسي من مقعدي وبدأت أتسلق السلم.

خطوة خطوة، إلى أعلى. طوى "جوي" العربة وحملها وهو يصعد خلفي. لما وصلت إلى أعلى كنت غارقًا في عرقي الذي يسيل عبر ظهري؛ كان مزيجًا من سموم التبغ والبيرة يخرج في صورة حبات عرق عبر مسامي. أما رائحة الدرج فهي مزيج فاخر من روائح السيجار والسجاد.

وجدت نفسي في ممر معتم جدرانه خشبية بنية. في نهايته باب. انفتح الباب فتدفق الصخب. سمعنا أصوات الكؤوس والأكواب، وصيحات، وأشياء ثقيلة تنزلق عبر أرضية خشبية.

القاعة منخفضة السقف وبها عشرات الكراسي المتناثرة في المكان، وبها قرابة المئة شخص. تقبع عند السقف شبورة من دخان السجائر. رأيت رجالًا تميزهم الوشوم والعضلات المفتولة أسفل صديرياتهم المحكمة والتيشيرتات من دون أكمام. في وسط القاعة يقبع المحراب الذي عليه تمارس عليه طقوس اللعبة؛ الترابيزة المعدنية بمقبضيها المنتصبين. ذهب "جوي" يبحث عن المنظمين لأجل التسجيل. اعتصرت مسند ذراعي في العربة حتى أمنع سريان هذه التشنجات في جسدي كله. كم أتوق إلى سيجارة، أو إلى كوب بيرة... أنا لا أذكر أني قد حضرت إلى هنا بإرادتي الحرة. عندما عاد إليَّ "جوي" أشرت له أني أحتاج سيجارة، فأشعل واحدة لي ودسها بين شفتي.

– نظام البطولة خروج المغلوب. تخسر مرة باي باي. البداية بوزن الخفيف، وبعدها التقيل. الرهانات تبدأ قبل الماتش، والماتش بيبتدي بكلمتين... ريدي... جو... إنت كويس؟

أومأت برأسي أن أجل.

– البداية مع... شوف... "جاستون برافو". سمعت واحد بيقول إنه من هنا. من نفس المدينة. عشان كده عايزك تتجاهل الزيطة اللي هتبقى حواليه. أنا هاساعدك تقعد على الكرسي، وانت بس عليك تركز في أول ماتش. ومتنساش.. "توت توت"... أوكيه؟

***

سحب السيجارة من فمي ونفض رمادها. يتجول الندلاء حاملين الصواني، بينما الكل يتحدث بصوت عالٍ وسط صخب تنافسي، والأجواء كلها أقرب إلى أجواء عرض جانبي. وقبيل المباراة الأولى زادت وتيرة الصخب، مع توجه رجلين إلى الترابيزة. وبدأ جمع الرهانات. واتخذ الحكمان مكانيهما على جانبي الترابيزة. ريدي... جو... وبدأت المباراة. كانت القاعة أصغر من أن تتحمل عاصفة الضجيج التي هبت في تلك اللحظة. عاصفة عاتية كفيلة بأن تحيي الموتى. واضح أن أحد المتصارعين لاعب كمال أجسام، بينما الآخر أقرب إلى المزارعين وافري الصحة. وكم كنت سعيدًا لفوز ذلك المزارع بالجولة الأولى؛ فمظهره لم يكن أقوى من الآخر، ومن مصلحتي أن تكون المظاهر خداعة.

سهولة فوزه بالجولة أفقدت لاعب كمال الأجسام أعصابه، وانتابته ثورة غضب ذكرتني بتلك الحالة التي يكون عليها "ديرك" كلما استفزه أحدهم. استمرت الجولة الثانية مدة أطول، ولكن المزارع فاز مجددًا، لينتقل إلى المرحلة التالية. وخرج الخاسر من القاعة في غضب، وهو يدفع أمامه فتاة رقيقة جميلة الطلة نحو الباب.

لا تزال هناك خمس مباريات قبل مباراتي. هؤلاء المتصارعين أقرب إلى عصابة من الأوغاد مفتولي العضلات الذين يمكنك أن تستنتج بسهولة أن حياتهم لا تنطوي إلا على مجموعة من ممارسات البلطجة على بقية البشر الذين يوقعهم الحظ العاثر بين براثنهم. وبالتالي من المنطقي أن تروق مصارعة الريست لهم. يضطر من يخسر منهم إلى أن يلتقم حجرًا فيخرس، ولكنك تعلم أنها مسألة وقت قبل أن يعمدوا إلى ترميم كرامتهم التي تبعثرت، فيبدأوا في إلقاء اللوم على "الفورمة" التي افتقدوها ساعة المباراة، أو على الخصم الغشاش، أو الحكم الذي أصابه العمى فلم ينتبه للمخالفات. وستبادر زوجته وأولاده في التأمين على كلامه وتطييب خاطره تحاشيًا لما هو أسوأ.

أوكيه. ربما لا يكونون جميعًا بهذا الانحطاط، ولكن على الأقل نصفهم كذلك بالتأكيد. وكنت سعيدًا وأنا أرى بعضهم يخسر. سألني "جوي":

- جاهز؟

أجل، فلهذا حضرنا إلى هنا،ولكنني فكرت في لحظة أن أرفض، أو أن أنسحب من المباراة. دفع "جوي" العربة إلى حيث الترابيزة. بدأ الهدوء يسري حولي، وكنا ندرك أن المتفرجين من حولنا لا يعرفون من منا سيكون المصارع. ولا بد أنهم كانوا منهدشين؛ فإذا كان "جوي" هو المصارع، فماذا يفعل شخص مثلي في هذا المكان من الأصل؟! ولكن عندما بدأت أرفع جسدي عن مقعد العربة، وأميل إلى الكرسي لأستند عليه بيد واحدة، همس أحدهم بكلمات ما، سرعان ما علت نبرتها و"جوي" يساعدني على الجلوس فوق الكرسي المنشود. كان المعلق يصيح في الميكروفون بالفرنسية:

‘Mesdames et messieurs!’ … ‘François le Bras!’

"فرانسوا لو برا"، أهذا أنا؟ من الواضح أنه أنا، لأنه استمر وأعلن عن اسم خصمي. "جاستون برافو". نظرت إلى "جوي"، فوجدته يضحك. ياله من مأزق. كانت المشكلة الوحيدة هي أن خصمي لم يحضر إلى الترابيزة. أراه في الصف الأول. وأعرف أنه هو، لأن الآخرين كانوا يدفعونه إلى الأمام.

‘Allez, Gaston!’

أصدرت حكمي عليه بسرعة: هو أحد أبناء المهاجرين، وعمره أصغر من أن يكون عاملًا في منجم، وبالتالي فهو بالتأكيد عامل في مكان ما (عرفت فيما بعد أنه يعمل على خط إنتاج في أحد مصانع الذخيرة في "لييج"). وهو وسيم (شعر أسود وعينان واسعتان).

ذهب أحد الحكمين ليعرف سبب تأخره. كان "برافو" يشير نحوي وهو يعترض بصوت عالٍ. الآن فهمت أنه لا يريد أن يصارعني. لا يريد أن يصارع

معاق. نفس المنطق الذي يمنع فريق كرة قدم رجالي من مواجهة فريق كرة قدم من السيدات. حاولت أن ألفت انتباه "جوي"، فأشار إلي أن أهدأ؛ فهذا الارتباك في مصلحتنا. وبعد جدال، وافق "برافو" على اللعب. لم ينظر إليَّ، وجلس وثبت مرفقه إلى موضعه في الترابيزة. فعلت مثله، وأمسكت بيده. وجدتها يدًا مرعبة، وسرت موجة من خيبة الأمل في كياني. وشعرت أنه لا يأخذ المباراة على محمل الجد لأن الجالس أمامه معاق. وكم كان هذا مؤلمًا. كنت أتوقع الكثير من المصاعب، ولكن ليس هذا النوع من المصاعب. منعت نفسي من النظر إلى "جوي" طلبًا لتشجيعه، وصممت على أن أخوض هذا التحدي وحدي.

ريدي... جو!

انقضضت بكل قوة، لأثأر لنفسي من تلك الإهانة. صار قريبًا من الخسارة بالفعل في اللحظة التي انتبه فيها مندهشًا لما يجري وحاول أن يقاوم، ولكن الأوان فات... 1... صفر. جن جنون المتفرجين، فكلهم راهنوا على فوز "برافو"، وأخذوا يصيحون فيه بذلك النهم الممزوج بالذعر والذي لا تجده إلا في سماسرة البورصة. لذلك كان "جاستون برافو" مستعدًا لخوض الجولة الثانية بطريقة مختلفة.

ريدي... جو!

ها هي يده تعلو يدي. عضلات الباي عنده قوية، يدعمها جذع منحوت كما ينبغي أن يكون؛ فاضطررت إلى التراجع قرابة عشر درجات، ولكن ليس أكثر. ومن دون أن أنفعل أجبرته على الارتداد شيئًا فشيئًا. وصارت يده تحت يدي، فانقضضت في هجوم كاسح حتى استسلم. "فرانسوا لو برا" 2... "الوسيم" صفر. هذا هو أول انتصار رسمي لي، ولكني لم أشعر بأي سعادة. إنه لم ينظر في عيني ولو مرة، ولم يعتبرني إنسانًا، بل نكرة معاق، فتغلبت عليه بقوة الكراهية. وأعتقد أنه لم يهتم؛ فشخصي لا يمثل بالنسبة له ذلك الخصم الذي يفخر بهزيمته.

أما "جوي" فكان يصيح فرحًا:

- "فرانسوا لو برا"... نجم المشهد! ما كانش عنده أي فرصة... أي فرصة... مالك؟

تحاشيت النظر إليه، فعيناي كانتا تشعان غضبًا وغيظًا. وقف "جوي" متحيرًا. هو فاز بأول مباراة ولكنه مخذول من رد فعلي.

بادرني "جوي" بعبارات متتالية سريعة:

- "فرانكي"، اسمعني، السبب الوحيد اللي وصلك لحد هنا هو الكرسي المتحرك ده، فاهمني؟ من غيره ما كانش هيبقى عندك الدراع المعجزة دي. دي نتيجة ده. ولو حاول وغد من الأوغاد إنه يعايرك بيه بأي طريقة حقيرة فأنت في كل الأحوال لازم تتوقع ده، مش كده؟ إيه الجديد يعني؟ فكر في خطتك وبس! الناس اللي بتتفرج على ما خدت بالها إنك على كرسي متحرك كنت إنت فايز في أول جولة! إنت هزمته هزيمة منكرة! أرجوك حاول تستوعب ده!

حاولت أن ابتسم. ربما كان من الأفضل ألا أغضب من نظرة الناس لي هنا. ربما كان عليَّ أن أستفيد من هذه النقطة. مثل دواء مر عليَّ أن أتجرعه. **"اليوم انتصار على ذاتك التي كانت بالأمس، والغد انتصار على ما أنت عليه اليوم"**... "جو رين نو شو". متى بحق السماء أستوعب حكمة كهذه، بدلًا من أن أبقى منبهرًا بها وحسب؟

- تشرب بيرة؟

انتبهت عندئذٍ إلى أن ذراعي عادت تتشنج من جديد.

أجل، أحتاج إلى البيرة، وأحتاج إلى وقوفك بجانبي يا صديقي.

***

كانت المباراة التالية ضد المزارع الذي شاهدته يكسب في البداية. طبيعة قوته مختلفة عن قوة "هيني أوسترلو" و"جاستون برافو": هو يعتمد على قوة تحمله أكثر، وكأنه قادر على الاستمرار في النزال لساعات من دون كلل، مثل

البغل في قوته وصبره. غير أن هذا لم يكن ليكفيه، وقد أدركت ذلك مع إحساس كان مزيجًا من الانتصار والأسف (فقد بدا لي شخصًا محترمًا). لقد تغلبت عليه في أقل من دقيقة. فابتسم، وعدل من وضعه فوق الكرسي، قبل أن يضع ذراعه للجولة الثانية. ومجددًا، كانت يدي فوق يده.

عليك أن تكتسب تلك الروح الساحقة لتتجسد في قبضة يدك.

واجهت مقاومته بتصميم.

يجب أن يكون نصرك ساحقًا ماحقًا.

صار قاب قوسين أو أدنى من الهزيمة.

أهم شيء ألا تسمح له باستعادة وضعيته ولو لثانية.

من دون الانتصار الساحق سيعود إليك.

(موساشي)

وهكذا، سحقت المزارع، ولكن لم أرَ في وجهه أي خيبة أمل. نهض عن كرسيه، ودار حول الترابيزة، وجذب يدي مهنئًا. تقبل هزيمته مثل قديس، وصافحني وكأنه يغفر لي هزيمتي له. كم كنت أود لو أني قادر على أن أعبر له عن اعتذاري، أو أن أعيد المباراة مجددًا لأتركه يهزمني، لمجرد ألا أشعر بالذنب تجاهه.

- مان... وصلنا قبل النهائي. استوعبت دلوقتي؟

عقب خمس عشرة دقيقة أدركت أن خصمي التالي من منطقة "والونيا" البلجيكية، وقد شاهدته يفوز من قبل. يرتدي خاتمًا ذهبيًا واحدًا على الأقل في كل إصبع من أصابعه المتعرقة، وكذلك يضع في كل إبهام خاتم. سيكون عليه أن يخلعها جميعها قبل المباراة، ليعود فيرتديها مجددًا بعد ذلك. لواحدة من أسنانه الأمامية إطار ذهبي كذلك. من يراه يظن أنه كتلة من سخام وزيوت وحسب. ومن الصعب أن تحكم على مدى قوته.

بادر كلانا بالهجوم ما إن سمع أمر البداية من الحكم. وبعد نصف دقيقة تيقنت من أننا نتبع نفس التكتيك. تركته يهاجم، فلم أجد داعيًا للتعجل. فالتعجل يكون عندما تخشى الخسارة. وكان كتلة السخام والزيت يحدق في طوال الوقت بعينين ضيقتين. وجدت أنه ينفذ إحدى استراتيجيات "موساشي" ولكن من دون أن يعرف هو نفسه ذلك؛ فأنا لا أظن أنه مطلع على أساليب القتال اليابانية. حافظ على الضغط المتواصل في النصف الخاص به من المثلث، ولذلك أحسست أنه متردد. يبدو أنه يدخر حركة معينة ليستخدمها ضدي في اللحظة المناسبة، وطالما كانت يده أعلى يدي فالأفضلية ستكون له. لذلك أول ما عليَّ القيام به هو تصحيح هذا الوضع.

أغلقت عينيَّ وأحنيت رأسي، ولحظتها شعرت بتأثير ذلك البريق، تلك الأداة الخفية التي تضاعف القوة لمستويات هائلة فجأة، وهكذا عادت يدي في مواجهة يده فوق سطح الترابيزة. كان عليَّ أن أنتبه إلى أنه تركني أفعل ذلك بسهولة زائدة عن اللزوم، فما أن تساوت الكفتان حتى قام بهجمته المرتدة. لقد كان ينتظرني حتى أبادر، ومن ثم طبق عليَّ مبدأ "تاي تاي نو سين" (رافقه ثم اسبقه)، وبطريقة تنم عن أنه أستاذ. فتحت عينيَّ فوجدت أمامي ابتسامة ذهبية واسعة، بينما جسدي مائل وخائر القوى.

نبهت نفسي أن أحافظ على هدوئي. فأنا لم أخسر بعد. أخذت أتنفس بعمق. هذا خصم عليَّ أن أصارعه مثل الصخرة. ودخلنا في الجولة الثانية، وصمدت أمام هجومي الافتتاحي. صار أكثر ثقة بنفسه الآن، وبذل قوة أكبر من الجولة السابقة. هو الآن مثلي أنا في الجولة الأولى، وبالتالي توقعت ما يخطط للقيام به. نظرت إليه فوجدته يغلق عينيه بقوة. بالفعل.. هذه صورة معكوسة تمامًا للجولة الأولى!

لن أكمل لك حكاية ما جرى إلا بعد أن أشرح لك أن مصارع الريست يشعر بفيض مستمر من التوترات العضلية، وهو يتراوح ما بين الخفة والشدة الطاغية، ومن المهم أن ينتبه المصارع إلى تلك التغيرات في الضغط. أنت تشعر بها مثل انحسار الموجة أو صعودها. و"موساشي" يقول إن على المقاتل في

المبارزة أن يعمل على أن يغير خصمه من موضعه، وأن عليه أن يستفيد من هذا الإيقاع غير المنتظم.

فرحت لما وجدت قوة رجل السخام والزيت تتزايد، فهو يريد أن يهزمني بسرعة. ولحظة أن وصل ضغطه إلى ذروته تراخيت لبضع درجات فحسب، بما يكفي لإحداث تعديل طفيف ليس إلا، وكانت تلك اللحظة المناسبة. فقد وضعت كل قوتي مرة واحدة، وأجبرته على الانهيار بحركة واحدة. أطلق آهة يائسة، ولكن يده كانت قد استسلمت فوق سطح الترابيزة.

أطلق المتفرجون صيحات عدم الرضا والغضب، ولمحت بطرف عيني "جوي" وهو ينهار فوق مقعده بكل ارتياح. نظر رجل السخام والزيت إلى مشجعيه، شلة من المتزينين مثله بالذهب، يحدثون هرجًا شديدًا وكأنهم مجموعة من الرعاة يسوقون قطيعًا من الثيران الأمريكية الهائجة.

اتخذنا وضع الاستعداد للجولة الثالثة الفاصلة. نظرت إليه من نقطة ما في داخلي، فرأيت شيئًا لم أكن قد رأيته من قبل في أي مصارع هزمته، المهانة. يمكنني أن أراها تطفو حول أنفه وفمه، وكأنها ندبات تشير إلى نفس مكسورة. أدرك الآن أنه سيشن هجومًا كاسحًا، وأنه سيثبت لشلته أن الجولة الثانية ليست سوى غلطة سخيفة، وأنه سيمحوها وكأنها لم تكن.

عندئذ، أقدمت على حركة أربكته؛ قربت فمي من أعلى ذراعي وأمسكت كم سترتي بين أسناني. أخذت أجذب وأجذب حتى رفعت الكم إلى ما فوق عضلة الباي، ثم وضعت ذراعي في المربع. زاد تقلص عضلات وجهه، لقد فقد رباطة جأشه تمامًا. ويبدو أنها كانت مجرد قشرة ظاهرية ضعيفة. أنا الآن أرى "إدراك الانهيار". كل شيء قابل للانهيار، كما قال "كينيسي" في الأسابيع الأخيرة قبل أن يموت. **المنازل، الأجساد، والأعداء، كل شيء ينهار لحظة أن يختل الإيقاع**. ونصيحته هي أن تنقض على خصمك من دون رحمة ما إن تلمح ذلك الانهيار فيه. **ركز نظرتك على انهيار خصمك، طارده، ولا تسمح**

له بفرصة ليلتقط أنفاسه. يجب أن تكون المطاردة الهجومية بروح قوية، وعليك أن تسحق خصمك تمامًا فيستحيل عليه استعادة موقعه.

أشكرك... "كينيسي".

هاجمنا بعضنا في ذات اللحظة. أمال رأسه ودفع جسده بكل قوة. انقضاضة ثور. أغلقت عينيَّ، اندفع فيهما ذلك البريق مثل بحر أسود عارم، طوع أرادتي تمامًا. أدركت أن هذا هو نفس الغضب الذي تملك جدي "هيند هيرمانز" قبل أن يحطموا رأسه. إنه يسري في العائلة مثل صفة وراثية التصقت بها. حتى بزغ أقوى ما يكون في "ديرك" وفيّ أنا.

بدأت أحرك ذراعي للخلف وللأمام، مثلما تؤرجح سيارة حتى تخرجها عجلاتها من رمال غرزت فيها... أمام وخلف... توت توت... أمام وخلف. دار بيننا صراع شرس، وصارت يدانا مثل دوامتي هواء في صراع راقص وسط السماء، وناورته حتى حانت منه ثغرة تكفي للانقضاضة الساحقة، ثم ... توت! سحقته. خارت قواه. وعندما تركت يده، وجدتني أسقط عن الكرسي منهكًا.

ولأول مرة في ذلك اليوم، أشعر بأن لي كيانًا. قفز "جوي" عن كرسيه واحتضنني بكل قوة.

صرت الآن مثل أسد مفترس ذاق طعم الدم.

أريد المزيد. لقد وصلت إلى تلك النشوة الكامنة في جوهر الوجود الإنساني: الصراع والانتصار.

كان "جوي" يهز رأسه في جذل وهو يردد:

- إنت سوبر... سوبر.

شعرت وكأن روحي ترتفع نحو السقف، دافئة وخفيفة مثل ريشة. لقد وصلنا إلى المباراة النهائية.

- اتفضل، مان. اشرب البيرة. جسمك بيرتجف زي ورقة في الهوا..

ولأول مرة أيضًا، سمعت أحدهم يراهن عليَّ. يتداولون الأوراق النقدية بخفة وسرعة، وقال أحدهم إن المخاطرة كبيرة، وإن من غير الممكن أن أتغلب على المصارع المتبقي؛ "محمد كوش"، فهو مصارع لا يشق له غبار. رأيته يلعب مع مصارع أسود من "بورتسموث"، وانبهرت. "كوش" مصارع تركي غزير شعر الصدر، حتى أنه يبرز من فتحة قميصه وكأنه ذقن ثانية. سألني "جوي" بنبرة صادقة خافتة:

- إيه رأيك؟

عضضت شفتيَّ لأبين له أنني مصمم على الاستمرار للنهاية.

نادى المعلق على "كوش"، ثم عليّ، فسمعت صيحات متضاربة امتزج فيها الاستهجان بالتشجيع. فعلى الرغم من أن كل المتابعين متفقين على أن فرصتي معدومة، فإنني نجحت خلال المباريات الأخيرة في اقتناص تعاطفهم.

لن أطيل عليك في حكي ما جرى. لقد سحقني ذلك العملاق التركي مرين وبكل قوة. هذه المرة صح توقع المتابعين، بعد أن كنت أخيب آمالهم في ما سبق من مباريات. لم تكن هناك من استراتيجية ممكنة مع "محمد كوش"، فهو ببساطة أقوى مني بكثير... بكثير. مع أني بذلت أقصى ما لديَّ من مقاومة. بل أصارحك أنني شعرت بالإثارة للطريقة التي سحقني بها التركي؛ نموذج لقوة وجمال موجة تنقض عليك فتطيح بك ولا تتركك إلا وأنت تتلوى تحت الماء.

إذن، يلزم علي أن أكون أقوى. وأن أتدرب وأتدرب. وألا أستسلم أبدًا. ولكني ربحت جائزة المركز الثاني أيضًا. أول جائزة لي! بعد أن غيرنا العملة على الحدود، تقاسم "جوي" معي مبلغ الجائزة، وعلى وجهه ارتسمت ابتسامة عريضة. ابتسامة مقامر رابح. في جيبي الآن خمسة آلاف... أكبر مبلغ أكسبه في حياتي.

34



لما عدنا إلى القرية، وإلى منزلي، وجدت أن كل شيء له علاقة بالكباس والورق اختفى وكأنه لم يكن، ولم يبق من كل تلك الأيام الطويلة سوى بعض بلاطات داكنة كانت تحمل فوقها الكباس والغسالة. ولم أجد كذلك تلك الأرفف عند جدران بيتي. والجميل أن أحدًا لم يعلق عليَّ على ذلك. ممتاز. وبالنسبة لي، فسوف أتظاهر أن كل ما حدث لم يحدث.

لم يكن ذلك الألم الحارق الذي انتشر في ساعدي بعد البطولة بست وثلاثين ساعة إلا تورمًا عضليًّا سيدوم بضعة أيام؛ ولكن الألم الأشد والذي دام لفترة أطول فهو الذي عانيته في أوتار عضلات "الباي". قبعت في المنزل من دون حراك، عاجز عن أن أحرك نفسي في أي اتجاه. فحتى أبسط مجهود يسبب لي عذابًا أقرب إلى طعنات ألم قوية مثل تلك التي شعرت بها في عرق النسا كلما كان جسدي يزداد طولًا في سنوات المراهقة. وكان من الضروري أن تقلق ماما:

– لا يمكن أن يكون ما تفعله في مصلحتك. انظر إليك.

وزاد قلقها حينما وضعت لها عشر ورقات من فئة مئة فوق الترابيزة. بادرتني بحدة:

– ما هذا؟ أنا لا أريد منك مالًا، فأنت ابني، وأنا لن...

ألقيت يدي فوق الترابيزة. وكتبت لها... "خذيها... ليس مبلغًا كبيرًا".

- ألف! وتقول إنها لا شيء! سوف أضعها في حصالتك، وإلا فأنت تعرف من الذي سيصرفها على الفاضي.

- "ماما... الفلوس دي ليكي إنتي. أنا عاوز كده".

تأملتني طويلًا، فبادلتها النظرات بأخرى امتزج فيها التودد بشيء من الغضب. أومأت برأسها، وتناولت النقود ورقة ورقة، وصنعت منها لفة صغيرة، وهي تتمنى بصوت عالٍ ألا تكون عواقب تلك النقود وخيمة. دست النقود في جيب مريلة المطبخ.

***

حضر "جوي" خلال راحة الغداء ليطمئن عليَّ. قام بتدليك ذراعي بمرهم "كف النمر". وبعد أن ملأ لي برطمان المستردة بالسجائر البفرة، عاد إلى عمله.

كانت الشمس تسابق الغمام في توالٍ رتيب، جعل بيتي يمر بفترات ثابتة من النور والعتمة، وهي ظاهرة طالما أصابتني بالوجوم منذ أن كنت طفلًا. وفي الخامسة والربع عاد "جوي" إليَّ.

- مان... المكان عامل زي بيت مسكون. ما خرجتش النهاردة؟

ما هي إلا دقائق حتى كان يتمشى وهو يدفع عربتي فوق الرصيف المجاور لسد النهر. السماء بلون الزنك، والغمام يمتص كل ضوء يمكن أن يهبط على الأرض السبخة. لم يبقَ سوى بصيص من ضوء الشمس عبر فتحة مسكينة في الأفق. سرب من الزرازير يبحث عن مكان ليبيت فيه، بينما النوارس تتناقر فوق الحقول السوداء، وعلى البعد ستار من المطر الخفيف يهطل على استحياء. غمرني إحساس قرب الشتاء.

***

مر اثني عشر يومًا قبل أن أكون جاهزًا للدخول في التدريبات الخفيفة. وجدت راحة في ذلك. انشغالي في التدريب المكثف لعضلاتي علاج لما في نفسي من ظلمة. الدمبلز. وجود تلك الروح المحايدة المتمثلة في "هيني أوسترلو". بطولة "لييج". كل هذا أيقظ في نفسي القدرة على الفعل. الحركة تحرر عقلي، مع كل دفقة إندروفين تحفز سريانها في جسدي. كانت تلك أول فائدة أستشعرها من مصارعة الريست. أما ثاني ما عرفته عن نفسي بسببها فهو أني صاحب طموح لا يشبع. ولا علاقة لفلسفة "كيني" بذلك؛ بل هو ذاك الغضب والتعطش للدم، والآن فهمت لماذا توصف بعض الرياضات بأنها مذابح رمزية.

انشغل عقلي بالبحث عن الأسلوب الأمثل لقهر عمالقة مثل "محمد كوش". كيف يمكن لي أن أتغلب على جبل من رمال بمجرد ريشة؟... ذلك هو السؤال.

لم أجد أمامي إلا حلًا وحيدًا، الحُقن. اقترحت هذا على "جوي"، ولكنه لم يوافق أبدًا على إضافة هذا العلاج القاسي برنامج التدريب.

- طالما كنا قادرين على الوصول للمستوى اللي إنت وصلت له في "لييج" بعد مجرد شهور بسيطة من التدريب، فده معناه إنك لسه ما وصلتش لأقصى حدود قوتك الطبيعية.

هكذا قرر زيادة جرعة مكملات البروتين، ومجموعات التدريب، ومرات التكرار، وأعطاني برطمان كيراتين، وهي مادة معززة للأداء البدني تستخلص من أنسجة الحيوانات.

- اعتبرها هدية عيد ميلادك... مقدمًا.

يقولون إن النشاط البدني المركز ينشط هرمونات التستستيرون. وربما لهذا كنت أحلم كثيرًا بـ"بي جي" في تلك الفترة. كانت أحلامًا رومانسية، وليست جنسية. فهل يمكنك أن تحلم بالجنس وأنت لم تمارسه في الحقيقة أبدًا؟ ما أتذكره من تلك الأحلام عبارة عن مشاهد صراع عنيف منهك تجمع بيني وبين رجال آخرين قبل حتى أن ألامس جسدها. ولكن تلك اللمسات بعثت في جسدي

مشاعر شديدة الحلاوة، لدرجة جعلتني متيقنًا من وجود تلك المشاعر في الواقع أيضًا. كانت تتلوى بجسدها بطريقة تواري عني الأجزاء التي أريد أن أراها منها. هكذا كان الحلم يراوغ عقلي، ويتلاعب به.

ما أكسب تلك الأحلام خصوصية هو أنني أرى نفسي فيها سليمًا... أمشي، وأركض، وأتقافز. أجد جسدي كاملًا مثاليًا وهو يلاصق جسدها.

أتاني "جوي" بخبر أن "بي جي" في منزل عائلتها، وأنها "تعبانة". كان يقصد من كلمة تعبانة أنها تعرضت لضرب مبرح من حبيبها الكاتب. فقد اعترته موجة غضب مجنون حطم خلالها المنزل والحديقة، وصدغ حبيبته. لجأت لمنزل والديها لأيام من دون أن تريهما وجهها وما جرى له. وجدت ارتباطًا أقلقني بين العنف الذي رأيته في أحلامي وما فعله حبيبها المجنون.

رحت أنا و"جوي" إلى كشك أزهار "أكاسيا" في شارع "بريد"، واخترنا باقة امتزج فيها اللون الأحمر بالأبيض، وطلبنا توصيلها إلى البيت الأبيض. علق صاحب الكشك:

- الأفضل اختيار درجات لون خريفية للأزهار.

ولكننا تجاهلناه، وكأننا لم نسمعه.

- طيب... تحبوا تكتبوا حاجة؟

نظر "جوي" إليَّ.

- إنت خبير في الكتابة.

ناولني صاحب الكشك بطاقة مطوية بها ثقب. وكتبت:

نحن بجانبك

صديقان

"جوي" و"فرانكي".

- إيه اللي كتبته ده؟ مش أحسن تكتب "ألف سلامة" أو تمنيات من النوع ده؟

هززت رأسي رافضًا. أنا واثق تمامًا في قدرة "بي جي" على فك شفرة الرسالة؛ ستفهم منها أننا موجودان في حال كانت بحاجة إلينا، وأننا نفكر فيها من دون أن نتثاقل عليها. هذا قصدي.

***

كانت البطولة التالية، في حي شعبي من أحياء "فيينا"، مهزلة. لن أحكي عنها بالتفصيل لأنها كانت مجرد عثرة لا علاقة لها بمنحنى تقدمي الصاعد بشكل دائم منتظم. فلا معنى لأن أصيبك بالملل بتفاصيل عن تلك البطولة. كانت هزيمة أقرب إلى مفارقة منطقية، لأنها كانت في فترة مررت خلالها بتطور عضلي هائل. وهو من النوع الذي منحني قوة أكبر على المدى الطويل، ولكنه تسبب في تراجع في الكفاءة العضلية على المدى القصير. ذلك باختصار سبب خسارتنا في "فيينا". آه، نسيت أن أذكر لك الميزة الوحيدة من تلك البطولة، وهي ظهور صورتي في صحيفة لأول مرة في حياتي. صورة تظهر فيها ذراعي منتفخة العضلات والعروق، ومن فوقها رأس توترت ملامحه حتى كاد ينفجر. وإلى أن جاء وقت انتشرت فيه الصورة بين الأصدقاء والمعارف في "لومارك"، كان "جوي" قد اشترى رزمة كاملة من ذلك العدد من صحيفة "فاينر تزايتونج". وعندئذ صارت القرية تعرف ما نقوم به. واشتهر "جوي" بين العمال في مصنع الأسفلت. وتم تنظيم مباراة على الفور بينه وبين "جراد هويسمان". فاز بها "هويسمان"، قبل أن يبدأ في الشكوى مجددًا من ذلك الورم في ركبته.

أخبرتني ماما وأنا جالس معها لتناول القهوة أن بابا لا يتوقف عن طرح الأسئلة عليها. فهل صحيح أنني تغلبت على رجال عمالقة، وهل صحيح أنني فزت بالفعل ببطولة في "أنتويرب". وسرت في "صن كافيه"، حيث لم يكن رواد

المكان قد نسوا بعد واقعتي مع ذلك العامل، شائعة أن سر قوتي يكمن في تناول المنشطات. ولاحظت أن نظرة الناس لي تغيرت، صاروا ينظرون "لي". ووجدت أن تلك النظرات هي المنشطات الحقيقية.

انتبهت في ذلك الوقت إلى أن رائحة جسدي تغيرت. لا أعلم إن كان هذا مجرد عرق أو كان شيئًا آخر. فلا أدري، مثلًا، إن كان من الممكن للإنسان أن يكتسب رائحة التستستيرون. ولكني لاحظت على كل حال أن "جوي" وماما يبادران بفتح النوافذ على مصراعيها كلما دخلا إلى بيتي. واشترى لي "جوي" مزيل عرق، ماركة "بيبرسدورف 8×4"، ولكنه بقى إلى يومنا هذا فوق رف المطبخ من دون أن أستعمله ولا مرة.

ما زلت أمرُّ على منزل عائلة "إيلاندر" كل يوم، في طريق عودتي من التدريب في "ويسترفيلد". أمرُّ عليه بسرعة كبيرة، لدرجة أن لا أجد لحظة ألقي نظرة خلالها على من في الداخل. وأحيانًا أتعمد ألا أنظر ناحيته، وخاصة حينما يخبرني "جوي" أن "بي جي" في المنزل. كنت أتمنى لو أنها هي من تراني فتخرج وتنادي علي، وتدعوني إلى داخل المنزل الغامض الذي لم أره أبدًا من الداخل. تمنيت لو أنها شربتني البيرة كما فعلت في ذلك اليوم الصيفي، وتمنيت لو حدثتني بتلك العبارات الحكيمة وحكت لي عن عالم الكتاب الذي صارت تعرفه الآن كل المعرفة. ولو سألتني عن كتاباتي، فلسوف أعرفها أني توقفت. وهذا صحيح: لقد توقفت عن الكتابة.

مكثت سنوات أرسم بالكلمات صورة للعالم كانت في ذهني أنا، حتى مللت. أعلن لك عن هذا بنفس الحسم الرومانسي لفنان لا يؤمن أن موهبته تلزمه بأي شيء، بل أن بوسعه أن يتخلى عنها في أي لحظة وبكل بساطة، وكأنها حذاء رياضي قديم. سوف أعمد إلى لفت انتباهها إلى ذراعي التي أصارع بها، حتى تنتبه إلى أنني قد صرت "رجل أفعال". الزمن يتغير، وأنا أيضًا أتغير. ألم تكن الكتابة فعلًا لا يعكس الرجولة بالقدر الكافي؟ ألا تعتبر شيئًا تافهًا بالمقارنة بمصارعة الريست؟ هي ستفهم ذلك بالتأكيد. ولسوف تعجب بقوتي، وتفكر في

حبيبها الكاتب، الذي أتخيله مجرد شخص هزيل مجنون تمسك يده المرتعشة بقلم. ستكون المقارنة في صالحي. وعندئذٍ، يمكن.... يمكن...

لا يمكنني أن أزعم أن استراتيجية "أن تكون صخرة" ناجحة على الدوام.

لم تحكي لنا "بي جي" عن قصة تعرضها للضرب، وبقيت الحكاية في حيز الاحتمال. قال لي "جوي" إنه لاحظ علامات جوار أذنها وفوق عينها، وهي آثار كدمات تكاد تختفي، ولم يبقَ منها سوى مسحات صفراء اللون. وهي لم تتكلم عنها أبدًا.

ولكن سرعان ما اتضح أن هذه لن تكون المرة الأخيرة. فقد عادت للمنزل مضروبة مجددًا. سمعنا أنها رفضت أن تبلغ الشرطة. إن تعدي رجل على جميلة مثلها أمر يمنعه القانون، ولكن لا بد أن يعرف القانون أولًا بما يجري حتى يتسنى له أن يمنعه. وصار البيت الأبيض بمثابة مركز استشفاء وإعادة تأهيل بالنسبة لها. وهذه المرة تمنيت أنا و"جوي" لها الشفاء العاجل من خلال بطاقة مرحة مرسوم عليها كلب ذيله مربوط.

وجاني الرد... بطرقات خفيفة على بابي صباح سبت ممطر.

- أرجو إني مكنش أزعجتك، "فرانكي"؟ "ريجينا" قالت لي إن "جوي" ممكن يكون هنا.

لكن "جوي" في الغالب يعمل لدى "رينوس" القذر. كان قد اشترى بولدوزر مستعمل من أصحاب المصنع، وينشغل ساعات في تجديده. كل ما أعرفه هو أنه ينوي المشاركة به في سباق. أشرت إلى "بي جي" أن تجلس قبالتي. عندئذ رأيت شفتها الجريحة. بها غرزتان، وكذلك هناك كدمة حمراء قوية على خدها. امتلأت عيناي بدموع الغضب، ولكن "بي جي" هزت رأسها وقالت لتخفف عني:

- شكلها بس هو اللي وحش لكن مفيش وجع. كان كارت جميل قوي اللي وصلني منكم. ولكن إنت عامل أيه، "فرانكي"؟ سمعت عنك حكايات كتير الوقت اللي فات، وعرفت إنك بتشارك في بطولات؟ مصارعة ريست؟

كتبت لها أنني مصارع. كان المقبضان لا يزالان مثبتين على الترابيزة، وكذلك المربع مرسوم كما هو بالطباشير؛ فاتخذت وضع بدء اللعب واشرت لها أن تفعل مثلي. ثبتت مرفقها أمام مرفقي فوق مربع الطباشير الذي لا يكاد يظهر، وتشابكت يدانا.

- وبعدين؟

ضغطت بيدي قليلًا فضغطت بدورها.

- بالطريقة دي؟

أومأت برأسي أن أجل. ثم تركت يدها.

- طيب، عاوزة أشوف مدى وقتك!

ضحكت، ثم جفلت ألمًا من جرح شفتها الممزقة. عدت لأضع ذراعي فوق الترابيزة وضغطت يدها بقوة سلسلة لأجبرها على خفض يدها فوق سطح الترابيزة، وكأنني آخذ جسدها فوق الفراش. قالت "بي جي" في دهشة:

- طبيعي إني ما قدرش أعمل حاجة.

كتبت لها... "فيه بطولة في "روستوك" بعد أسبوع. تعالي معنا".

- "روستوك"... وهي فين "روستوك"؟

"في منطقة "ميكلينبرج فوربوميرين"... في البلطيق".

المراهنات عالية في "روستوك"، وهناك أقاويل بأن "إسلام منصور" سيشارك.

- رايح إنت و"جوي"؟ يمكن أروح معاكم. أنا مش عايزة أرجع "أمستردام" دلوقتي في كل الأحوال.

ضحكت مجددًا، وكانت هذه المرة ضحكة محسوبة.

***

هكذا توقفت أنا و"جوي" عند البيت الأبيض صباح الجمعة لنصطحب "بي جي". لاحظت أن تورم شفتها قد خفّ الآن، وزالت الغرز التي كانت في شفتها السفلى. كانت تحمل حقيبة كتف بنية صغيرة. هي ليست مثل بقية الفتيات اللاتي يحملن كل شيء عند السفر. فتح لها "جوي" باب السيارة الخلفي، فدلفت إلى الداخل وهي تلقي تحية الصباح عليّ. خرجت "كاثلين إيلاندر" من المنزل في ملابس بسيطة، ولكنها لم تقلل من جاذبيتها، وإن ظهر على نهديها بوادر ترهل بسيط. قالت لنا بلكنتها الغريبة:

- خذوا بالكم من ابنتي... فهي ابنتي الوحيدة.

أظن أن "كاثلين إيلاندر" أحست أنني أحملق فيها من خلال النافذة، فقد بادرت بعقد ذراعيها أمام صدرها وكأنها شعرت بالبرد فجأة. كنت أحدق فيها لأجمع أكبر قدر من الصور والخيالات التي أسترجعها كلما كنت وحيدًا أسير الرغبة. بادرت فأدرت وجهي سريعًا. راقبتنا "كاثلين" ونحن نبتعد، ولكنها لم تلوح لنا.

لم نتحدث كثيرًا في الساعات القليلة الأولى من الرحلة. ومن الصعب علي أن أحدد إن كان هذا الصمت مؤلمًا أم لا.

- أنا جوعان!

هكذا صاح "جوي" بعد أن كنا قطعنا مسافة لا بأس بها داخل "ألمانيا".

توقفنا عند محطة بنزين. في دورة المياه عاملة تنظيف تمسح الأرضية، وفي الخارج تمر السيارات بسرعة لها إيقاع على مضخات البنزين القليلة المثبتة إلى القاعدة الخرسانية. قال لي "جوي" وأنا أدخل الحمام:

– أنا طلبت لك "كارتوفيل سالاد" مع صوص الكاري. لازم تحافظ على قوتك.

انتقلت بنظري إلى الأبواب الزجاجية للثلاجة المجاورة للكاونتر. فهمني "جوي" سريعًا:

– وطلبت لك بيرة.

الرجل الجالس إلى الترابيزة المجاورة لنا منهمك في تلميع الملعقة والشوكة بمنديل. "بي جي" هادئة وساكتة، ولم نتمكن من إخراجها من هذا المزاج. نهض "جوي" ومر عبر الباب إلى حيث محطة البنزين. عاد ومعه خارطة لطرق "ألمانيا"، وفردها فوق الترابيزة ومر بإصبعه على المسار الذي نتخذه.

– فيه قرية اسمها "ليلينثال" هنا، قريبة من "بريمن". فاكر "ليلينثال"؟

طبعا أتذكر "ليلينثال أوتو"، المهندس الذي عاش في القرن التاسع عشر، والذي قام بتثبيت جناحين على ظهره قبل أن يطير لبضعة أمتار. انتقلت سبابة "جوي" فوق الطريق E37، والتي صارت الطريق E22 عند "بريمن"، ثم استمر مارًا على "ليوبيك". بحر البلطيق! ومن هناك طريق ساحلية، تمر على "فيزمار"، إلى أن تصل إلى "روستوك".

كنا في الساعات قبيل المساء ونحن ننطلق إلى داخل "روستوك". يكاد الظلام يحل. شاهدنا عبارات ضخمة، وكأنها قصور متألقة تنتظر أن تبحر إلى "كالينينجراد" أو "هيلسنكي" أو "تالين". ومررنا على محال سوبرماركت يشتري منها الركاب الإسكندنافيين المشروبات الكحولية والسجائر بكميات ضخمة. انعطف "جوي" بالسيارة ليمر جوار رصيف الميناء، ومررنا على شحنة من أخشاب الصنوبر وكانت الرائحة لا تطاق. وعند نهاية الرصيف تقف

سفينة تضيئها مصابيح الهالوجين الضخمة، حيث يتم تفريغ شحنة الخردة التي تحملها. يقوم ذلك المخلب الميكانيكي بحمل ما يستطيعه من كتل كانت في وقت ما جزءًا من هيكل سيارة أو ثلاجة أو أي جهاز منزلي آخر. وبحركة من ذراع الونش، تستقر تلك الكتلة فوق أرض الميناء على جبل الخردة. علّق "جوي" شاردًا:

– أوه... منتهى الحركة.

سمعنا صوتًا من خلفنا. كانت "بي جي" تستيقظ. وظهر رأسها بين مقعدينا. سألتنا بصوت نائم:

– إحنا فين؟ ... أوه... واو.

شاهدنا تلك الأعمال الهائلة التي تجري في الميناء، وتخيلنا أننا نشهد اقتراب العالم من نهايته، وأن يوم القيامة يتحين الفرصة، بينما لا يزال النشاط الاستهلاكي المسرف مستمر على نفس الوتيرة، وهو غير منتبه إلى مصيره المحتوم. توقف "جوي" بالسيارة على مقربة من شحنة خشب الصنوبر، وبقينا نراقب تلك الخطوة الأخيرة في دورة حياة هذه الخردة. هناك ونش آخر يحمل مغناطيسًا في حجم سيارة "ميني كوبر"، حيث يستخدم في التقاط كتل المعادن وتحميلها على الشاحنات. فما إن يبطل سائق الونش تفعيل المجال المغناطيسي حتى تتساقط القطع في مقطورة الشاحنة بصوت معدني غير مريح.

عن يميننا توقفت سيارة موديل "تاربانت" ألصقت على زجاجها الخلفي ورقة كتب عليها صاحبها بالألمانية بخط يده أنها للبيع: " ZUM VERKAUF". وهناك في الأسفل عبارة تطلق نفيرها ثلاث مرات إعلانًا عن أنها تهم أن ترحل.

مشينا بالسيارة ببطء عبر الأرصفة، والشاحنات متوقفة في صف جانبي، ورأينا على امتداد بعض الأرصفة ظلال العشرات من الأوناش على خلفية من الأضواء الكاشفة المبهرة. وعندما توقفنا وأطفأ "جوي" المحرك، كنا نسمع

أصوات محركات الديزل والمولدات. تملكتنا تلك الحالة العقلية التي تهيمن عليك كلما كنت تتأمل كيانات هائلة عظيمة. مالت "بي جي" نحونا:

– أنا سعيدة جدًا إني معاكم. حبيت أعرفكم كده.

كنت أحدق في المياه السوداء التي تتلألأ مثل رقعة من النفط أمامي. أدار "جوي" محرك السيارة.

– تعالوا نشوف فين مطعم الميناء.

مررنا على أكواخ "نيسين"، وعلى محطة كهرباء صغيرة، وعدد مبالغ فيه من محطات البنزين. لم نبذل جهدًا كبيرًا في البحث عن كافيه "أوست فيست شتراسه"؛ فالحقيقة أنه كان أبرز معلم في هذا الجزء من الساحل، وهناك وجدنا مطعم "هافنر" أيضًا. كان المطعم عبارة عن بناء مستطيل غير مرتفع، وكل أقسامه في الطابق الأرضي. تقول اللافتة على النافذة أن الغداء في الساعة 2:50 تمامًا. MITTAGESSEN AB 2.50. وتتدلى من نفس البناية لافتة نيون تعلن عن بيرة روستوكر. Rostocker Pils. أخيرًا وجدتها.

وفي الداخل، أسفل السقف الساقط الذي انتشرت فيه الإضاءة الفلورسنت، وجدنا مكان البطولة وجمهورها. لا يكاد عدد الفتيات في المكان يذكر، وبالتالي كان من الطبيعي أن ينحصر كل انتباه هؤلاء الرجال في اتجاه "بي جي". من الطبيعي أن تنم عن أي رجل إيماءات شهوانية ما إن يرى فتاة مثلها، ولكن الحال في مطعم الميناء هذا كان أسوأ. أنا هنا أتحدث عن سائقي شاحنات وبحارة، وهما فئتان يندر تعاملهما مع الجنس اللطيف. ومع ذلك، لم يظهر على "بي جي" ما يدل على أي اندهاش من كل هذا الاهتمام الرجالي بها.

أصابني غضب شديد استمر قرابة عشر دقائق لما عرفت أن "إسلام منصور" غير مشارك؛ فقد كنت أتمنى أن أشاهد "قديس الذراع" وهو يلعب، وأن أحلل استراتيجيته. ولكن المكان ممتلئ بآسيويين وسود وكثير من "البوهونك"، وهم عمالقة، وكذلك مجموعة من التافهين الذين لم أفهم كيف

يصمدون بأجسادهم النحيلة تلك أمام حياة البحر أو الميناء. أدركت أنا و"جوي" أننا في مشهد لم نعايشه من قبل؛ إنه مكان عند حافة العالم، يمتلئ ببشر من جميع القارات، أمضوا حياتهم في التنقل بين موانئ العالم لأجل لقمة العيش. تطوعت "بي جي" بالذهاب لشراء ما نشربه. ولكن "جوي" لم يرغب في أن يتسبب ذلك في إشعال المزيد من نيران الرغبة في المكان:

– لأ. أنا اللي هروح.

هكذا حصلت على بيرة روستوكر أخيرًا؛ ومعها الشاليمو أيضًا. دامت الرحلة تسع ساعات؛ ووحدها "بي جي" التي تمكنت من النوم، بينما منعنا التوتر والقلق.

***

بدأت المشاركة في المباريات في الثامنة والنصف ذلك المساء. صرت معتادًا أكثر الآن على أن أكون محط الأنظار والاستغراب، ولو لفترة وجيزة في البداية، وهو أمر يساعدني على التركيز. والحقيقة أنه لم تعد لدي رغبة في التعرف مسبقًا على خصمي، بل لو كان بيدي لصارعت وأنا معصوب العينين؛ حيث إن التفكير فيه وتوقع خطته يشتتني عن تنفيذ خطتي.

يبدو أن خصمي الأول قد شارك بعد مزاح انقلب إلى جد. ولكنني سحقته من دون تفكير في تلك الحقيقة. وشعرت بسعادة كبيرة بعد تصفيق "بي جي" وتشجيعها لي. قلت لها بأفكاري... "انتظري حتى ندخل في الجد". ساعدني "جوي" على النهوض من الكرسي والجلوس في مقعد عربتي، وتحركنا إلى بقعة بعيدة عن الجمهور، أقرب إلى المدخل، حيث مجموعة نباتات اصفرت أوراقها. وعندئذٍ، خرجت "بي جي" لأول مرة في ذلك اليوم من قوقعة صمتها.

– إيه الدراع دي! دي رجل ضخمة مش دراع... بتخوفني... وكمان عروقها!

أومأ "جوي" برأسه في فخر ورضا.

– هي بالضبط شبه رجل ضخمة. دي نتيجة شهور طويلة من التدريب.

ابتسمت وأنا أمتص البيرة عبر الشاليمو. سوف تكون كل مباراة أخوضها في هذا اليوم لأجلها هي، ولسوف أحطمهم واحدًا تلو الآخر. عن آخرهم.

استمرت المباريات، سواء في وزن الخفيف أو الثقيل، فلكل وزن مكانه الخاص. كان صياح وصراخ جمهور السكارى يستنزف كل تفكير. حاول "جوي" أن ينبهني إلى خصمي التالي، وهو روسي، ولكني لم أتمكن من رؤيته بسبب الأجساد التي تحجبه عني وهي تتابع الصراع الدائر. إلى أن لمحته؛ "فيتالي نازاروفيتش"، ببشرته البيضاء وزرقة عينيه الشاحبة. قوامه الذي يغطيه التيشيرت ذكرني بتلك الصور التي أراها في مجلات الفيتنس الرجالية. وجدتني أحرك معصمي حركات دائرية. يقول "موساشي" إن المرونة يد حية.

لم يمض وقت طويل قبل أن أجلس أمام "فيتالي"، محدقًا في عضلات عنقه، المنتفخة مثل جذور شجرة عملاقة. كم أحب مصارعة الريست، بسبب عبثيتها الخالصة. فليس فيها أي خطط خفية أو نوايا خبيثة. وليس فيها أي حوار، ورغم ذلك فهي تجسد أقصى درجات التواصل البشري وأشدها تركيزًا. يمتلك "نازاروفيتش" قوة عامل محنك، وهي تختلف عن قوة لاعب كمال الأجسام، الأقرب إلى بالونة منتفخة ليس عليك إلا أن تزيد الضغط عليها وحسب.

طالت بنا الجولة الأولى. وانتهت إلى تعادل بعد صراع دام طوال الدقائق الثلاث. لاحظت خلال الاستراحة أن "نازاروفيتش" ينظر إلى "بي جي". لم تكن نظرات متلصصة أو مخطوفة، بل نظرات صريحة تفرض نفسها. ولم أجرؤ أن أنظر إليها لأعرف ما إذا كانت تتجاوب معه أم لا.

أنا حتى تلك اللحظة مع الروسي في إيقاع صراع متناسق. ولكن هذا تبدد الآن. فقبل الضغط الكبير سرت في عقلي تلك الومضة الخاطفة، الصاعقة. واندفعت بقوة دفعتني إلى أن أخاف للحظة أن تتمزق عضلاتي وتنفصل عن أربطتها. وأطلق الروسي خوارًا هائلًا مهزومًا وذراعه تضرب سطح الطاولة. ألف تحية للكرياتين.

حياني "جوي" بإشارة متحمسة من إبهامه. بينما هز الروسي آسفًا رأسه لزميليه. كنت أتمنى أن تخيم عليه هذه الهزيمة طوال الليلة، وأن ينشغل باله يائسًا في محاولات التعامل معها وتقبلها وفهمها، من دون جدوى. أريده أن يحتقر جسده ويشمئز منه. وأن تراوده في أحلامه مخاوف الطفولة كلها، حتى يستيقظ في اليوم التالي منهكًا ساخطًا.

بدأت الجولة الثالثة الحاسمة، وتوترت عضلات فك "نازاروفيتش" جدًا، ولكني صرت الآن متحكمًا في قوته. ولن يمكنه هزيمتي. التعادل هو غاية أمله في هذه الجولة. وهكذا، هاجمته.

... بروح هادئة، اهجم وكلك عزم على تحطيم الخصم، من اللحظة الأولى إلى الأخيرة. تلك الروح هي أن تنتصر على خصمك في أعمق أعماقه. تلك هي كين نو سين.

هكذا انتهت الجولة الثالثة. وهكذا أيقنت أنني سأبقى في خيالات هذا الروسي لفترة لا بأس بها.

بادرني "جوي":

- إنت حطيت عليه. أول مرة أشوفك بتهاجم بالطريقة دي. كانت طريقة ساحقة. ولكن خلي بالك من توازنك ودراعك جوه الصندوق.

***

كانت المباراة الثالثة مع سائق شاحنة تشيكي يرتدي حذاءً جلديًّا مميزًا. رائحة أنفاسه عفنة مثل رائحة الماء الراكد، وزاد الأمر سوءًا أنه كان من النوع الذي يزفر ويتنفس من فمه وهو يلعب. سمعت ألمانيًّا خلفي يصفني بأن لي "جسم طفل وذراع عملاق". وجدته وصفًا لا بأس به.

اندحر التشيكي في جولتين.

***

صرت الآن وسط دائرة من الإعجاب، الذي تعززه الدهشة والرهبة. اقترب مني أحد مصارعي الوزن الثقيل، عملاق من طراز 120 كيلو، وصافحني. وقال شيئًا لـ"جوي"، وخمنا أنه بولندي. قال لي "جوي" بعد أن انصرف العملاق:

- مفهمتش قال إيه، لكن أظن أنه قال حاجة لطيفة. مكنش غضبان. مافتكرش إنه غضبان.

لحظتها أحسسنا أننا من خارج هذا العالم، وأننا وسط عالم حقيقي أكثر، وأشد قوة من عالمنا. تبادلنا الابتسامات التشجيعية، ونحن نتفق على أن نتذكر هذه اللحظات بكل تفاصيلها.

تجري مباريات رائعة، يزداد معها عبق المكان قوة؛ في مزيج من رائحة الثوم والبيرة. أحضر "جوي" له ولـ"بي جي" ثلاثة ساندويتشات سجق ومعها عبوتا بيرة نصف لتر، وأحضر لي زجاجة "روستوكر". أنا أفضل الزجاجة على العلبة. ولا أحد يعرف ما أفضله أكثر من "جوي" إلا ماما. لم يعد يسألني عن طلبي، بعد أن حفظ بذكائه رغباتي عن ظهر قلب. ذلك كان منذ يوم أن فجّر كشك الكهرباء الذي يزود ذاك المعرض بالنور. فطالما أن المعرض ممنوع على "فرانكي"، فليكن ممنوعًا عن الجميع إذن.

كان لدى جمهور "روستوك" ثقة فيّ أكبر من تلك التي كانت لدى نظيره في "لييج"، حيث لم يراهن عليّ إلا قليل. هنا الأمور تجري بصورة أفضل، وتتنقل النقود بين أياديهم بسرعة ما إن ينطق المعلق باسمي الذي اختاروه لي "المخلوق"... *das Ungeheuer*. هذه هي المباراة قبل النهائية؛ أفوز فأصل إلى النهائي.

وجدتني أجلس أمام مصارع بارد الأعصاب. وهذا الصنف هو أشد ما أخشاه. لو قلت لنفسك: من أمامي أستاذ في هذا الفن، وعليم بمبادئ الاستراتيجية؛ فاعلم أنك خاسر لا محالة.

كان آسيويًّا مدكوك الجسد، ليس بالطويل جدًّا ولكن كتفيه مثل جبلين. وأنا كنت أتحسب له على وجه الخصوص، لأنني كنت أفترض دومًا أن الآسيويين بطبعهم أقرب الناس إلى استراتيجية الساموراي.

قبضته فولاذية، ولكني كنت المبادر بالهجوم، بفارق ثوانٍ، وجعلت يدي أعلى من يده. ولكن هجمته المرتدة أخلت توازني تمامًا. لقد دفع يدي بكل ما فيه من عزم، وهو يتأوه وكأنه يعاني معاناة عسيرة.

صاحت "بي جي" بصوت مختلج:

- ياللا، "فرانكي"!

لم يكن هناك من سبيل إلى الصمود، فقد كانت الخسارة واقعة بسرعة مروعة. لقد استخدم أسلوب "النار والصخور"، وهو يضغط بكل قوته أملًا في انتصار مباغت. وهو ما يوشك أن يحصل عليه. إلى أن حدثت المعجزة، هي معجزة ولا مسمى لها غير ذلك؛ فقد شعرت برجفة عنيفة تسري من ذراعه لذراعي. أطلق الآسيوي صرخة مكتومة واسترخت عضلاته بغتة، فعاد وضع يدينا إلى ما كان عليه في بداية المباراة. سحب يده من يدي بسرعة وقبض على ساعده بيده الأخرى، وهو يطلق صيحات ألم تختلف عن صيحاتنا. صرخات متتالية حادة، مثل تلك التي يطلقها النينجا في أفلام الكرتون. وجدت "جوي" إلى جواري في لمح البصر:

- إيه اللي حصل؟

بعد بضع دقائق عرفت أن الآسيوي هاجم بقوة مبالغ فيها لدرجة أنه تسبب في قطع وتر من أوتار ساعده.

وهكذا عبرت إلى المباراة النهائية من ثقب إبرة. حتى "جوي" كان مستغربًا:

- فيه حظ أكتر من كده؟

بينما دلكت "بي جي" كتفي السليمة، وهي تقول في ارتياح:

- كنت ميتة من الخوف. كان شرسًا جدًا، وكأنه بيحاول يقتل مش يلعب.

***

سوف يكون النهائي بيني وبين مصارع اسمه "هورست"، ولا أعرف لقبه. ولكننا شاهدنا قبل ذلك مباراتي قبل النهائي في وزن الثقيل، حيث هزم العملاق الذي صافحني خصمة بسهولة. كانت المباراة استعراض خالص للقوة البحتة في أبهى صورها. وأصابني القلق من مجرد التفكير في أنه سيكون علي أن أقلد مثل هذا الأسلوب. لقد حضر الجمهور إلى هنا ليرفه عن نفسه، وليمضي بضع ساعات بعيدًا عن همومه. وهكذا، وحينما حان دور مباراتي، قمت - ولأول مرة في حياتي - بإبراز إعاقتي عن قصد لكل المتفرجين. وكان من الطبيعي أن يصاب "هورست"، الشبيه بمصارع فايكنج بتلك اللحية الشقراء الكثيفة، بالحيرة وهو يجد نفسه في مواجهة معاق مثلي. وجاء رد فعل الجمهور كما توقعته؛ تعاطفوا معي. تطلعت إلى الجمهور. كانت الأجواء متوترة، وكأن شيء ما سيحدث في أي ثانية. صرخ فّي رجل ضئيل الجسد، والزبد يتطاير من فمه. اتخذ "هورست" وضع الاستعداد. ودسست يدي في يده.

- ريدي... جو!

وفي غمضة عين، دفعني "هورست" إلى تجاوز حد الخمس والأربعين درجة. سمعت صرخة مكتومة تند عن "بي جي"، وحاولت بكل ما في من عزم أن أنجو من مصيري المحتوم. استعنت باحتياطي قوة لم أستعن به من قبل، حتى تمكنت من إعادة اليدين إلى وضع البداية تقريبًا، وعندئذٍ شن "هورست" هجمة جديدة. ومع هذا الوضع الدفاعي كان من المنطقي أن أخسر الجولة، ولكن "هورست" بدا خائب الأمل لأنه لم ينجح في تثبيت يدي فوق سطح الترابيزة.

أخذت أحرك رسغي حتى أزيل عنها عناء الجولة الأولى. فانعدام مرونة الرسغ يجعلها كالميتة. ودخلنا في الجولة الثانية. وصاح "جوي" يذكرني:

- توت توت!

ضربتك بتوقيت خاطف تؤدب الخصم.

هيا إذن، أيها الوغد الأشقر. ولكنه نجح في تحييد هجومي. وياله من نازي. أدركت أن أمامي فرصة يتيمة؛ أن أثني رسغه، وهو ما يعني أن عليَّ أن أجذبه نحوي قليلًا حتى أتجاوز النقطة المركزية الميتة. المرونة يد حية. رمقت "جوي"، الذي بدوره رمق ساعته بسرعة.

- ثلاثون ثانية!

ثلاثون ثانية. سحقًا لك... "كارتوفيل سالاد".

- خمس عشرة!

جذبته إلي ببطء شديد، متبعًا مبدأ "حسن التوقيت"، والآن هي اللحظة. يده أكبر من يدي، ولكن يدي أقوى؛ وكل الأداء البدني الذي قمت به في حياتي نتاج مجهود يدوي. فرضت ضغطًا هائلًا على رسغي لدرجة شعرت معها أن أضراسي تكاد تتحطم، والتوى رسغه للوراء بشدة. كانت الحركة في توقيت ممتاز مع الصافرة الأخيرة، فمنحني الحكمان الجولة. فزت بها فنيًّا؛ وكان هذا أفضل انتصار استراتيجي أحققه حتى الآن.

تبقت جولة. ما زالت ذراعي بخير، ومن دون شد أو تقلص عضلي. شعرت أني قادر على تحطيم كبريائه. بدأ "هورست" الجولة الثالثة بشيء من التردد. كان يعوّل على أن ينهي المباراة في الجولتين، ولكنه الآن متعادل. ومع خصم مثلي. (أتريني، "بي جي"؟ أمعجبة بي أنتِ؟).

أوكيه، "هورست"، لن يستغرق الأمر طويلًا. لسوف أحرقك يا وجه البيتزا. ولحيتك القذرة تلك. أتتألم؟ أجل، أنا "فرانك الذراع" أخاطبك، هل أنت مستعد للمهانة الكبرى؟ سيكون ألمك مثل شكة دبوس. ها هو آتٍ: باسم الأب... الابن... الروح القدس.

تراجع "هورست"، ولكنه لم ينهزم بعد. رغبت في أن أسحقه تمامًا، وخطرت لي فكرة أن أصرخ فيه. **اصرخ حسب الموقف. فالصوت من الحياة. نحن نصرخ في النار وفي الريح وفي الموج. الصوت طاقة.**

شعرت بحشرجة شديدة في أول مرة صرخت فيها؛ فكم من وقت طويل مضى على آخر صرخة لي قبلها. أما الصرخة الثانية فكانت أعمق وأقوى. والثالثة كانت تجسيدًا لإيماني بذاتي: متكاملة وطاغية وتجسد ما أنا فيه من كفاح. وانسحق "هورست". **نصرخ بعد أن نقضي على الخصم... لنعلن بذلك انتصارنا.**

مُت... أيها الكلب.



35



خرجنا لتناول العشاء في مطعم إيطالي في قلب "روستوك". كنا في منتصف الليل، ووجدنا عمال مطعم "برجر كنج" قبالتنا في الجهة الأخرى من الشارع منهمكين في التنظيف قبيل الإغلاق. وضع النادل أمامنا زجاجة نبيذ أحمر وزجاجة بيرة. عديد من المشاعر تعتمل في داخلي، بينما لا تزال ذراعي تختلج من الطاقة التي لا تزال تحررها حتى الآن. أطعمتني "بي جي" بعض "الكواترو ستاجيانو" مع سلطة الطماطم بالريحان. كنت منهمكًا كذلك في الشرب والتدخين في الوقت نفسه وبكميات غريبة. كنا مثل أبطال أحرار. خطرت "لومارك" على بالنا فضحكنا، نحن الذين خرجنا منها لنغزو العالم. سنكون مثل صيادي الجوائز الذين لا وطن لهم، ولا سيد عليهم؛ أحرار تحت السماء. كنت منتشيًا وتمنيت لو أن تلك اللحظات تدوم للأبد، وفي العادة يصادف هذا التمني ذات اللحظة التي يغلق فيها المكان أبوابه. سمحوا لنا أن نصطحب معنا زجاجة نبيذ أخرى وعلبتي بيرة، في حقيبة بلاستيكية. خرجنا من المطعم صاخبين نضحك، فكم هو رائع أن تشعر أن الرياح قد أتت بما تشتهي سفنك.

الآن، علينا أن نعثر على فندق مناسب. وصف لنا أحدهم مكان المحطة، التي يميزها ذلك الضوء الأخضر الغامر. إلى جوارها فندق "إنتر سيتي"، ولكنه كان مشغولًا تمامًا بالزوار الذين وفدوا لحضور معرض تجاري متخصص في طباعة الأوفست. فقال "جوي":

- إننا ممكن أبتدي رحلة العودة من دلوقتي.

هكذا، سلكنا طريقنا منتشين إلى خارج المدينة الهادئة. ووجدنا فرصتنا الأخيرة في قرية "كريتزمو". فهناك على امتداد الطريق السريعة يوجد "مربع كريتزمو" الذي يحتوي على سوبرماركت وبنك وملعب وفندق. أوقفنا السيارة، وتمشينا في المكان حتى عثرنا على "هوتيل جارني". علّق "جوي":

- إحنا وحظنا.

دق الجرس، ثم دقه مجددًا بعد دقيقتين. سمعنا صوت سيدة يتحشرج عبر الإنتركم:

- يا؟

بقي الباب موصدًا؛ فالاستقبال يغلق في الثامنة مساء. فقرر "جوي" أن يستخدم حيلته الأخيرة، وأخبرها أننا نسافر بصحبة معاق*Behinderte*، وهو منهك تمامًا. لم أفهم تمامًا سبب لجوئه لاستخدام هذا الوصف. وكان من المنطقي أن تفكر السيدة مرتين. ولمحت بطرف عيني ستارة تتحرك في الطابق الأول، فحتى أحبك الدور أكثر، أخذت أتمايل في عربتي وأهتز. وعندئذ انفتح القفل الإلكتروني للباب.

كانت في الطابق العلوي، وبدت سيدة أعمال جادة، وغير ودودة. تقدم الإفطار حتى العاشرة صباحًا؛ وحصلت "بي جي" على غرفة بمفردها، وتشاركت و"جوي" غرفة مزدوجة. وفي داخل الغرفة، قبعنا نتناول المزيد من الشراب، ولكن تلك الإثارة السابقة لم تعد، وبدأت النشوة تخفت. وبعد أن أفرغنا نصف زجاجة بيرة تمنت لنا "بي جي" ليلة سعيدة وراحت إلى غرفتها. ارتمى "جوي" على مقعد وثير، بينما ألقيت ظهري على الفراش. قال لي وعيناه مغلقتان:

- أنا خدت بالي من اللي عملته معاه. جذبته ناحيتك واحدة واحدة، ومن غير ما ياخد هو باله. رائع. وكنت عارف لما بصيت لي إنك كنت عاوز تعرف فاضل قد إيه وقت. كنت عارف.

رفع الزجاجة إلى شفتيه، ولكنه وجدها فارغة.

- اللي معاك فاضية؟

كانت زجاجتي فارغة أيضًا. فنهض وأخذ يتطلع في أرجاء الغرفة، يبحث عن الكيس البلاستيكي الذي كنا قد وضعنا في الزجاجات في المطعم.

- الظاهر "بي جي" خدته.

خرج من الغرفة، وأغلق الباب بهدوء خلفه.

عندما استيقظت وجدت الساعة في جهاز الراديو تشير إلى 3:52 فجرًا. أرقام الساعة حمراء. كانت مصابيح الغرفة مضاءة، وأنا ما زلت بملابسي، بينما موضع "جوي" في الفراش لم يمس. أتتني الصدمة بعد الإدراك؛ له ساعتان وهو في الخارج. وسرت الحقيقة في جسدي شيئًا فشيئًا: "جوي" مع "بي جي"...

اعتدلت في الفراش، تطاردني صورة "جوي" بصحبة "بي جي"، في عالم لم يعد لمثلي فيه مكان. فراش واحد كافٍ لهما. وزاد سخطي وأنا راقد وحدي في فراش مزدوج كبير. أنا من جلب هذا لنفسه؛ أنا من طلب منها أن تأتي معنا، حتى تعجب بي. أنا بالنسبة لها فائز ببطولة؛ ولكن الجائزة الحقيقية تبقى لجوي. التهمني وحش الغيرة بكل شراسة. هو يعرف حقيقة مشاعري تجاهها، وكيف له ألا يعرف! وبالتالي فهو بالنسبة لي بمثابة خائن. لقد انقلب "جوي" عليّ. لم يعد لذلك الانسجام بيننا رغم فوارقنا أي معنى. أنا أمام كارثة متكاملة، وهذه كارثة لا يمكن أن تكون عواقبها في السر. لسوف تقذف بي في أعمق أعماق هاوية الوحدة. لن أصارع، ولن ألتقي "بي جي"، أو "جوي": ولسوف أتجنبهم وافر منهما فراري من الطاعون لبقية أيام حياتي. لن أبوح بكلمة تعكس ما يشتعل في عقلي من أفكار، ولكن كرامتي تجعلني أستسلم لشعور المرارة البغيض.

الساعة 4:37 ولم يعد بعد. "جوي" و"بي جي"؛ لم يخطر ببالي أن هذا ممكن. أقسم لك. رغم أن الأمور كانت واضحة للغاية. كما أن هذا جرى بكل

سهولة؛ أغلق "جوي" الباب من خلفه، فتغير كل شيء. أيجب أن أذهب فأبحث عنه؟ أنتظر أمام بابها، أتلصص، أدخل عليهما؟ لأجدهما نائمين... عاريين؟

أخنقهما.

تخيلت عنوان صفحة الجريمة في الصحف...

رياضي مقعد يقتحم غرفة على عاشقين

الساعة 5:20... بدأت الحياة تدب في الشوارع بالخارج.



36



عدنا في ظهيرة السبت. وفي صباح الأحد، شغلت الراديو الترانزستور وتركته على "محطة الرب"؛ فأنا أريد أن أغذي مشاعر الكراهية. عرفت منها أن "إليزابيث بيتز" تزوجت من "كليمنس مولدر". تصادف أنني أعرف العريس بدرجة كافية؛ فلم يكن سوى ذلك العامل الذي كدت أن أقتله في "صن كافيه". قال القس/المذيع بصوته الذي يذكرني بالفازلين:

- سيتم الاحتفال بالزيجة في تمام الثانية والنصف.

هكذا عثر العامل على أنثى من نوعه بوسعها أن تنتج له عمالًا صغارًا. ولم يعترض أحد. انتقل المذيع/القس إلى فقرة وفيات الأسبوع.

"توفيت السيدة "سلومب" عن عمر اثنين وثمانين عامًا".

خلفية من موسيقى البيانو البطيئة الحزينة.

"توفيت السيدة "تاب" عن عمر سبعة وخمسين عامًا".

زادت وتيرة الموسيقى قليلًا.

"توفي السيد "ستروت" عن ثلاثة وسبعين عامًا".

زادت سرعة الإيقاع أكثر.

"انعم بضيائك الرحيم ليواسي تلك العائلات في ساعة حزنها".

مقطوعة بيانو شديدة السرعة.

حينما أعلن المذيع/القس أن ساعة "محبة الرب"، انتقلت بالراديو إلى محطة "سكاي".

***

يوم الأربعاء ظهرت صورتي في "لومارك ويكلي". تظهرني وأنا أصارع التشيكي. العنوان فوق الصورة يقول "نجاح دولي لثنائي لومارك"، ونص الخبر يقطر بالعاطفة والانتماء للبلدة. وجدت المعلومات الواردة صحيحة، ولكنها معروضة بشكل كاريكاتيري؛ ولكن ماما كانت فخورة جدًا بالخبر. وأعتقد أنها كانت مهتمة أكثر بشكل الخبر أكثر من مضمونه. بينما كان صمت بابا أعمق من أي وقت مضى. لم نتبادل أي كلام فيما بيننا منذ أن اكتشفت خدعة الكباس، واحتفظ كل منا في مكنونه بمشاعر متباينة تجاه الآخر. أخبرتني ماما أنه قام بتعليق تلك الصفحة إلى جوار ماكينة القهوة والحساء. وظلت تلك القصة الصحفية مبتدأ أي حوار بيننا طيلة أسابيع؛ وهي بالطبع لم تكن تعلم أن "جوي" قام بممارسة الحب لأول مرة في حياته بعد ساعتين فحسب من لحظة التقاط تلك الصورة. وأن يداه، اللتان اعتادتا التعامل مع التروس والفرامل والدبرياش، لامست لأول مرة أجزاء أنثوية ناعمة حساسة. وأنني منذ ذلك الحين لا أراه إلا ومن حوله هالة كريهة تبعث على الاشمئزاز، وأنني في كل ليلة أختلي لنفسي لأخلصها من كل شعور بالحب وكأنني أمتص السم من جسدي. وأنني انخرطت في ممارسة تلك العادة كالمجنون، وكأني وجدت فيها العلاج الوحيد من سعار الغيرة.

حطّم صديقي وحبية أحلامي ذلك المثلث المقدس؛ ذلك المثلث الذي جعلته أساس كل شيء جميل. وفقدت أي إحساس واي اتصال، وصرت مثل نقطة

طافية في عتمة المجهول. ومن أن عاد "جوي" إلى "لومارك" وانخرط في عمله بمصنع الإسمنت من جديد، وأنا مؤمنٌ بوهم عدم التغيُّر. فهو الآن يحب.

ولكن كيف يمكنني أن أمحو "جوي" و"بي جي" من حياتي؟ وحدهما من شعرت معهما بالانتماء لعائلة. أنا الآن في مواجهة لحظة فارقة في مسيرة نضجي: لحظة استسلام.

تطلب الأمر مني إرادة طاغية وقتما أكون مع "جوي" حتى أتصرف وكأن شيئًا لم يحدث. وبقينا نشارك في البطولات، وبقيت في انتظار ظهور "إسلام منصور". ولا أعتقد أن "جوي" قد لاحظ تلك الطبقة الباردة العميقة التي رسختها بيننا. بل أشك في أنه كان يعرف من الأصل أني كنت مغرمًا بـ"بي جي"، وأنني وقعت في هواها منذ أول يوم لها في "لومارك". هو يفتقر إلى الفراسة حينما يتعلق الأمر بتصاريف الحب. وحكى لي كل شيء. حكى لي كيف أن "بي جي" قطعت علاقتها مع ذلك الكاتب المعتوه بعد تكرار تصرفاته العنيفة معها. وكيف أن ذلك الكاتب ظل يضايقها لفترة بعد ذلك، بعدما رفض عقله النرجسي قبول فكرة أن هي من تركته ورحلت.

- ساعات أحس إني مبسوط إن ده حصل. إن علاقتهم باظت بالشكل ده. مش علشان كان بيضربها ويهينها. لكن علشان هي مكنتش هتحبني لولا الانفصال حصل بينهم.

وجدت أن تعبيرات وجهه صارت رقيقة للغاية وهو ينطق بالجملة الأخيرة.

- اختلف كل شيء، رغم إن الأمور في الظاهر زي ما هي. بعد علاقتي مع "بي جي" بقيت باصحى كل يوم وأنا عارف إن فيه حاجة في انتظاري... حاجة حلوة ومهمة. كل يوم شايل لي وعد جديد. وبالليل أنام بنفس الإحساس. كأني وسط حركة أبدية؛ تيار متدفق من الطاقة من غير بداية ولا نهاية. طاقة بتتجدد مع كل مكالمة تليفون، أو مع كل بوسة.

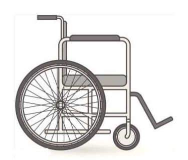
أومأت برأسي متفهمًا، بينما مرارة العلقم في فمي. وجدتني قادرًا على أن أكرهه. ووجدتني مصدومًا من السهولة التي تقبلت بها فكرة كراهيته. بل كنت مرتاحًا لها؛ فسيكون من الأسهل أن أكره الشخص الذي امتلك أكثر شيء تقت إليه في هذه الدنيا. شعرت بمتعة سادية وأنا أدعه يكمل حكايته. وظللت أشجعه أن يحكي لي أكثر. على شرط ألا يحدثني عن تفاصيل الجنس، وهو لم يحدثني أبدًا عن ذلك، ربما بدافع الاحترام، أو ربما وجد أن من الذكاء ألا يحكي عنه.

اصطحبها إلى "دولفيناريوم" في "هاردرفيك". عرض الدولفين في الحوض الكبير الي تجري فقراته على خلفية حكاية الساحرات والجنيات الطيبات. مستوى الممثلين سيئ للغاية. تدور القصة كلها حول لؤلؤة سحرية، تسميها ملكة الجنيات باستمرار "الشعيرة السحرية". أما الدلافين نفسها فلا صلة لها بالقصة؛ فكل ما كانت تفعله هو التقافز المتزامن إلى خارج سطح الماء والعودة إليه، ومن ثم تتلقف أسماك الرنجة التي تلقى إليها. في نهاية القصة تغني الجنيات والساحرات أغنية مصالحة مشتركة. وتقفز الدلافين عبر حلقة. بينما يجلس "جوي" ملاصقًا لـ"بي جي" وهما يتضاحكان... لسوف تكون قصة "الشعيرة السحرية" واحدة من ذكرياتهما المشتركة...

... وكذلك من ذكريات حيوانهما الأليف.



37



سماء نوفمبر صافية باردة، تغشاها غمامات برتقالية تذكرك بالألعاب النارية. أما على الأرض فقد صار كل شيء عارٍ. أسراب غير منتظمة من طيور "اللابوينج" تحوم حول الأراضي السبخة، وأنواع وأصناف من الحيوانات والطيور تتحرك نحو الجنوب الغربي قبل أن يحل موسم الجليد.

يقضي "جوي" كل وقت فراغه في حظيرة "رينوس القذر"، يشتغل على البلدوزر. ولما ذهبت أزوره هناك ذات يوم، شاهدت الطائرة مرة أخرى، وكانت هذه أول مرة منذ سنوات. كانت تقبع عند الجدار الخلفي، وقد تدهور حالها وتداعت. ها هي ذا، الكائن الذي كان يملؤني ذات يوم بأمل مجنون، والذي كان يجسد لنا ما يمكن أن تفعله الإرادة والتفكير واسع الخيال، ينزوي الآن مسكينًا في حال يرثى لها. كما أنها لم تعد محط اهتمام "جوي". شعرت بغصة في حلقي. تحركت بعربتي بين هيكل سيارة "سيتروين تو سي في"، ودرّاسة قش قديمة، وماكينات أخرى تعود إلى أوائل زمن الميكنة الزراعية. يبدو أن "رينوس القذر" يحتفظ بأي شيء وكل شيء. إنه بخيل لدرجة أنه يوصد برميل القمامة بقفل قبل أن يغادر المنزل. الناس في القرية لا يرتاحون له، ولكنهم لا يزالون يذكرون له عبارته التي صاح بها أيام حظر تصدير النفط العربي في السبعينيات: "أزمة نفط؟ فين هي أزمة النفط دي؟ أنا كنت وما زلت بادفع خمسة وعشرين في محطة البنزين!".

يستند جناحا الطائرة إلى الجدار، وقد ظهرت فيها شقوق متسخة. مددت يدي وربت على ذيل الطائرة بسبابتي. لا يزال القماش الذي يغطي الهيكل مشدودًا على النحو الذي ثبته "إنجل" منذ زمن. وجدت له إيقاعًا مريحًا. يليق بهذه الطائرة أن تكون في متحف للطيران، فهي معجزة صنعها مجموعة صبية من لا شيء تقريبًا، وتستحق أن تكون ضمن مقتنيات فريدة في أي مكان. كان الضرر الأكبر في مقدمتها؛ القضبان بارزة من خلال الهيكل الممزق. المروحة مفكوكة وموضوعة على الأرض، وعلى كل شيء طبقة من الغبار المتشحم. صاح "جوي" من عند مقدمة الحظيرة، وكأنه يرد على ما يدور في عقلي:

– سقط عليها بلاط السقف.

تلفت حولي، فوجدته يقف على سلم البلدوزر، ويمكنه من حيث يقف أن يراني وسط كل هذه الخردة. رمقت الفجوة في سقف الحظيرة، تلوح منها السماء. تناثر بلاط السقف متهشمًا متعفنًا حول الطائرة. كنت ساخطًا لأن "جوي" أهمل الطائرة على هذا النحو، ولكنها عادته. فهو يصنع الشيء، ويجرب إمكاناته، ثم يتركه يسقط من بين يديه من دون اهتمام. ترك الطائرة لبلاط السقف وللزمن، وانشغل بمشروع آخر. هو يعيش اللحظة، ولا يعترف بالأمس أو الغد. أما أنا فلست كذلك. مرت عليَّ أيام حاصرني فيها إحساس غريب بأني واقف وظهري للمستقبل. مثل نهر يجري تياره معكوسًا من السفح إلى أعالي الجبال.

"جوي" شغوف جدًا بالحركة. تلك الحركة التي يولدها محرك الاحتراق الداخلي. أتذكر غرفة فندق قديم كانت رائحتها أشبه بعبق المعاطف القديمة، في مكان ما في "ألمانيا" أو "النمسا"، لا أتذكر، وقد استلقى "جوي" على الفراش الآخر، يتحدث في موضوعه المفضل. ويأخذ نفسًا متقطعة من سيجارته.

– الخوف والثقة العمياء... المحركان الرئيسيان لعجلة التاريخ. أنت في البداية تخاف، وبتكون جواك أفكار ومشاعر تلح عليك أن الشيء اللي بتطمح إليه

مستحيل. والمشكلة إنها في الغالب بتكون صحيحة. ولكن إنت محتاج تعرف المطلوب بالضبط، مش أكتر ولا أقل. المعرفة الزايدة عن الحد تخليك تخاف، والخوف شلل. فيه ناس تحقد عليك وتفضل تقول لك إنك متقدرش تعمل اللي انت عاوزه إلا بعد التدريب، ولكنهم بينسوا إن فيه حاجة اسمها موهبة. الموهبة هي اللي بنت المحرك. هو إنت فاكر إن "أنطوني فوكر" كان عارف هو بيعمل إيه؟ ده حتى مكنش معاه رخصة طيران، مكنش معاه غير موهبة وحظ. والثقة العمياء مهمة زي الموهبة بالضبط. أنا عارف إني معرفش أعمل، لكن أنا هاعمل مهما حصل. وبالتالي تعرف بنفسك إذا كنت تقدر ولا لأ. والبعض محظوظ، والبعض لأ. إحنا مثلًا... كان مستحيل نبني طيارة، ومكنش معانا التكنولوجيا اللي تساعدنا. ولكن أنا شاطر في الرياضيات والهندسة، وبرضه "إنجل". الحقيقة إن "إنجل" رهيب في الرياضيات. وده اللي كنا محتاجينه. إحنا الاتنين عملنا حسابات الجناحين وهيكل الطيارة. طول الوقت كنا بنحسب ونوزن. صادفنا صعوبة في ضبط وزن الطيارة مع البطارية، وزنها وحده كان ثلاثة عشر كيلو، وكمان كان فيه صعوبة في ضبط مقدمة الطيارة.

سمعت تنهيدة عميقة في الظلام.

- أنا كنت خايف من إنها ما تطيرش.. أكتر من خوفي إنها تطير وبعدين تتحطم بي على الأرض.

أشعل عود ثقاب ليرى مكان مطفأة السجائر، فسقط نور على وجهه.

- أقول لك حاجة كمان، "فرانكي". الطاقة التي لا تستخدم بتتحول مرة تانية لحرارة. والحرارة هي أحقر شكل من أشكال الطاقة. الأعلى منها الطاقة الحركية، زي المحرك، وأعلى منها الكهرباء، أو يمكن الطاقة النووية. ولكن الحرارة هي الأحقر. الشخص اللي بيعرق بيحول الحركة لحرارة، تمام زي البوتاجاز والغاز. والحرارة فاقد وخسارة. "الإنتروبيا" أو العشوائية، "فرانكي"، قانون القصور الحراري. علشان كده تلاقي مجالات القصور

الحراري بسيطة، لأنها تجسيد للخسارة. وكل واحد جاهل بالمعلومة دي بيكون جاهل بكل حاجة بتحصل. الناس بتقضي أغلب عمرها وهي بتدور على الدفء. لو جبت قرد صغير وخيرته بين أمين صناعيتين - واحدة معدنية من غير لبس وبتقدم له الأكل والتانية عليها ملابس لكن من غير أكل - هيختار الأم اللي عليها ملابس. الدفء والعاطفة: إحنا جوانا أطفال. بنحب ندفي بعض. ونحب نفلي بعض. ولكن الدفء المبالغ فيه متعب. وده بالضبط الشيء المقيت في فكرة تعدد الزوجات - فالأمور لما توصل نقطة زي دي تصرخ الروح وتستغيث. طيب الإنسان يتصرف ازاي؟ بيشتري سيارة أو يبني قارب، زي ما عمل "بابا أفريكا"، وده لأن الحركة أساس الحياة. السرعة الجزيئية للشيء هي اللي بتحدد درجة حرارته - ولو أضفت لها عامل السرعة. واو! السيارة بقيت لناس كتير الملجأ الوحيد، والمفر الوحيد من كل الوعود اللي قطعوها على نفسهم: الزواج، وقرض البنك، وتحمل قرف الشغل. يركب السيارة وينطلق بأقصى سرعة. وعلشان كده اعتبروا الخيانة الزوجية عمل برجوازي، "فرانكي"، يليق بالناس اللي وعودها كتير، لأن الوعود بتتراكم لحد ما تؤدي بصاحبها للخطيئة. خلي بالك من كل واحد يسمعك وعودًا كثيرة. دي خلاصة كلامي ونصيحتي لك.

وسمعت صوت تثاؤبه.

***

اشترى "جوي" البلدوزر؛ أصفر اللون، موديل "كاتربيلار"، بتصميم عملي قوي، ليشارك في رالي باريس - داكار. لا أحد من قبل شارك في هذا الرالي ببلدوزر، ولكن لا يوجد في قانون المسابقة ما يمنع ذلك، وقرر "جوي" أن يكون هو أول من يجرب. لم أفهم غرضه من ذلك، ولكنه يعتبر البلدوزر درة التاج في مسيرة الإبداع الحركي. وتطلب الأمر عملًا كثيرًا لأجل إحداث تعديلات على هذه الماكينة الثقيلة لتكون مناسبة لخوض الرالي.

كانت أكبر مشاكل "جوي" أن البلدوزر بطيء. وقد شرح لي أن قوة محركه هائلة، ولكن ناقل السرعة بطيء للغاية، ولا يمكنه أن يعطيه السرعة التي يريدها. وقد أرسل في طلب أربعة نواقل سرعة كبار من الشركة المصنعة، ليثبت واحدًا لكل إطار، وهو الآن منشغل في إعادة بناء كابينة القيادة. فالكابينة الأصلية قاسية للغاية وخاصة لمن سيجلس فيها طوال السباق، وبالأخص مع أرضية الرالي الصحراوي الوعرة ذات الأحجار والحصى. وهكذا ثبت الكابينة بأكملها فوق "السوست"، كما أضاف مقعد هوائي جلبه من شاحنة حتى لا يتأثر جسمه وهو يقطع مئات الكيلومترات في الساعة عبر الصخور والأحجار وعبر الحفر كذلك. وحتى يصل إلى تلك السرعات، والتي ستكون جنونية بالنسبة لبلدوزر، رفع العزم بوضع ياي أثقل في مضخة الوقود. وهكذا يمكن للمحرك أن ينطلق ليصل إلى 2500 دورة في الدقيقة؛ وهكذا صارت هناك في حظيرة "ديرتي القذر" سيارة سباق وزنها تسعة أطنان تقريبًا.

***

كنا في "هالي"، قبيل ختام بطولة عصيبة بالكاد نجحت فيها في الحصول على المركز الثالث، عندما جاءنا خبر "إنجل". اتصل "جوي" بمنزله من غرفة الفندق. وأتذكر أن النافذة كانت مفتوحة، يأتينا منها صخب الشارع ونسيم الربيع. وبعد برهة، وضع السماعة بهدوء شديد، وهو ينظر إليَّ.

- "إنجل" مات.

كان هناك أمر واحد كنت متيقنًا منه في تلك اللحظة؛ أنني تقت إلى حد الموت إلى اللحظات التي سبقت عبارته هذه، وهذا لأنني بعدها أحسست أن العالم يتداعى من حولي.

رغب "جوي" في العودة إلى القرية على الفور. أما أنا فكنت أفضل لو بقينا في الفندق، وأن نطلب منهم أن يعاودوا ملء الميني بار، حتى يمكن أن أشرب وأشرب إلى أن يستعيد عالمي شكله القديم، ولكننا بعد دقائق كنا على الطريق،

نقطعها أثناء الليل. شردت في نور مؤشرات السيارة الخضراء الفسفورية، وأنا أتمنى لو كان بوسعي أن أتكلم حتى أنفث عما يعتمل في داخلي.

لم نعرف سوى أن "إنجل" لقي مصرعه في حادث. راودتني أفكار تافهة، من قبيل الاهتمام بمن سيعيد متعلقاته إلى منزل عائلته، وكيف أن أسعار لوحاته سترتفع الآن، وما المدة التي سيستغرقها رفاته قبل أن يتحلل، فلا ينم عن أي ملامح لصاحبه. وكم خاب أملي وأنا أنتبه إلى أن وفاة صديقي لم تولد فيّ أفكارًا أفضل. وصلنا "لومارك" في الرابعة فجرًا. تباشير يوم جديد، ونحن ننطلق عبر "لانج نك" وحتى الجزيرة، حيث منزل عائلة "إنجل"، فوجدنا أن الأنوار لا تزال مضاءة. أطلق "جوي" سبابًا حزينًا ساخطًا، وأعتقد أننا في تلك اللحظة فقط أدركنا ما يعنيه موت "إنجل" لأبيه.

- تعالَ ندخل.

دفع "جوي" عربتي فوق الممشى بجانب المنزل. في الغرفة الأمامية، وتحت نور مصباح فوق المائدة، رأينا جسدًا منهارًا فوق سطحها. تمنينا حينئذ لو استدرنا على أعقابنا وانصرفنا. كانت الشباك تحيط بالساحة الخلفية للمنزل، وذلك لأن موسم هجرة الآيل على وشك أن يبدأ، بينما كان محرك القارب مثبتًا إلى حافة برميل زيت. طرق "جوي" باب غرفة الخزين. سمعنا صوت أحدهم يقترب متعثرًا، ثم رأينا النور يضاء، قبل أن يفتح "إليفيلد" الباب. من الواضح أنه لم ينم منذ أن سمع الخبر.

- ازيكم يا أولاد.

تحدث "جوي" بنبرة متوترة، أكدها بحركات عصبية من قدميه.

- مستر "إليفيلد"... كنا في "ألمانيا"... ورجعنا على طول. هو الخبر اللي عرفناه صحيح؟ "إنجل"؟...

- مصيبة يا أولاد... مصيبة.

مشينا وراءه عبر غرفة الخزين، وكان محني الرأس. لم يسبق لي أن رأيت موقفًا انفطر له قلبي مثل هذا الموقف. لمحت زلاجات "إنجل" معلقة على مسمار، وعلى الأرض صف من الأحذية التي كان يرتديها، في ترتيب أنيق.

جلسنا في غرفة المعيشة. كان "إليفيلد" وحده، وعرف الخبر بعد الظهر من شرطي اتصل به من "باريس".

– سألني الرجل إذا كنت والد "إنجل"، وقال لي على أوصافه. قلت له أيوه أنا ودي أوصاف ابني. لحظتها قال لي الخبر.

اشاح "إليفيلد" بوجهه عنّا. فوق المائدة نشرات دعائية من "جريفيون" لخدمات الجنائز. جذبت واحدة، وأنا لا أدري ما ينبغي عليَّ أن أفعله، وبدأت أقلب صفحات الكتيب وكان عنوانه "أفكار لترتيبات الجنازة". كانت الرسوم المقترحة لبطاقات العزاء تتألف من شجرة أم الشعور، وسفن في البحر، وصور مسيحية، وحمائم تحمل إكليل. وفي ظهر الصفحة وجدت نماذج لعبارات ميزها "إليفيلد" بعلامة × إلى جوارها.

6. إلى أن نلتقي.

10. لن تكفي الكلمات.

19. لا تعب الآن، انعم براحة أبدية.

21. الذكرى غالية ولن تعبر عنها سوى الأزهار.

وعندما وقعت عيناي على الورقة الأخرى التي تحتوي على قائمة اسعار هذه الخدمات، عرفت من أين أتى "جريفيون" بثمن سيارته المرسيدس الإس 600. سأله "جوي" بصوت مبحوح:

– عرفوك بتفاصيل الحادثة؟

هز "إليفيلد" رأسه:

– أنا ما بعرفش لغات أجنبية بدرجة كبيرة.. من اللي فهمته إن فيه كلبًا وقع فوق رأس "إنجل". من بلكونة شقة.. كلب.

لم أصدق أن "إليفيلد" منتبه لمعنى ما قاله للتو؛ كلب يسقط فوق رأس ابنه، وفي "باريس"؟ كانت الصورة في ذهني سريالية لدرجة أنها، ولو للحظات، غمرتني بأمل. ماذا لو أن هذا لم يحدث، ماذا لو أنه مجرد مقلب، وماذا لو أن "إنجل" حي وأنه فقط يحاول أن يخيف الناس بعمل فني مبتكر؟ ولكن مجرد نظرة على وجه "إليفيلد" العجوز تجعلك تدرك أن ما تتخيله لا يمكن أن يكون حقيقة؛ ربما كان "إنجل" ليفعل مثل هذه الأمور معنا، ولكنه لا يمكن أن يفعل ذلك بأبيه. سوف يجلبون الجثمان في غضون يومين، ورتبت شركة التأمين أمور نقله مع شركة شحن سوف تتولى إحضاره من ثلاجة مشرحة عند نهر السين.

تركنا "إليفيلد" مع أواخر الفجر. دقت ساعة "لومارك" الخامسة، وكانت الطيور تشدو في كل مكان. تمتم "جوي" ساخرًا في حزن وهو يضعني داخل السيارة:

– وبكده اكتشف "إنجل" قانون الجاذبية.

وجدته يفكر فيما كنت أفكر فيه، ويتمنى كما أتمنى، فقد قال لي عندما وصلنا إلى منزلي:

– مش هاصدق إلا لما أشوفه بنفسي.

***

وهذا ما جرى يوم الثلاثاء. عقدت مراسم إلقاء نظرة الوداع على جثمان "إنجل" في دار جنائز "جريفيوني"، وتوجهت إلى هناك مع "جوي" و"كريستوف". أغلق أحد القائمين على المراسم الباب خلفنا في هدوء، وصرنا وحدنا مع الجثمان في وسط قاعة باردة معزولة صوتيًا. ومن حولنا أربع شموع كبيرة. قال "جوي" بصوت خافت:

- ده هو فعلًا.

نهضت وكان عليَّ أن أستند إلى مؤخرة عربتي حتى أراه، راقدًا أسفل قماش رقيق ممتد حتى نهاية التابوت. أسفل ذقنه دعامة تبقى فكه السفلي مكانه، وشفتاه شاحبتان، وصدغاه غائران. عظام وجنتيه بارزة كأنه قديس. هذا هو "إنجل"، أول جثة أراها. بدأت ذراعي في الارتعاش، فكان علي أن أجلس. كانت البرودة التي تهب من أسفل النعش بمثابة قداس رتيب لصديقنا الغائب. يجلس "كريستوف" إلى مقعد على الجانب الآخر من النعش، وأسمعه يبكي. لم أسمعه يبكي من قبل. وقد ضايقني هذا. تصدر عنه عبارات وهو ينتحب، تليق بإيقاع أنفاسه اللاهثة. فكرت أنه اختار أن يرثو ذكرى "إنجل" بإحداث ضجة تفوق ما نحدثها نحن.

عندئذٍ أدركت أنني و"جوي" و"كريستوف" عدنا لنشكل ذاك المثلث، تمامًا كما كنا ونحن أصغر عمرًا، وقت أن كنت لا أعرف سوى "إنجل" الذي كان يساعدني على التبول.

أزاح "جوي" قطعة القماش الرقيقة عن النعش ووضعه يده المصابة على خد "إنجل". حدق بكل تركيز في وجهه، الذي ظهر مدى تأثره بالإصابة الآن بعد أن أزيحت القماشة. لا نعرف أي نوع من الكلاب كان، ما نعرفه فحسب هو أن الكلب سقط من الطابق التاسع من تلك العمارة في أحد أحياء "باريس"، فوق رأس آخر أبناء عائلة "إليفيلد". هناك علاقة بين هذه العائلة والأشياء التي تسقط من السماء، سواء كان ذلك الشيء كلبًا أو قنابل حلفاء سقطت على المباني الخطأ. أدفع نصف عمري وأعرف آخر ما كان يفكر فيه "إنجل" قبل أن يحط عليه القدر في صورة كلب؛ المخلوق الأوفى للإنسان منذ بدء الخليقة.

***

في تلك الظهيرة، أخذتني ماما إلى متجر "تير شتال" لتشتري لي بدلة. صارت ذراعي أكبر من أن يحيط بها كم البدلة، حتى أن ماما تمتمت مندهشة: "يا

ربي، هذه أول مرة أرى فيها شيئًا مثل هذا". وهكذا تحولت ذراعي إلى تحدٍ حقيقي لمهارتها في التعامل مع ماكينة الخياطة. أما الحذاء فلم يكن مشكلة؛ هو نفسه حذائي القديم ولكن بعد التلميع. تطوعت البائعة بالسؤال:

- البدلة لجنازة ابن عائلة "إليفيلد"؟

رأيت أن عليها ألا تحشر نفسها في أمر لا يعنيها، ولكن ماما سرعان ما سايرتها في تلك الثرثرة الحريمي والحسرة على مصيبة حلت بغيرهما بدلًا منهما.

- شيء صعب اللي حصل لهم. الظاهر أن البعض يولد تعيس الحظ. "فرانكي" كان صاحبه.

- وأبوه؟ بقى وحده؟ زوجته ثم ابنه...

- حكمة ربنا.

- ماكنش زبون المحل. أفتكر إنه كان بيشتري حاجته من المدينة.

كانت تحاول جاهدة أن تخلع التسرة عن كتفاي، وانكمشت بجسدي قليلًا حتى أساعدها. وغادرنا "تير شتال" بصحبة بدلة سوداء من البوليستر القابل جدًّا للاشتعال، حتى إني فكرت أن من الضروري أن يوضع عليها ملصق "ممنوع التدخين".

يوم الأربعاء، دخلت علي ماما ومعها نسخة من "الويكلي"، وفيها خبر الجنازة. لسبب غريب لا أعرفه اختار "إليفيلد" عبارة: " لا تعب الآن، انعم براحة أبدية "، فأنا أجدها أنسب لميت عجوز توفي بعد مرض طويل، وليس لفنان شاب وقع كلب على رأسه. علقت ماما:

- الرجل المسكين شارد الذهن.

كانت تضع دبوسين في فمها، وهي تأخذ معها بنطلوني لتضبطه على الماكينة ليناسبني.

أيام ربيع خلابة، والأشجار في أوج تالقها، ويمكنك سماع تغريد العصافير في الشجيرات بين البيت والمقبرة القديمة.

- هيدفنوا "إنجل" يوم الجمعة الصبح. هو كان مغرمًا بالزهور.

هذا خبر جديد لم أكن أعرفه، ولكن في صباح الجمعة كان قبره محاطًا فعلًا بباقات كثيرة جدًّا من الزهور المغلفة بالسيلوفان. وكانت مراسم الجنازة على طريقة قديس الكنيسة المعروفة؛ تلك الخطبة الرتيبة عن البعث من جديد وأن الميت حي في قلوبنا وأفكارنا. فأنا لا أتخيل أن الناس لا يزالون يجدون راحة وعزاء في تلك العبارات التي لا أدري لماذا كانت تذكرني بمشمع الأرضيات رديء الصنع.

جلست في الصف الثانية ناحية ممر القاعة، إلى جوار "بي جي" ومع "جوي" و"كريستوف". وجدت صعوبة في التركيز على جنازة "إنجل". لمحت بطرف عيني يد "جوي" وهي تحتضن يد "بي جي"، وعلمت أن "كريستوف" لاحظ ذلك بدوره. ورد فعله لن يختلف كثيرًا عن رد فعلي. فليس بيدنا حيلة إلا أن نتقبل الوضع، ونحن نجز على أسناننا بشدة؛ ففي اي صداقة تبقى المنافسة من هذا النوع تحت السطح، حيث ينهش وحش الغيرة نفسه ويسمم الروح بهمساته الشريرة الملحة. لم يكن "كريستوف" يختلف عني في تلك الغيرة. ولم يكن هناك من علاج لذلك إلا أن يلجأ كل منا إلى إراحة نفسه بنفسه، ولكن ما إن تخمد فورتنا الجنسية تلك حتى تعاودنا تدريجيًّا ومعها نيران الغيرة العمياء.

تلك حالة قسمتني نصفين. نصف مني يرى في "جوي" الصديق الذي أحببته أكثر من أي إنسان آخر؛ ونصفي الآخر يجد فيه الخصم والمنافس الذي سطا على حلمي وغرامي. لم أكن أفهم كيف لنصفين على هذا الحال أن يتعايشا جنبًا إلى جنب، بل وأن يتبادلا الأدوار في غمضة عين. وكم كنت مخطئًا؛ وقت أن كنت أرى في "كريستوف" ألد الخصوم - إلى أن تبين لي أنه "جوي".

وتزداد "بي جي" جمالًا في كل يوم. ها هي ترتدي رداءً من الصوف الرمادي الخفيف، ولحذائها الأسود عالي الكعب وقع موسيقي فوق الممشى وهي

تخرج من الكنيسة أمام ناظريّ. أسفل سترتها التي ينتهي طرفها عند الخصر يرقص ردفاها في غواية وإغراء؛ ومن فوقهما، أسفل ظهرها، ارتاحت يد "جوي"، تمامًا كما كانت ترتاح يد الكاتب المجنون من قبل، ومن قبلهما يد "يوبي كوكشنايدر". لقد ورثت عن أمها ذلك الخصر الجذاب.

الفتيات تنتحب حول القبر. أعرف بعضهن من أيام المدرسة، "هارييت جالاما" و"إنيكه دي بوير" من بينهن، ورأيت كذلك الفظيعة "هيلين فان باريدون" – التي لم أنسَ أنها كانت تذكرني بربات المنزل من الطراز الأول – وأخريات لم أرهن من قبل. وهناك زملاء "إنجل" في الكلية. كانوا يرتدون ملابس مجنونة ربما لم تكن كلية الفنون تجد فيها غضاضة بل تعبير عن اذواق شخصية؛ وجعلتهم تلك الملابس متشابهين مع بعضهم ومختلفين عمن حولهم. من بينهم فتاة بالغة الطول ترتدي حذاء كرة سلة ضخم ومنهمكة في التقاط الصور. ترتدي أسفل سترة بنية جيب وردية اللون مثيرة؛ فكان لهذا المزيج اللوني مضافًا إليه جمال وجهها تاثيرًا لم تحتمله عيناي.

عاش "إنجل" مع أمثال هذه الفتاة وعاشرهن منذ أن غادر "لومارك" – نام معهن فوق مرتبة على الأرض، وفي الخلفية موسيقى ألفها موسيقيون مجانين مكتئبون، يميزهم الشعر الطويل والرغبة في موت جماعي. وبعد ممارسة الحب يتناولان الزيتون أو الشوكولاتة، ويستغرقان في إحساس عميق بالتفرد والتميز عن بقية البشر. والآن بعد أن مات "إنجل"، حضرت هذه الفتيات إلى "لومارك" في انبهار بجذوره الريفية، وبوالده الشبيه بمتسابق دراجات من أيام الأفلام الأبيض والأسود. وقف "إليفيل" في الدائرة الصغيرة بالوسط، وهو ينصت إلى القس الذي كان يقرأ بصوت عالٍ، بسبب رياح الفصح، فقرات من رسالة القديس بولس إلى أهل "كورينثيا". كان يعرفنا من جديد بلغز الحياة الأبدية؛ حيث لن ننام مطلقًا، بل نتغير. تلك هي لعبته التي أجادها. أن يخفف من مصيبة الموت. وأن يلطف آلامه وألغازه. على نقيض النقيض من هذا أجد "موساشي"، بقامته المشوقة ودرعه الحربية الكاملة، الذي يرى أن الساموراي

الحقيقي يقبل الموت بشكل قاطع. يقول القس "نيوينهوس" إن النفخ في الصور يسبق بعثنا مجددًا للحياة الآخرة؛ بينما لا يتكلم "موساشي" عن شيء لا يعرفه تمام المعرفة. ما يعرفه هو الطريقة التي ينبغي للإنسان أن يموت بها: "... **عندما تنحي حياتك جانبًا، يكون عليك أن تستخدم أسلحتك أفضل استخدام ممكن. فمن الخطأ الكبير ألا تفعل، وأن تموت ولا يزال سلاح لك في غمده**".

ما تجده في القسم الأخير، واسمه "الخواء"، هو: ما يسمى بروح الخواء هو العدم. ولا يمكن لفهم الإنسان أن يصل إلى ذلك. ويقدم لنا "موساشي" مخرجًا من الجهل: بمعرفتك بوجود أشياء، يكون بوسعك أن تعرف أيها غير موجود. وذلك هو الخواء. وذلك هو تحديدًا سبب ضيقي من كلام القس والقديس بولس ضيق البطة من رش الماء على ظهرها. فمنطقه لا يعتمد على أشياء موجودة، ولكن على هذي مسيحي وحسب.

سمعت الغربان تحلق فوقنا، فنظرت تلقائيًا لأعلى وكأني سأرى "وينزداي". وجدت أنه أوحشني بالفعل.

يستمر القس بنبرته المتهافتة: "ولكن بفضل الرب الذي يهبنا النصر، من خلال يسوع المسيح، ربنا".

الحقيقة أن "إنجل" ميت، وبدأت تلك الحقيقة تستقر في داخلي، وأني لن أراه مجددًا أبدًا.

في "هيت كاريفيل" كانوا يقدمون مخبوزات بيضاء صغيرة محشوة بلحم أو بجبن. هناك راحة في ذلك الجوع الذي نشعر به ما إن نضع محبوبًا لنا في قبره؛ فلا شك في أن الجوع دليل على أنك حي. وتناول تلك المخبوزات هو ما يميزنا عن ذلك الإنسان الذي ودعناه إلى مستقره للتو؛ نحن نأكل، نحن أحياء،أما هم فيأكلهم التراب، لأنهم أموات. من خلال هذه الكعكات المخبوزة في "هيت كاريفيل" نعود إلى إحساس الارتياح؛ فساعتنا لم تأتِ بعد.

تمنيت أن نبقى معًا في تلك الظهيرة، ولكن كل واحد ذهب لحاله. قام "جوي" بتوصيل "بي جي" إلى البيت الأبيض، وعاد "كريستوف" إلى منزله بإحساس مرارة، فهو ليس معتادًا بعد على ذلك التنافس غير المعتاد في قلب الصداقة. وقبعت في البيت مرتديًا تلك البدلة الغبية، وأنا مدرك أن العالم من حولي قد تغير لدرجة تستعصي على العلاج. كما أن هذه ليست هي النهاية، فلا يزال هناك الكثير مما هو قادم. ومع موت "إنجل"، اختفت رمانة ميزان مهمة من هيكلنا الإجتماعي؛ وأحسست أن هناك المزيد من الخلل سيصيب هذا الهيكل عما قريب.

في السادسة مساء، فتحت علبة سوسيس فرانكفورتر وأفرغت محتوياتها في طبق، قبل أن أضعه في الميكرويف. وقبل أن آكلها كنت أغمسها في المستردة، وهذا لأن مذاق الفرانكفورتر يذكرني دائمًا بمنظر الدجاج المشوه في معسكرات الموت في مزارع المصنع. ويحدث فيّ سوسيس "شنيتزل" المقلي نفس التأثير المربك، مع عبارة واحدة تعلق في ذهني فلا تُمحي: "آلام خنزير". آكل وأسمع من دون إنصات إلى البرنامج الفني على القناة الأولى، ذلك الذي يكون فيه المتحاورون مهتمون أساسًا بحياة فنان ولا يناقشون أعمالها ذاتها. أشك في أن تلك الفتيات اللاتي رأيتهن اليوم حول قبر "إنجل" سيكن في يوم من الأيام موضوع حلقة من حلقات هذا البرنامج، الذي يناقش تفاصيل حياتية باهتمام طفل يحدق مندهشًا في أول براز له في داخل قصريته. أنت لا تسمع في الراديو أحدهم وهو يتحدث عن أشياء مثل مصارعة الريست أو البلدوزرات.

وفي وسط انشغالي بالفرانكفورتر، أعلنوا عن لقاء مع مؤلف رواية جديدة. "عن امرأة" للكاتب "آرثر ميتز". استغرق عقلي ثوانٍ قبل أن أدرك أنه هو الكاتب المجنون. فأنا لا أفكر فيه مع نفسي باسمه الحقيقي، لأن هذا يعني أني أعترف به إنسانًا من لحم ودم كانت "بي جي" تحبه. لذلك كان هذا الوصف الذي أستخدمه يساعدني في الحفاظ على مسافة بيني وبين تلك الحقيقة التي أمقتها. أذاعوا في البداية أغنية، ثم عادت إلينا المذيعة المحاورة. وهذه المرة، استمعت بإنصات.

– معنا اليوم الشاعر والكاتب "آرثر ميتز"، والذي صدرت له رواية "عن امرأة" هذا الأسبوع. وهو اليوم ضيفنا ليحدثنا عن روايته الجديدة. أهلًا، "آرثر".

خشخشة غريبة في الميكروفون.

– اقترب أكثر من الميكروفون، "آرثر"، حتى نسمعك. وربما يكون من الأفضل أن نبدأ بالتنويه إلى أن الراوي في هذه الرواية هو كاتب، وأعتقد أنه يشبهك كثيرًا. ولكن أول سؤال خطر لي عندما قرأت روايتك هو من أين استلهمت شخصية "تيسيل" في روايتك. فهي البطلة التراجيدية في القصة، وأعتقد أنها تجسد المرأة الحديثة بكل مشكلاتها: الرغبة في شباب أبدي، مثلًا، والكفاح الدائم مع زيادة الوزن، وهي المسألة التي أعتقد أن عديد من القارئات ستتفاعلن معها. فهل كان مقصدك أن تكون الرواية صورة حديثة من الرواية الواقعية الاجتماعية؟

مضت دقيقة قبل أن يرد الكاتب، الذي تنحنح بصوت عالٍ.

– كان بوسعي أن أمنح الرواية عنوانًا آخر... مثل "عاهرة القرن"، أو شيء من هذا القبيل، ولكن الناشر... أوه.. لم ترق له الفكرة.

– ولماذا "عاهرة القرن"؟ يبدو لي هذا مثل انتقام شخصي من امرأة بعينها. فهل هذه هي الحقيقة؟

– لا توجد رواية عظيمة من دون أن يكون وراءها دافع شخصي.

– ولكن، هل وقعت أحداث الرواية معك بالفعل، هل هذا ما تحاول أن تقوله؟

– أنا.. أوه.. أنا لا أكتب أي شيء لم يقع في ممكنات وجودي.

شعرت أن "ميتز" يعاني وهو يخرج الكلام كلمة كلمة، مثل سلحفاة تضع بيضها في حفرة في الرمال.

– هذا تصريح عام جدًا. هلا كنت أكثر تحديدًا؟ ما الذي تقصده بممكنات وجودك؟ هل تقصد أن في هذه الرواية وصف لحقائق ووقائع كما لو كانت حدثت بالفعل؟

– آه.. أجل.

– إذن أنت تقول بأنها خيال بحت؟

– عديد من الكتاب تمر بهم مرحلة في حياتهم يتعامل فيها الكاتب مع امرأة تفرض نفسها عليه، وكأنها تظن نفسها ملهمته. و"تيسيل" هنا تتعايش مع إدراكها المرعب أنها فارغة من الداخل، وأنها في ذات الوقت تفشل في ملء حياة شخص آخر بالـ... حب. إنها تريد أن تكون أهم شيء في حياة ذلك الآخر، حتى تنسى نفسها. ومن ثم تنسى... الكاتب.

– ولكن لماذا تريد ذلك؟

– لأنها بذلك تبدد مشاعر الفراغ و، أوه... العبث عن طريق كل هذا النهم من جهة، والإغواء من جهة أخرى. تبحث عن كاتب من أجل أن يخلدها لكونها ملهمته، وذلك لكي، أوه... تستعيد ذاتها. وتواجه ذلك الخواء. هي كائن طفيلي خطير وجميل للغاية... في الحقيقة.

– بالفعل... وأنا أقرأ روايتك راودني إحساس بأنها متوحشة وعديمة الحيلة في نفس الوقت. وأنت وصفتها في موضع من الرواية بأنها "ملهمة مع وقف التنفيذ"، أي ملهمة من دون فنان يخلدها. هل سبق لك أن التقيت شخصية مثلها في الواقع، ربما هي من ألهمتك فكرة هذه الرواية؟ أقصد أنك وجدت في قصة حياتها كل هذا التركيز الغامر.

مرت فترة من الصمت كنت أسمع فيها الصوت المميز لقداحة يحاول أحدهم بعدة محاولات أن يشعلها، ثم صوت استنشاق دخان سيجارة بمتعة طاغية. قالت المحاورة:

– سوف نستمع أولًا إلى أغنية... أغنيتك المفضلة "سوزان" لـ"ليونارد كوهين".

وجدت الأغنية أجمل وألطف كثيرًا من هذا اليوم الزفت. ووجدتني أبكي. ولكن سرعان ما عدنا إلى المحاورة وكاتبها.

– أخبرتني أثناء الأغنية، "آرثر"، أنك كتبت هذه الرواية في زمن قصير للغاية. فما السبب؟

همهم "ميتز" بشيء عن الضرورة والغضب؛ يبدو لي أنه لا يرغب في التحدث عن روايته من الأصل. فجربت المحاورة من جديد:

– أنت تتناول هنا موضوع جدلي للغاية. فأنت تقول إن العنف البدني هو النهاية المنطقية لأي اتصال جسدي حميمي. تلك المشاهد التي يعتدي فيها الكاتب على الفتاة "تيسيل" تعتبر من أشد المشاهد فجاجة في الرواية، ولكن ما هو صادم أكثر هو أن من الواضح أنك تعتبر هذا العنف مبررًا.

– العنف، أوه... له من الأوجه عدد يفوق ما يظنه الناس. ربما كان من الأفضل أن ننظر أولًا في النتيجة والنهاية، بمعنى نتائج الأفعال البشرية، قبل أن نقرر ما الذي يعتبر عنفًا وما الذي لا يعتبر. عندئذٍ سنجد أن هناك خيط رفيع للغاية بين الجاني والمجني عليه. فيكاد لا يكون هناك فارق بينهما.

عندئذٍ، كرر كلمة المجني عليه، لنفسه، أكثر من مرة، وكأنها كلمة جديدة ينطقها للمرة الأولى.

– ولكن لا منطق في تبرير العنف البدني ضد المرأة، أليس كذلك؟!

– أنا، أوه... لا أبرر لأي شيء. أنا أسجل الفعل. اعتبريني، أوه... محبًا للحقيقة.

يوشك الحوار أن ينتهي. والمحاورة الحانقة تحاول أن تحفظ للكاتب بعض ماء وجهه من خلال اصطحابه إلى مسار أخلاقي أكثر، ولكنه كان غارقًا في وحل من الكآبة والامتهان والانحطاط.

ولكن فضولي دفعني إلى التفكير في أحداث تلك الرواية. أعرف أن شخصية "تيسيل" هي نفسها "بي جي"، ووجدت إثارة في محاولة فك شفرات الرسائل التي كان يبعث بها ذلك الكاتب عبر الأثير أثناء الحوار الإذاعي. بل وكنت أشك بقوة في أن اسم الشخصية نفسه عبارة عن تحوير للقب عائلة "بي جي"، "إيلاندر"، فمعناه سكان الجزيرة، والجزيرة اسمها "تيكسيل"... إذن "تيسيل". والأكثر من ذلك، أن "ميتز" عرض من خلال الشخصية خبايا شخصية مكتئبة تسعى إلى إثبات ذاتها، وهذا ما أدهشني.

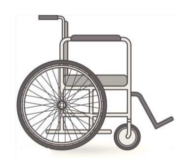
لا تزال هناك ثلاث قطع فرانكفورتر في الطبق. باردة. بينما جفت آثار المستردة حولها.

توجهت في الصباح التالي لمكتبة "برامسترا"، التي تخصصت في الأدب المسيحي، وبها عناوين ممتازة مثل "مناجاة مع الرب"، أو "تعاليم يسوع في حياة طفلك". هناك سجلت طلب للحصول على رواية "عن امرأة" للكاتب "آرثر ميتز". ولما سألت عن موعد تسلمها:

- في العادي يومين، ولكن ممكن بعد أسبوع... إنت عارف بمشكلات البريد.



38



لو كنت أتمنى أن أحقق ولو حضورًا لافتًا في البطولة الدولية لمصارعة الريست في "بوزنان" يوم 6 مايو، فعلي أن أكون في قمة لياقتي البدنية. وكان "جوي" مقتنعًا بأن "إسلام منصور" سيكون مشاركًا هذه المرة؛ خاصة وأن جائزة المركز الأول تصل إلى خمسة عشر ألفًا. هكذا قمت بزيادة تركيز برنامج التدريب، ورغم أني كنت ألتقي "جوي" بانتظام خلال الأسبوع – فقد صار يقضي عطلة نهاية الأسبوع إما في "أمستردام" مع "بي جي" أو عند "رينوس القذر" حيث يعمل على تطوير البلدوزر – لكنني لم أخبره عن أي شيء مما سمعته من الراديو. يقول الواعظ: **ما لا يعرف غير محسوب.**

في يوم الخميس، كانت رواية "عن امرأة" تنتظرني في "برامسترا"؛ 316 صفحة، ثمنها تسعة وعشرون ونصف، شكرتهم جزيلًا. سوف تصادف "بي جي" الرواية بالتأكيد في "أمستردام"، والمسألة هي ما إذا كانت سوف تكون مسرورة بها أم لا – لا أعتقد أن العرض الذي قدمه برنامج الراديو يبشر بالخير بالنسبة لها. شعرت كما لو أنني أحمل ملفات طبية سرية تخص شخصًا آخر، وعندما وصلت إلى المنزل شرعت في القراءة على الفور. لم تكن القصة هي محور اهتمامي؛ كنت أبحث عن شخصية "تيسيل". ووجدتها في فصل عنوانه "فتاة التقيؤ"، والذي يبدأ بتقديم الخلفية الاجتماعية والثقافية لمن يصابون باضطرابات ونهم الطعام:

في عام 1984، وجهت مجلة "جلامور" سؤالًا إلى قرائها عن الشيء الذي يجعلهم أسعد. وتوقعنا أن تكون الإجابات واحدة من هذه: الثروة، المتعة، عطلة في مكان مشمس جميل. ولكن يبدو أننا كنا سذج: فقد قال 42 في المئة منهم أن فقدان الوزن هو مفتاح السعادة. وكان في ذلك في نفس العقد الذي ولدت فيه "تيسيل" لأبوين من جنوب أفريقيا. كانت حساسة، ذكية، وبدينة. ترعرت "تيسيل" في مجتمع حكم على كل بدين بأنه ضعيف وعاجز عن ضبط شهواته.

كانت موضة البحث عن اكتساب الجسد الرشيق نتيجة طبيعية لنيل المرأة الحق في تقرير مصيرها - وتجاوبت صناعات المواد الغذائية والملابس ومستحضرات التجميل مع نموذج إجباري جعل النحافة مرادفة لكل شيء إيجابي ناجح. ونحن لا نجد في تاريخ البشرية أي فترة أخرى مماثلة من حيث كل هذا الحرص والتوجيه الصارم لتحديد أبعاد مثالية للجسم البشري. ولم ينجح أي نظام ديكتاتوري في فرض مثل هذه الثقافة الشاملة على مجتمع كامل؛ ولكن ذلك الجسد المثالي الذي كان من ضمن أفكار الرايخ الثالث تحقق في نهاية المطاف بفضل الصناعة الحديثة. وتروج الدعايات التجارية للجسد النحيل السليم الذي يتميز باتزان مؤشر كتلة الجسم، وتعتبره الوسيلة الوحيدة للتميز بالوعي الذاتي الإيجابي، وسهولة عقد صداقات مع الآخرين، والجاذبية، وتحقيق الطموحات المهنية.

عندما بدأت "تيسيل" تنتبه إلى حياتها الجنسية، بدأت تهتم بمرايا الحمامات، وانعكاس صورتها على الواجهات الزجاجية في الأماكن العامة. ولأنها ذات شعر أشقر مجعد وجميل، ووجه عريض يذكرك بفتيات الإسكيمو، فهي لم تفتقر إلى الجاذبية. ولكن جسمها كان يعاني حركيًا بسبب بدانتها التي كانت واضحة عليها مقارنة ببقية الفتيات الأخريات (وأغلبهن من البيض) في صفها. وكابدت ركبتاها تحت وطأة فخذيها؛ وحتى عندما تنظرت لأسفل، كان يعيقها عنق ظهر له لغد. هكذا ارتبط وعيها الجنسي بنفورها من جسدها.

إن الأحداث الرئيسية تؤثر على جانب بسيط من حياتنا؛ بينما يمكن لتعليق عارض أو صدفة أن تحدث تأثيرًا أكبر بكثير على حياة المرء مقارنة بتأثره بهبوط أول إنسان على سطح القمر أو اكتشاف بنية الحمض النووي. وهكذا كانت الجملة الحاسمة التي غيرت حياة "تيسيل"، لما سمعتها من والدتها، ذات ظهيرة رطبة حارة بينما كانتا تتسوقان في متجر للأحذية في "كيب تاون". قالت لها أمها:

- انظري، هذا من يليق بك تمامًا.

عندئذ أدركت "تيسيل" مقصدها بالضبط. فأمامها، رأت صبيًّا بدينًا يسير مع والدته. كان يرتدي الشورت الذي لا يخفي فخذيه السمينتين، وفوق رأسه كاب "سبرينج بوكس". كانت زلة تربوية من الأم، تجمدت لها أطراف "تيسيل" بكل رعب الدنيا.

هكذا أضحى ذاك الصبي البدين الذي صادفته في الشارع الاحتمال الوحيد لمستقبلها. أدركت أن محكومًا عليها أن تقبل الأولاد السمان، وأن تجلس إلى جوارهم في المدرسة والجامعة، وأن تتزوج أحدهم، قبل أن تنجب منه ذرية بدينة بدورها. ففكرت في الانتحار.

رفعت رأسي عن الرواية، وشعرت أن وجهي دافئًا محمرًا، كما لو كنت أطالع خلسة مذكرات سرية لشخص أعرفه: تحديدًا، مذكرات "بي جي". هل أخبرت "ميتز" بهذه الحكايات وقت افتتانها به، قبل أن تباعد بينهما الكراهية والعنف؟ وجدت قراءة الرواية مثيرة، وحمدت الرب على أن أسلوب كتابة "ميتز" أكثر طلاقة بكثير من طريقة كلامه. وعدت أقرأ:

وفي الوقت الذي بدأت فيه "تيسيل" في التفكير في المزايا العملية للانتحار، قرر والداها الهجرة إلى "هولندا". بعد أن صارت آفاق مستقبل جنوب أفريقيا ملبدة بغيوم العنف المجتمعي. وأدركت "تيسيل" أن بوسعها الاستفادة من هذا التغيير الحياتي وأن تفتح لحياتها صفحة جديدة ليس فيها مكان لكل هذه الدهون. رأت أنه لا ينبغي أن يكون هناك سبيل للبدانة إلى وجودها الجديد. وكانت البداية

لما تجاهلت وجبات الطعام على متن الطائرة. واستقبلت آلام الجوع عند وصولها إلى مطار "سكيبول" كأول انتصار لها على شخصيتها القديمة.

كانت معيشة الأسرة في الأشهر القليلة الأولى مثل الانتظار في صالة ترانزيت. استمرت "تيسيل" بقوة إرادة تثير الإعجاب في تطبيق خطة الحمية والجوع. لم تكن تأكل إلا ما هو ضروري للغاية، وفقط حتى تريح ضمير أبويها. وفي غضون شهرين فقدت خمسة عشر كيلوجرامًا، ثم سبعة كيلوات أخرى قبل أن تنتقل الأسرة إلى منزلها الجديد.

هكذا لم يعرف أحد في منطقتهم الجديدة أنها كانت بدينة، ولم تظهر لأحد أي صورة لها أيام أن كانت في جنوب أفريقيا. وكم كانت مندهشة لما وجدت الكل يراها مثالًا للجمال، وليس مجرد فتاة جميلة وحسب؛ وصار لها صديقات، ووقع الفتيان في غرامها. تحول كامل. صارت الآن في نصف حجمها السابق، ولكنها لا تزال تشعر في عقلها الباطن أنها بدينة. وظلت لسنوات تقصد عفويًّا القسم المخصص للمقاسات الكبيرة في أي متجر، قبل أن تنتبه لنفسها.

توقفت "تيسيل" عن تجويع نفسها؛ وهو السلوك الذي جعلها تواجه مقاومة شديدة من المحيطين بها. وهي الآن تأكل وفق نظام صارم وريجيم دقيق بكميات قليلة من الطعام قليل الدسم منخفض السعرات الحرارية. وأسفر ما يعتمل بداخلها من مقاومة ذاتية لذلك الانضباط عن مرورها بفورات شراهة ونهم، تتجسد في لحظات تسمح فيها لنفسها بتناول أي شيء وكل شيء، فتترك نفسها على حريتها وتدفن حزنها تحت أكوام من الكوكيز، والكحك باللوز، والشيبسي والآيس كريم والشوكولاته. كل هذا قبل أن ينتابها الندم على ما اقترفته من تلك الآثام، فتسرع إلى الحمام لتتقيأ ذلك كله.

البديهي أن تشخص حالتها هذه بأنها "بوليميا".

يعاني مريض الـ"بوليميا" من توهم أن جسده لا يتماشى مع ذلك الشره المرضي الذي يعاني منه. فمن هم حولها يرون حجمها طبيعي، ولكن المريضة

نفسها ترى في المرآة مسخًا منتفخًا. وتجد في التقيؤ السبيل الوحيد للسيطرة على ذلك الوحش، وما يعقب التقيؤ من مشاعر الخزي تفاقم شعور المريضة بالوحدة. والمرأة التي تعاني من الــ"بوليميا" تجد العالم مرآة مشوهة وتحاول باستمرار أن تتكيف معها على النحو الذي تراه صحيحًا.

يعتقد أولئك الذين نادرًا ما يتقيؤون أنها تجربة مكثفة مؤلمة، ولكنها عملية سهلة جدًّا لفتاة التقيؤ. هي دربت نفسها على التقيؤ بطريقة لم يعرفها من حولها: فهم لا يجدون فيها أي احمرار للعينين، أو رائحة قيء، أو نفس كريه. حيث تدس فرشاة أسنان أو ملعقة في داخل حلقها، أو تضع إصبعيها في زورها. ثم ترفع مقعد المرحاض، فتزداد اشمئزازًا، وسرعان ما تتقيأ.

وفي حالة "تيسيل"، كانت الآثار الضارة للحامض المعدي على أسنانها (التدمير السريع لميناء الأسنان يؤدي إلى تجاويف فيها) مشكلة صغيرة: فقد كان والدها طبيب أسنان.

عند هذه النقطة من الرواية تبدد أي شك لديّ؛ فهذا الوصف لا ينطبق إلا على "بي جي إيلاندر". وانكشف سرها أمامي على الترابيزة.

صارت "تيسيل" الآن تسيطر على وزنها بأوضح صورة من صور تشويه الذات: القيء. ونما داخلها فراغ وجودي وإحساس بالتفاهه. كانت تلك هي آخر مشاعر حقيقية تنتابها. فهي تتجاوب مع من حولها بمشاعر اصطنعتها واعتادتها. أدركت أن المواساة تكون مع الحزن، وأن الفرحة تواكبها البهجة التي هي تأكيد لتلك الفرحة. ولم تعرف هي نفسها إلا مشتقات تلك العواطف، وهي أصداء من أيام كانت بدينة بائسة. كان كيانها الداخلي باردًا؛ يناديها من تحت أنقاض بدانة فتيان وفتيات، غارقين تحت أكوام الدهون.

ما كان يميز "تيسيل" أن مسار حياتها انقسم إلى قسمين: قسم – بعيد، في قارة أخرى – كانت فيه بدينة وبائسة، وقسم آخر صارت فيه مرغوبة وحيث لا يعرف أحد – خارج إطار عائلتها – أي شيء عن حياتها الأولى. أما في داخل

نفسها فقد أبادت كل ذكرى لصورتها السابقة، عن الحياة التي سببت لها الألم، جنبًا إلى جنب مع مشاعر كانت عميقة وحقيقية. لا يرى أحد عليها تلك المشاعر: لا يرى أحد إلا فتاة ذكية تمتلك حس دعابة واضح، وشخصية لطيفة تحب أن تجالسها.

وكان تطور حياتها الجنسية طبيعيًّا؛ تقبل الفتيان في بعض الأحيان، وفقدت عذريتها في سن السادسة عشرة مع شاب تركي في منتجع "ألانيا"، حيث كانت تقضي عطلتها مع والديها وصديقة لها. تعرفت على أول صديق حقيقي وهي في السابعة عشرة، فتى من قريتها. صار طوعًا لها؛ فقد اكتشفت "تيسيل" قوة لا حدود لها في جمالها وطيشها. ولما التحقت بالجامعة نسيت أمر الفتى بكل لا مبالاة وكأنها فقدت دبوس شعر تافه. فقد انتهى الغرض منه؛ بعد أن استخدمته "تيسيل" في صقل مواهبها الجنسية لتكون سلاحها في الحياة. وهي الآن مستعدة لأشياء أكبر وأهم.

هكذا كانت "تيسيل" عندما التقيتها. لما قدمت نفسها لي في الاجتماع الأدبي السنوي لكلية الآداب، شعرت بحضورها القوي. وبعد أربعة أيام مارست معها الحب للمرة الأولى؛ وتركت في فراشي وحشًا باهر الجمال، وبلا قلب.

تذكرت وأنا أقرأ هذه الفقرة سلوك "بي جي" في "ماوس تاون"، عندما كانت تعذب الفأر الخائف وتعزله عن رفاقه. وقتذاك تولدت لديَّ، ولدى "جوي"، شكوك؛ بعد أن كشفت تلك القسوة جانبًا منها تمنينا لو أننا لم نره.

كانت أسعد فترات حياتي. جمعت "تيسيل" بين لمسات رقيقة وطيش جنسي كامل. كما كانت، من دون أدنى شك، أكثر امرأة عرفتها مرحًا وانطلاقًا. كانت حلمًا، لأنها منحتني كل ما كنت أتوق له: آمرها فتطيع. تلك المعجزة التي كانت قادرة عليها. هي لوالديها ابنة مثالية، ولمعلميها طالبة موهوبة، ولصديقاتها عربيدة سكيرة ترقص فوق طاولات الكافيتيريات فتلف قلوب الرجال حول إصبعها. ولكنها بالنسبة لي... كانت الحب كله. تظهر لي من

شخصيتها ما أردت أن أراه، وكنت أريد أن أعتقد ذلك. تغذت على الأمل والحب الذي كان من المفترض أن يكون، بين نصفين منفصلين عثرا على بعضهما البعض وسط ملايين من البشر.

تبدي في كل موقف إجتماعي ما كان متوقعًا منها. وبمحاكاة مثالية، إلا فيما يتعلق بأمر واحد. بقت منطقة واحدة من حياتها بعيدة عن كل أحد، لأنها لم تكن تعرفها أو تفهمها: العلاقة الحميمة. عجزت عن محاكاة ذلك، ولول بطريقة الحرباء المتلونة.

كان الجنس عند "تيسيل" هو البديل لتلك الحميمية.

كيف كان لي أن أعرف أنها، ومنذ اليوم الأول، نامت مع رجال آخرين غيري؟ لم أعرف إلا عندما وجدت رسالة نصية ذات يوم واحد أثبتت لي أنها كانت مع عشيق واحد على الأقل، وعندئذٍ لكمتها في وجهها مرتين.

وجدت "تيسيل" في كونها مرغوبة من أكثر من رجل في وقت واحد التعويذة السحرية التي قضت بها على لعنة والدتها التي حكمت عليها أن قيمتها في سوق الجنس متدنية، وأن مصيرها بين أيدي البدناء وحدهم. وعندما عرفت بالصدفة أن فعل خيانتها الأول لن يكون الأخير، ضربتها مرة أخرى، بل وهذه المرة اغتصبهتا. بكت عندما شعرت برجفة الخلاص، واخبرتني أن هذه أفضل مرة تمارس فيها الجنس. كان هناك تسعة رجال آخرين. كانت تجد مع كل علاقة جنسية كاملة مع أحدهم الدليل القوي على أنها مرغوبة، مطلوبة، وجميلة. ولكنه شعور ما إن يعتمرها حتى يتبدد، وهذا لأنها في داخلها عاجزة عن الاقتناع بجمالها. وهكذا تخرج لتبحث عن رجل جديد، ورغبة أخرى، ومرة أخرى تنفرد أجنحة النشوة، قبل أن ترتد بخيبة أمل إلى صورتها المرتعشة لنفسها. ولأجل ضمان التوازن اللازم فإنها تحتفظ دائمًا بعشيق تسكن إليه في أمان، وتعزز من خلاله مظهر الحياة الطبيعية.

قلت لها ذات يوم في تلك الفترة المضطربة:

- لم يكن بمقدورك أن توجهي لي صفعة أقسى من ذلك.

فكرت في كلامي للحظات، قبل أن تجيبني بكل برود:

- بل بمقدوري أن أفعل.

عندئذ ايقنت أن "تيسيل" هي عاهرة القرن.

اضطررت إلى التوقف عن القراءة، فقد كنت أتشنج وأرتجف بشكل سيئ للغاية. ها هو رجل يسأل نفسه في يأس كيف أمكنه أن يحب امرأة كانت بالنسبة له مجرد انعكاس لما توقعه من أي امرأة. لقد قام بتشريح الجثة بيد واثقة. وبصورة رائعة ومخيفة.

في البداية "ميتز"، والآن جاء دور "جوي". وكنت أنا الوحيد الذي يمتلك كل قطع هذا البازل؛ فقد عرفت "بي جي" من قبل أن تعرف "ميتز"، وأعرف مع من هي الآن، ولا بد لـ"جوي" أن يقرأ هذه الرواية، على الرغم من أنني مررت بلحظة شك في قدرتي على أن أطلب منه ذلك، فهو مقدم على كارثة.

***

عندما جاءني، وضعت الرواية أمامه على الترابيزة. تناولها، وتأمل الغلاف (عبارة عن لوحة غامضة تمثل جسدًا أنثويًّا)، وقرأ ما هو مكتوب في الغلاف الخلفي قبل أن يعيدها إلى سطح الترابيزة. قال لي ساخطًا:

- أنا مش عارف إنت بتقرا الحاجات دي ازاي.

كان هذا هو تعليقه الوحيد عنها. الحقيقة أن "ميتز" توقع رد فعل "جوي" بكل دقة:

نحن لا نريد أن نراهن على حقيقتهن، وبالتالي نسهم في مضاعفة الضرر الذي يلحقنا منهن مع مرور الوقت.

أردف "جوي"، وهو يقف عند مدخل البيت:

- بالمناسبة... عندك مانع في إن "بي جي" تكون معانا في "بوزنان"؟

***

غادرنا في الساعات الأولى من صباح يوم 5 مايو. علقت الكثير من المنازل في "لومارك" الأعلام احتفالًا بذكرى يوم التحرير. منذ عام واحد مضى اقترح علي "جوي" أن أصبح مصارع ريست؛ ومنذ البداية، كانت "بوزنان" بالنسبة لنا الطموح والوعد، فهي أهم بطولة على الإطلاق. وعلى الرغم من تسارع الأمور بطريقة غريبة منذ أحداث بطولة "روستوك"، فقد كنت أتدرب مثل المجنون وأصارع "هيني أوسترلو". جربت أكثر من حركة افتتاحية عليه، وأحيانًا أتركه يدفع يدي حتى تكاد تلامس سطح الترابيزة لأجل أن أتمرس على الهجمة المرتدة. وبخلاف ذلك لم يكن لـ"أوسترلو" أي فائدة، فقد صرت الآن في فئة مختلفة تمامًا.

تصرفت بشكل طبيعي مع "جوي" و"بي جي". كل شيء على ما يرام، لا غيرة، ولا يوجد وحي أدبي: فقط العمل المعتاد. ينبغي لكل شيء أن يأخذ مجراه، وسوف أمارس دور مراقب في مختبر. لقد تجاهل "جوي" التحذير وصارت اللعبة عادلة الآن. في يوم من الأيام سيعود ويطلب أن يقرأ ذلك الكتاب، قبل أن يندم على أنه اختار أن يكون أعمى.

المسافة إلى "بوزنان" لا تقل عن عشر ساعات بالسيارة. لم يفارق "جوي" عجلة القيادة، بينما تدلك "بي جي" عنقه بين حين وآخر، فكنا شهود حب مثالي التناغم. شعرت في بعض الأحيان أن كل ما حدث ليس سوى نسج شيطاني من الخيال؛ ضحكنا، وغنينا، كما لو أن "إنجل" لا يتعفن في قبره، وكأن تلك الرواية اللعينة لم تصدر.

وصلنا إلى "بوزنان" قبل حلول الليل، وبعد أن خرج دخان من الرادياتير. أوقف "جوي" الأولدزموبيل أمام فندق "أوليمبيا"، الذي بدا كيانًا ضخمًا كئيبًا

من زمن الشيوعية، بعدد لا نهاية له من الطوابق، وغرف تكفي جيشًا كاملًا. علّق "جوي" ونحن ندخل إلى لوبي الفندق:

- شوفوا!

كان يشير إلى الساعة الرقمية فوق مكتب الاستقبال، والتي تعرض التاريخ والوقت: 5/5 - 19:45. استغرقت لحظة قبل أن أدرك أنه بالضبط توقيت الإعلان عن تحرير "هولندا". لم تدم تلك الملاحظة سوى ثوان، قبل أن يزيد الوقت دقيقة. طلب "جوي" غرفتين، واحدة له مع "بي جي"، وواحدة لي. هكذا صارت تجري الأمور.

***

طرق "جوي" الباب، قبل أن يدخل إلى داخل غرفتي.

- كل حاجة أوكيه؟ الحمام... كل حاجة؟

جلس إلى كرسي مجاور للنافذة، وتطلع إلى الشارع.

- مان... أنا تعبان جدًّا. بكرة اليوم الكبير... "فرانسوا"... أنا هنام زي القتيل، تعبت قوي من طول السواقة.

أرجوك يا "جوي". انظر لها بنفس الطريقة التي نظرت بها إلي يوم أن وجدتني عند حاجز النهر... تبًّا لك، "جوي"، أنت لا تعرف ما أنت مقدم عليه.

- أشوفك الصبح بدري، "فرانكي". لو احتجت مساعدتي، اطلب زيرو وبعده خمسة واحد سبعة... رقم غرفتي.

تطل النافذة على كيانات الخرسانة والأسفلت. ويضفي ضوء الشمس اللون البرتقالي على كل شيء؛ هنا، أيضًا، يهتم كل إنسان بنفسه فقط. أغلقت الستائر الاصطناعية الثقيلة، ولكني عدت لأفتحها مرة أخرى بعد قليل؛ فأنا أصاب بالكآبة من الغرف المعتمة، بينما لا يزال نور الدنيا خارجها، ربما لأن ذلك

يذكرني بالموت. كما لم أعد احتمل رائحة الشحم منذ وفاة "إنجل"، يوم أن كانت تملأ كل ركن من أركان دار الجنائز. حاولت أن أقرأ قليلًا في كتاب "جو رين نو شو"، ولكني افتقدت التركيز في سطوره. ثم انتظرت حلول الظلام، بينما تمضي حياة البولنديين في الأسفل، وتعتمل العديد من المشاعر والأفكار داخل نفسي.... لم يعد بيدي أي شيء آخر أفعله.

***

جرت البطولة في صالة جيم عند الطرف الجنوبي من البلدة. حلبتان وسبعة وخمسون مصارعًا، نصفهم وزن ثقيل. يالها من بداية قوية. وقبل الإعلان عن بداية أول مبارتين، ظهر الرجل الذي طال انتظاري له: "الملك منصور". ورغم أن دخوله إلى المكان يقارن في أهميته دخول "محمد علي" إلى حلبات الملاكمة، وأنا كنت أتوقع أن أجده محاطًا بعدد كبير من الفتيات المفتونات، ولكني لم أرَ سوى عملاق أسود يدخل إلى صالة جيم متواضعة. هو لم يكن على تلك الضخامة الكرتونية، يمكنك أن تقول أنه مدكوك الجسم مفتول العضلات، عريض المنكبين. رأسه حليق، وتنعكس الأضواء الساقطة من نوافذ الجيم العالية فوق صلعتها. تمشي إلى جواره امرأة نحيفة ترتدي نظارة شمس، وخمنت من ضآلة جسمها أنها فرنسية. هي من النوع الذي يتزوجه لاعبو التنس ونجوم كرة القدم، ذلك الذي تراه في السيدات اللاتي تجلسن وسط جمهور برامج التوك شو لتتأوهن واضعات اليادي فوق الأفواه عندما تصير أحداث الحلقة مثيرة.

لكزني "جوي"، فأومأت برأسي ليعرف أني قد رأيته. اتجه "منصور" وامرأته إلى ركن هادئ، وكان الركن الهادئ الوحيد في الصالة المكتظة بالبشر، قبل أن تذهب المرأة لتحضر كرسيين. وبحركات بطيئة محسوبة، خلع "منصور" سترته والـ"تي شيرت" وأخذ يقلب داخل حقيبة رياضية قبل أن يعثر على سترة صغيرة بلا أكمام. تأملت تكويناته العضلية المذهلة بينما كان يرتدي تلك السترة. كان "جوي" يحكي لـ"بي جي" عن "الملك منصور"، وكيف أننا ننظر إلى بطل العالم بلا منازع... الوحش رقم واحد. سألته:

- و"فرانكي" هيلعب ضده؟

- ممكن... لو كان لنا حظ!

أما الجمهور فيتألف من ناس أجسامهم عادية - بيضاء بدينة وخالية من العضلات، تمامًا مثل جمهور "روستوك". عرفنا أني لو فزت بكل مبارياتي فستكون المباراة الرابعة مع "إسلام منصور". لم تكن أول مباراتين مشكلة بالنسبة لي. وفي الثالثة كدت أخسر أمام شاب شاهدته يلعب في "لييج"، وهو أسود البشرة من "بورتسموث". ولكنني في تلك اللحظات فكرت في "إسلام منصور"، وكيف أنني أتوق للعب ضده، وأن اليوم يمكن أن يكون يوم المواجهة التي أحلم بها، وهكذا تغلبت على الإنجليزي في زمن لا يذكر.

تناولت علبتي بيرة لأتحكم في التشنجات. بينما دلكت "بي جي" كتفيَّ، و"جوي" متوتر للغاية. هل سأكون ندًا لـ"منصور"؟ هل هناك أي احتمال لأن يؤدي مباراة سيئة، وأن يفقد تركيزه؟ يدا "بي جي" تبعث فيّ موجات من المتعة، وأنا أمتص البيرة بكل نهم. وبعدها حان الوقت. ورأيت بطرف عيني "منصور" وهو يخرج من ركنه ويقترب من الترابيزة، تلك الآلة البشرية الغاشمة. حركني "جوي" إلى الترابيزة، وساعدني على الجلوس. وضع يداه على كتفيَّ للحظة - شعرت بأصابع يمينه المفقودة - ونظر في عينيَّ.

- أنا واثق فيك.

صرت الآن وحدي، أمام قوة من قوى الطبيعة العاتية. وجلس "منصور".

أخيرًا... أجلس أمام "قديس الذراع".

رفع ذراعه (تبًّا، ذراعه اليسرى لا تقل ضخامة عن اليمنى، بوسعه أن يصارع اثنين في الوقت نفسه)، وأسند مرفقه إلى المربع فوق الترابيزة. لحظتها نظر إليَّ؛ عيناه منتفختان، شديدتا البياض. راحة يده بيضاء أيضًا. وضعت ذراعي مثله. واشتبكنا. شعرت وكأني أسند يدي إلى جدار بناية دافئ.

من خبرة مشاهدتي لمباريات "منصور"، كنت أعرف أن حركاته الافتتاحية تتنوع ما بين "النار والحجر" و"أوراق الخريف الحمراء" (يقصد بهذه الحركة الأخيرة الانقضاض على سيف (ذراع) الخصم والاستيلاء عليه بالقوة)؛ وهكذا كنت مستعدًا. راحة يده جافة ناعمة، وراحتي أصغر وأرطب. لم يرفع "منصور" عيناه عن عينيَّ طوال الوقت، وأنا أعرف أن من ضمن خطته أن يسيطر على خصمه بتلك النظرات الجريئة المخترقة، مثل التنويم المغناطيسي. قال ذات مرة في حوار إن منبع أعظم قواه "من داخل نفسه". فعندما تتمكن من تركيز روحك فعندئذٍ يمكنك أن تمحو من ذهنك كل من هم حولك. فلا يبقى إلا خصمك. ورغم أنك قد تجدني مبالغًا، إلا أنني شعرت بأن قوته تتنامى وأني أغرق في نظراته. صرت محور انتباهه، واقعًا في أسر عينيه.

جو!

برد فعل ميكانيكي، شددت كل عضلاتي، وشعرت أن تلك اليد الهائلة تستدعي كل قوة إليها. تمكنت للحظة أن أصارعه متحررًا من تلك العينين ونظرت إلى ذراعه، التي تقلصت فيها العضلات المفتولة حتى أحسست أنها تحاول اختراق الجلد. ثم عدت إلى مجال رؤيته. وبهذه الطريقة أصبحنا مركز الكون، "منصور" وأنا، وشعرت بإحساس عميق بالامتنان والعدالة. كنت أعرف أن النتيجة غير مهمة؛ كان كل ما يهمني هو هذه اللحظة، وتصادم جرمان سماويان كانا يسعيان وراء بعضهما البعض في فضاء لا حدود له؛ قوتان غايتهما الجمال والدمار. ومرت لحظة الاصطدام ببطء، دون صوت.

صمدت أمام الهجوم؛ فلقد تحسن دفاعي مع الوقت. كانت عضلات رقبته مشدودة مثل الأوتار، ومن كتفه بزغ مرتفع من العضلات لم أره في مصارع آخر. أهذه "بي جي" التي صرخت؟ تتبعت بعيني مسار وريد في ساعد "منصور". كنت أتوق طوال حياتي لشيء يخلو من العيوب، لم يتلوث، وتذكرت وأنا في حالتي هذه التي تشبه التنويم قصة عن الكمال، عن حرفيين صينيين، كانوا سادة فن الرسم بالورنيش، والذين لم يكونوا يعملون إلا على متن سفينة

ووسط أعالي البحار؛ لأنهم لو عملوا على الأرض، فإن جزيئات الغبار الضئيلة قد تلوث الورنيش وتفسده.

وجدت أن هذا التكوين الثلاثي الذي أصنعه أنا و"منصور" ينتمي إلى هذه الفئة: فئة الكمال، الفئة الخارقة، كنا أبعد من الزمان والمكان، وأسمع هدير الجماهير كما لو كان قادمًا من هوة سحيقة. ولكن الصوت الأوضح بكثير كان صوت غصين جاف ينكسر بالقرب من أذني، عندئذٍ شعرت بأننا نفقد التوازن، وأن هناك من يستدعينا مرة أخرى إلى العالم، متجهان إلى النهاية.

عندها أدركت ذلك الألم الجنوني المستعر في ساعدي، واللهيب الذي ينفثه، ورأيت "منصور" يترك يدي وينظر في وجهي مذهولًا. تجمع الألم في منتصف ذراعي مثل عقدة متوهجة. عرفت أن العظم انكسر. صمدت العضلات أمام قوة "منصور" الخارقة، ولكن عظمة الزند لم تصمد. انكسرت مثل غصين جاف؛ كنت أهدر في غضب وألم. وكان "جوي" إلى جانبي.

- "فرانكي"... إيه اللي حصل؟

هززت رأسي، فهذه نهاية كل شيء، ولحظتها عرفت أن عظمي هو نقطة ضعفي، وأنني سأبدأ من نقطة الصفر من جديد. اقترب "منصور" منا. فقال له "جوي":

- دراعه انكسرت.

أومأ "منصور" برأسه، وهو يقول:

- أنا آسف. مباراة ممتازة.

نظر إليَّ، وهو يفكر للحظة، قبل أن يردف:

- كان صراعًا بين روحين. وأنت رجل قوي.

رفع يمناه إلى قلبه، كما كان يفعل "بابا أفريكا"، وانصرف هو وامرأته وسط الحشد الفضولي. فقالت "بي جي":

– لازم نروح المستشفى فورًا، "جوي"! حالته بتدهور.

شعرت بضعف شديد بسبب الألم، ورغبة قوية في أن أتقيأ. ذراعي مسندة بلا حيلة إلى حجري. سلاحي الوحيد مكسور. وجدنا سيارتي تاكسي في الخارج، وسائقاها واقفان إلى جوارهما يدخنان. صاح "جوي" فيهما:

– المستشفى!... "كرانكنهاوس"!

يمكنك أن تتوقع بنفسك تفاصيل بقية ما جرى: حقنة مسكنة للألم، تعديل وضع عظمة الزند، الجبيرة، الجبس... هذا القرف كله. التفصيلة الوحيدة التي لن تتوقعها هي المبلغ الذي كان علينا أن ندفعه: ما يعادل 500 جلدة هولندية، وأعارتنا "بي جي" بطاقة الائتمان التي تحملها. لم نأخذ صور الأشعة إلا بعد أن دفعنا. والآن لم أعد أستطع أن أفعل أي شيء، إلا أن أشخبط بعض الكلمات بأصابعي الظاهرة من خلال الجبس. وفي داخل التاكسي الذي أخذنا إلى الفندق، التفت "جوي" إليَّ:

– صمدت دقيقتين ونص، وبعدها انكسرت.

دقيقتين ونصف: كنت مذهولًا، فقد مر ذلك الوقت حينها مثل زمن بلا نهاية.

– إنت متراجعتش قدامه ولا حتى بوصة واحدة، مع إن بقية المصارعين اتغلبوا منه في أول دقيقة. شفت أهمية الكالسيوم. تخيل لو أن العضمة دي صمدت؟ كان هيبقى قدامك فرصة. بالتأكيد. لكن مش مشكلة.. كلها شهرين، "فرانكي"، وبعدها نرجع تاني زي الأول.

بدا على "بي جي" أنها غير راضية:

– إنتم مجانين.

كانت الممرضة قد أعطتنا علبة مسكن، تناولت الجرعة الأولى منه في الخامسة مساءً، مع علبة بيرة.

– نام في غرفتنا الليلة دي، علشان لو كنت محتاج الحمام أو أي حاجة.

لم أكن قد فكرت في تبعات هذه الإصابة بعد؛ سيقوم "جوي" بالدور الذي كان يقوم به "إنجل" زمان. ولما تأملت في حالي، اكتشفت أنني لم أكن حزينًا إلى ذلك الحد على ذراعي. فقد وجدت عزاءً في أن هذا حدث أثناء مواجهتي لقديس الذراع. هكذا اعتبرت هذا الجبس نيشان شرف.

أظهرت "بي جي" تضامنها معي، ونافستني في شرب البيرة بنفس الوتيرة. كان وجه نادلة المطعم يحمل تعبيرات تنم عن معناة طويلة لا حدود لها. وهناك أمام مدخل الفندق، كان "جوي" عاكفًا على محرك الأولدزموبيل، يصلح الريدياتير الذي يسرب بشريط لاصق. أحضرت النادلة المزيد من البيرة، ووضعت "بي جي" الشاليمو في زجاجتي ووضعتها أمامي بحيث أمكنني أن أرشف منها بسهولة. شربت بكل نهم، لتهدئة التشنجات. ذراعي بالطبع لا تتحرك، ولكن التشنجات تسبب لي ألمًا جهنميًّا. أخرجت صور الأشعة من الظرف وعرضتها للنور واحدة تلو الآخر. عندما تنظر فيها على هذا النحو، تجد العظام أشياء ضئيلة واهية. وتتعجب من أن الكيفية التي أمكنها بها أن تصمد لدقيقتين ونصف الدقيقة.

– كسر من غير تهتكات أو تهشم. بيوجعك؟

أجل، عزيزتي "فلورنس". فهلا أرحتني من آلامي؟

– لازم ناخد بالنا منك الفترة الجاية، لأنك مش هتقدر تعمل حاجة لوحدك. امتحانات آخر السنة بتاعتي في أغسطس، ولكن ممكن أذاكر في بيت العيلة.

أعادت "بي جي" الصور في الظرف:

– ما تيجي ناخد جولة في البلد دي. الحقيقة إنها عاجباني.

هكذا دفعت العربة إلى خارج المطعم، ثم عبر اللوبي، حتى وصلت إلى مكتب الاستقبال ذي الإضاءة الخافتة عند نهاية القاعة. كان الموظف منشغلًا بكتاب.

– من فضلك.. "بيته".. عندك خريطة للمدينة؟ إحنا بندور على مطعم أو بار كويس.

رفع الرجل رأسه إليها غاضبًا:

– هير كاين بار! كاين بار إن بوزنان!

كانت لكنة الرجل السلافية تؤكد كل حرف ينطق به، وعيناه تلتمعان في غضب.

– ليس لدينا هنا إلا "أربيتسلوسن" أوند "بانديتن"! الخروج إلى المدينة انتحار!

شرح لنا كيف أن المجرمين ورجال العصابات سيخرجون لنا ويسرقوننا بكل سهولة. نظرت "بي جي" إليه في تعجب. ثم جربت خطة جديدة.

– ممكن أعرف بتقرا إيه طيب؟

– آه.. طبعًا.

ناولها الكتاب، فوجدنا أنها قصة كومكس، على غلافها شخصية "فامبريلا" مصاصة الدماء، وفي الخلفية ضباط من الشرطة النازية منهمكون في تعذيب عذراء شقراء.

قلبت "بي جي" في صفحات الكتاب، قبل أن تريني صفحة مرسومًا فيها رجال الشرطة النازية وهم يغتصبون مجموعة من النساء، يبدو من الرسم أنهن غجريات. مرسومات بتلك الصورة النمطية المعروفة. قالت "بي جي":

– مش بيرسموهم كده عندنا في بلدنا.

ابتسم الموظف، كاشفًا عن أسنان خربة. وفتح الدرج، وأخرج كتابًا آخر، ناوله لـ"بي جي". كانت النسخة البولندية من كتاب هتلر "كفاحي". المعتوه يقرأ "كفاحي". التمعت عينا "بي جي" وهي تقول لي:

– يعني إنت فاكر هتلاقي إيه غير كده في صندوق الرعب بتاعه؟

أعادت له الكتابين، ومالت بجسدها إلى الكاونتر، وهي تحاول أن ترى ما إذا كان يخبئ شيئًا آخر. بادر الرجل، فأخرج ألبوم صور صغيرًا يظهر فيه وسط غابات، وفي إحدى الصور يقف واضعًا قدمه فوق دب ميت. ويمسك بيده بندقية صيد ضخمة.

– شيسين جوت!

لم يكن قد أخرج لنا بعد الجائزة الكبرى؛ المسدس. لم أعرف موديله، وما إذا كان قديمًا أم جديدًا. وضع المسدس الكبير في راحة يده، ولم يناوله لـ"بي جي" إلا بعد كثير من المحايلة. كان فخورًا بما نبديه من إعجاب.

– الموضوع بيكبر كل شوية، "فرانكي".. شوف!

صوبت المسدس إلى القاعة من خلفنا، ونشنت بعينها. أطلق الرجل خلف الكاونتر ضحكة عجيبة اقشعر لها بدني.

‘Arbeitslosen und Banditen! Bang bang!’

كان آخر شيء ناوله لنا حزمة صغيرة تحتوي على جوازات السفر، كنا قد تركناها في مكتب الاستقبال الليلة السابقة. ناولته "بي جي" المسدس فناولها جوازات السفر. فتحت الجواز الأول، فرات أنه جوازي وهكذا وضعته في حقيبة عربتي. وضعت جواز سفرها في جيبها الخلفي. تبقى الآن جواز سفر "جوي". اختلست "بي جي" نظرة إلى باب الفندق، ثم إلى جواز السفر. فتحته؛ أبديت احتجاجي، فقد كنت أعرف بالضبط ما كانت تخطط له: كانت تريد أن تعرف

اسم "جوي" الحقيقي. إذن هي نفسها لم تكن تعرفه! ولكنه لم يسمح لأحد بأن يحاول أن يعرفه! بدا أنها فوجئت بالطريقة التي هززت بها رأسي بشدة.

- يعني إنت مش عايز تعرف؟

طبعًا كنت أريد أن أعرف، ولكن ذلك لم يكن قصدي. أعيديه مكانه أيتها السخيفة! ولكن عينيها كانتا تمسحان الصفحة الأولى بالفعل. اندهشت وابتسمت. ثم وضعت تلك الصفحة أمام وجهي، فلمحت صورة "جوي" قبل أن أبادر بإغلاق عينيَّ. غير مسموح لي أن أرى هذا. شعرت بالخطر، فليس لها الحق في ذلك، كانت بالنسبة لي كمن ارتكب للتو إثمًا كبيرًا؛ إثم معرفة اسمه الحقيقي، وسره الوحيد. وما إن اعتقدت أنها فهمت، حتى فتحت عينيّ، ولكني وجدت أمامي وعلى مسافة عشرين سنتيمترًا تلك الصفحة الأولى من جواز سفر "جوي" كما هي. كانت تبحث عن شريك في السر، تستدرجني إلى عالم فاسد، ذلك العالم الذي حذرني "ميتز" منه، سحقًا، وكيف لي أن أرفض لها طلبًا؟ ركزت على جواز السفر أمامي. صورة "جوي"، ملامحه التي تجمع بين القسوة واللا مبالاة. أوه، "جوي"، كم أنا آسف... أنا آسف.

اللقب

راتزينجر

الاسم

آخيل شتيفان

اختفى جواز السفر من أمامي، وناولته "بي جي" للموظف.

- ممكن تدي له الجواز بنفسك؟ دقايق وهو نفسه هيكون عندك.

أومأ برأسه في حيرة، فلا فكرة لديه عما حدث للتو. أعادتني "بي جي" إلى المطعم، وأوقفتني أمام زجاجة البيرة. وما هي إلا دقائق حتى كان دلف "جوي" إلى المكان، وهو يمسح يديه في خرقة متسخة.

آخيل شتيفان راتزينجر.

ناداه الموظف وناوله جواز السفر. وصل إلى مدخل المطعم، فابتسم لـ"بي جي":

- انتم أخدتم الجوازات؟ الراجل...

- أيوه، حبيبي، أخذناها.

- كويس... أنا كمان صلحت العربية.

أشعلت "بي جي" سيجارة له. تركت أصابعه بصمات زيتية. **آخيل شتيفان**. لماذا منحه أبواه هذا الاسم الفلمنكي العبيط؟ هل سمياه على اسم جد فلمنكي؟ حكيم من "فستمال"؟ صرنا الآن ننظر إلى رجل بلا سر. أم السر فكان نكتة عبيطة. **آخيل شتيفان**؛ وكأنه "آخيل" الذي خانته حبيبته قديمًا وسلمته إلى أعدائه الفلستيين الذين هاجروا من كريت قديمًا.

***

في تلك الليلة، تقيأت حتى أغرقت كل مكان في الغرفة. وساعدني "جوي" في الوصول إلى الحمام، وصرخت، وصرخت، وكأني أطلب منه الصفح والمغفرة.

قال لي "جوي" في اليوم التالي ونحن في الطريق إلى بلدتنا:

- إنت بهدلت الدنيا امبارح... ده انت حتى رجعت عليّ.

أما السر الذي لم يقله فهو أنني بللت أصابعه عندما تبولت.

أما في خلفية المشهد بالسيارة، فكانت "بي جي" صامتة... صمت أبي الهول.

39



كانت معرفة اسم "جوي" الحقيقي تجربة كاشفة. إذن فـ"آخيل راتزينجر" هو المصير الذي يحاول الفكاك منه؛ ولكنه وقع في براثنه برغم كل محاولاته. أتذكر أن هناك شخصيات في الكتاب المقدس منحت أسماء مغايرة، بعد لحظة فارقة مرت بحياتها. كنت أريد أن أتأكد، فدونت لماما ملحوظة على قصاصة ورق، أطلب منها أن تأتيني بنسخة الإنجيل التي لديها.

لما جاءتني ورأتها، تنهدت، وقالت لي:

- الرجوع للدين مالوش معاد.

وبعد تنقيب سريع في صفحات الكتاب، عثرت على مبتغاي. ففي سفر التكوين، يمنح الرب اسمين جديدين لكل من "أبرام" و"ساراي". **فَلاَ يُدْعَى اسْمُكَ بَعْدُ أَبْرَامَ بَلْ يَكُونُ اسْمُكَ إِبْرَاهِيمَ، لأَنِّي أَجْعَلُكَ أَبًا لِجُمْهُورٍ مِنَ الأُمَمِ**. وصار اسم "ساراي" زوجته "سارة".

أما في العهد الجديد، فوجدت أن "بيتر" ينال اسمًا جديدًا أيضًا، نجده أولًا في إصحاح "مرقص": وأقام اثني عشر ليكونوا معه وليرسلهم ليكرزوا. ويكون لهم سلطان على شفاء الأمراض وإخراج الشياطين. وجعل لسمعان اسم بطرس. ويعقوب بن زبدي ويوحنا أخا يعقوب وجعل لهما اسم بوانرجس أي

ابني الرعد. وأندراوس وفيلبس وبرثولماوس ومتى وتوما ويعقوب بن حلفى وتداوس وسمعان القانوي. ووجدت الشيء نفسه في إصحاح "يوحنا"، حيث يقول: وَاقْتَادَهُ إِلَى يَسُوعَ. فَنَظَرَ يَسُوعُ مَلِيًّا إِلَى سِمْعَانَ وَقَالَ: أَنْتَ سِمْعَانُ بْنُ يُونَا، وَلَكِنِّي سَأَدْعُوكَ: صَفَا. وهذا الاسم ترجمته هي "بيتر".

وفي سفر أعمال الرسل، يمر "سول" – المحامي المتعصب ضد المسيحية – بتجربة تغير الاسم، وقت أن ظهر له نور سماوي وهو في طريقه إلى "دمشق". حينئذ صاح فيه صوت زعم أنه صوت يسوع: "سول... سول... لماذا تختصمني؟". ومنذ تلك اللحظة تحول "سول" إلى المسيحية، وصار اسمه لبقية حياته "بولس".

بدا لي أن الحواريين يمنحون أسماء تتماشى ووضعهم الجديد. أبناء الرب الذين يحملون أسماء تميزهم.

وفي الأخير، قرأت في سفر الرؤيا أننا لو أصغينا للروح القدس، فعندئذ نوهب اسمًا جديدًا. مَنْ لَهُ أُذُنٌ فَلْيَسْمَعْ مَا يَقُولُهُ الرُّوحُ لِلْكَنَائِسِ! كُلُّ مَنْ سَيَنْتَصِرُ سَأُطْعِمُهُ مِنَ الْمَنِّ الْخَفِيِّ، وَأُعْطِيهِ حَجَرًا صَغِيرًا أَبْيَضَ حُفِرَ عَلَيْهِ اسْمٌ جَدِيدٌ لَا يَعْرِفُهُ إِلاَّ الَّذِي يَأْخُذُهُ!.

ذلك هو الاسم السري الذي لا ينبغي لأحد أن يعرفه... ولكن "بي جي" وأنا نظرنا خلسة اسفل ذلك الحجر وخاب أملنا لما وجدناه: ذلك الاسم المهين الذي يحمله "جوي" على عاتقه، حتى أنك صرت ما إن تراه حتى تحاول جاهدًا منع نفسك من الضحك. كانت نقطة ضعفه كامنة في اسمه طوال الوقت. وكما قالوا: اسمك قدرك. أبناء الرب وهبوا أسماء ارتقت بشأنهم؛ أما مع "آخيل شتيفان"، فلم يسعني أنا و"بي جي" سوى أن نهبط به من تلك المكانة التي وضعناه فيها. وأضحى أمامنا عاريًا تمامًا.

***

بذلت "بي جي" معي مجهودًا كبيرًا في الأسابيع التالية، فكانت تخرج بي لنتمشى، بل وتعرض علي أن أرتدي نظارتها الشمسية حتى أريح عيناي. وعندما يأتي المساء تأتيني لتطعمني الفرانكفورترز، رغم أن من الواضح عليها أنها لا تحبها. ويأتيني "جوي" بعد ساعات العمل، فنجلس معًا نحن الثلاثة؛ حتى إن من يرانا يعتقد أنهما زوج وزوجته بصحبة ابنهما المسكين. يساعدني "جوي" في الحمام. عند التبول فقط. لا أسمح إلا لماما وحدها أن تنظف مؤخرتي في الحمام. يكفيني أن "جوي" يضطر أن يمسك عضوي في كل مرة أنتهي فيها من الحمام حتى يعيده إلى داخل سروالي الداخلي من جديد. ولكنه لا يجففه تمامًا من البول كما كنت أفعل، وبالتالي تضطر ماما إلى أن تغسل سراويلي الداخلية في ماء مغلي حتى تتأكد من تمام نظافتها. أشيح بوجهي بعيدًا كلما ساعدني "جوي" في الحمام، وأتظاهر كأني غير موجود. وبالطبع قد أقدم على الانتحار لو حدث وانتصب عضوي عندما يمسك به "جوي".

صرت أقرب إلى "بي جي"، والفضل لاسم "جوي" الحقيقي. يعاود الشعور بالذنب الظهور في نفسي كلما صرت وحيدًا، أرقد متأملًا آخر أنوار النهار. أحيانًا أرى "إنجل" في مخيلتي، وذلك التعبير المعتاد على وجهه كلما كان يراني، فيخطر لي أن أيًّا من كل تلك الأحداث ما كانت لتقع لو أنه لا يزال حيًّا. ها هو "جوي" يقف وحيدًا في مواجهة امرأة لا تتورع عن أي شيء ("هي ليست محرومة أو فاسقة، هي ببساطة بلا ضمير" – من رواية "عن امرأة")، بينما من حوله صديقان يكرهانه بالقدر نفسه.

وقت أن لا أكون في مزاج مستسلم لذلك الشعور بالذنب، أحاول أن أقنع نفسي بأن الأمر لا يعدو أن يكون تبادل أسرار؛ فهو قد رأى عضوي، وأنا رأيت اسمه. فما الضرر في معرفتنا بسره على كل حال، أليست "بي جي" معه؟ من العدل إذن أن أقتنص منه أي شيء في المقابل. أنا بالنسبة له مجرد نشال حقير، بينما هو لص محترف. ولكنني حينما أستغرق في التفكير مجددًا أسمع تلك الضحكة الغريبة لموظف فندق أوليمبيا، وأعجز عن صد قطار الأفكار هذا. هذا

الاسم "جوي سبيدبوت"؛ إنه أكثر من مجرد نزوة مراهقة، إنه مصيره. أبناء الرب تغيروا إلى النقيض بسبب أسمائهم الجديدة، حتى صار من المستحيل أن يعودوا إلى ما كانوا عليه وقت أن كانت أسماؤهم "أبرام" أو "سمعان" أو "سول". ولكن هذا تحديدًا ما جرى مع "جوي". فلم نعد نرى فيه ذلك الساحر المحبوب، ولكن "آخيل شتيفان راتزينجر"، مثله مثل "كريستوف" الذي حاول زمان أن يواري شخصيته المنكوبة في اسم ابتكره، "جوني منداي".

أرى أن "بي جي" بدأت تتعامل مع "جوي" على أنه "آخيل"؛ فقد زحفت اللا مبالاة إلى أفعالها التي تعبر بها عن الحب: اصطبغت كل قبلة وكل لمحة الآن بالسخرية. حركات مزيفة جوفاء. قررت أن تمزقه إربًا، ولكن ببطء مؤلم.

أعتقد أن لكل شخص جوهر مقدس؛ منطقة داخله تعكس مكنونه؛ وهو نفس الجوهر الذي فسد فيّ، والذي عجزت عن اكتشافه في "بي جي". لم أجد فيها سوى شخصية انتهازية مفترسة لها جمالها الخاص بالتأكيد؛ فعندما تعتني بي، تجعلني أشعر وكأني مهم حقًّا لها. وهو ما يربطني بها أكثر فأكثر، وأنا أعرف أنها لا تشعر تجاهي بأي حب، ولكنها تبذل جهدها لتجعلني أشعر بذلك، لأسباب ربما لن نعرفها أبدًا. يقول "ميتز" في روايته: "ربما كان لديها قلب، ولكنها تبقيه في ألف مكان". وأعتقد أن "بي جي" تريد ذلك حقًّا، وأنها حانقة على ما يبديه "جوي" من فقدان لذاته وهو يحبها، حتى إنها تحتقره لذلك.

من الواضح أنها لا تزال مفتونة بدفاتر اليوميات لديَّ، "تاريخ لومارك ومواطنيها". وسيأتي يوم تطلب فيه مني قراءتها. وسوف أتخلى عن رفضي، فلو كان لي أن أسمح لأي شخص فلا يوجد غيرها بالتأكيد. أنا أرحب بها في عالمي كما ترحب بي في عالمها. ولكن اليوم الذي أحدثك عنه هو هذا اليوم، الآن، وهي ترسم على جبس ذراعي. ترسم "إسلام منصور" مثل كينج كونج، يحملني (وقد رسمتني صغيرًا) في كف يده، وينظر لي بعين واحدة جاحظة. كتبت تحت الرسم عبارة "أعظم حكاية حب". تجيد الرسم، وأعجبني تصويرها "منصور" في هيئة غوريلا. يكاد جسدها يلاصق جسدي وهي تلون

الغوريلا بالأزرق؛ أسمع أنفاسها الهادئة العميقة، وأشعر بحرارة جسدها. أحيانًا يتوقف انتشار الحبر الملون بسبب نتوءات في كتلة الجبس. انتبهت إلى أنه عندما يسقط الضوء على وجهها بطريقة معينة فإن حاجبيها يصيران حمراوين. قالت لي مع ظهور بوادر التشنج عليَّ:

- اثبت.

ملت إلى الأمام قليلًا حتى أداري بوادر انتصاب في ثنايا البنطلون. ومن هذا الذي لا تتحرك أحاسيسه وهي في المكان؟ حتى أنا الذي أعرف حقيقتها أعجز عن مقاومة غوايتها التي تنثرها من حولي من دون أن تدري. أدركت قصدي؟ أنت قادر على الانتباه لطبيعتها اللعوبة، ولكن الإرادة الحقيقية تكمن في أن تشيح بعينيك عنها. هذا هو الذي يجعل من "بي جي" قدرًا محتومًا بالنسبة لكل من عرفها. وأنا بالمناسبة لا أرغب في أن أكون الاستثناء من هذه القاعدة.

انتهت من كينج كونج، ووقفت تنظر إليه. أشحت بوجهي، وركزت عينيَّ على سطح الترابيزة وما عليه من أشياء. صار الجو فجأة مشحونًا، لدرجة أني أجد صعوبة في ابتلاع ريقي. سألتني بنبرة هادئة:

- مالك، "فرانكي"؟

كأنها أمسكت بي متلبسًا؛ أحيانًا تكون أفكاري مثل الكعك الذي يمكنك أن تسحبه ساخنًا من الفرن. وقبل أن أبدي أي رد فعل، وجدت يدها في حجري. يدها... في حجري. تمنيت مذعورًا ألا تنتبه إلى انتصابه، قبل أن أدرك أن هذا هو بالضبط ما كانت تبحث عنه. يد سماوية تعتصره برفق ولطف؛ لم يسبق لأحد قبلها أن فعل معه ما تفعله، ولا حتى أنا. ليس مثلما تفعل، ليس هذا أبدًا. رمقت النافذة وهي تفك حزامي. لم أتحرك، ولم أهمس، فأنا خائف بشدة من أن أفعل أي شيء من شأنه أن يوقف ما يجري. فتحت السوستة، ودست يدها في الداخل. يد دافئة تمسك به، فأكاد أختنق من فرط هذا الإحساس المنتشي. سحبته للخارج ببطء، وبدأت تدلكه على مهل. قالت وكأنها تتكلم مع نفسها:

- منتصب جدًّا.

تحركت يدها أسرع قليلًا، وأحكمت قبضتها أكثر، ووصل إحساسي بالاستمتاع حدود الخيال. أسمع صوت احتكاك قماش البنطلون بمعصمها، وأنفاسها تتسارع. تلك الخطوط التي ارتسمت على جبينها بين عينيها. أبطأت، قبل أن تمر بإبهامها فوق رأسه، ولم أعد أرى في مخيلتي إلا صورة تساقط ثلوج في المساء، وارتعشت، وقذفت، مغرقًا يدها والبنطلون. ارتج جسدي وأنا أكتم تلك الصرخة. ثم ارتخى كل جسدي، وابتعدت هي. ابتسمت، وهي تنهض متجهة إلى المطبخ تبحث عن فوطة، لتنظف يدها. ونظفت بنطلوني كذلك.

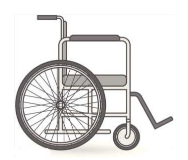
بعد برهة، اتجهت إلى الباب، وهي تحمل حقيبتها. وعندها التفتت إليَّ، وسألتني:

- خدت بالي منك كويس النهاردة، "فرانكي"؟

وأنعمت عليَّ بابتسامة صغيرة. أسندت ظهري في انهيار إلى مقعدي، بعد أن عرفت أن لا حدود لما يمكنني أن أفعله لأجلها. لقد وقعت في براثن كفرها وعبثها، وتغلغلت هي في داخلي بسهولة مثل قملة تتمشى في فروة رأس طفل، وعرفت أن كل ما ظننته في نفسي صحيح، وما هي إلا مسألة وقت قبل أن يظهر كل شيء على السطح. أيقنت أن في المعرفة قدر من الحرية؛ وأن الحقائق أفضل من الشكوك.

اليوم قررت أن أنهي تعاستي؛ وأقنعت نفسي أن استبدل المتعة في صورة "بي جي" بالصداقة الوحيدة في حياتي. وجدتها مقايضة عادلة. ولا يهم إن كنت ترى عكس ذلك.. طالما أن ضميري مرتاح.

40



بعد بضعة أيام، كنت أنظر في حسرة إلى الجبس الذي انهمكت الممرضة في تقطيعه رغم وجود رسمة "بي جي" عليه. صارت ذراعي أنحف تحت الجبس، وسأبقى لقرابة شهر آخر عاجزًا عن القيام بأي مجهود بها. وفي أواخر يونيو مر علينا اليوم الأطول في العام، وكان ممطرًا تصحبه شبورة. أخبرتني ماما أن هذا يعني أنه الصيف سيشهد أمطارًا كثيرة، وأن علينا أن نتجهز لذلك؛ وأن سماء الصيف ستكون غائمة في أيام كثيرة، مع مطر خفيف أو متقطع، وستكون درجة الحرارة في النهار ما بين تسع عشرة واثنتين وعشرين درجة، وستظهر حشرة أبو مقص كثيرًا.

خفت في أول مرة أفتح فيها علبة الفرانكفورتر بمفردي أن تنكسر ذراعي مرة أخرى، ولكن بعد حين عاد كل شيء إلى طبيعته. واحتجت بعض الجهد حتى أعود إلى إيقاع التدريب السابق، ولا أستطيع أن أتخيل أنني و"جوي" سنعود إلى سيرتنا الأولى ببساطة، ولكنه كان واثقًا من ذلك. الشك في رأسي فقط، حيث تجسد كل ما جرى في الأشهر القليلة الماضية في لحظة ما فعلته لي "بي جي" بيدها. أنا الآن في عصر ما بعد يد "بي جي". واستحالت براءتي كلها إثمًا لم يتحقق بعد.

أحيانًا يقول لي "جوي" أشياء من قبيل:

- أنا محتار، مان، وساعات ببقى خايف جدًّا. من وقت وفاة "إنجل" وأنا حاسس إن فيه مصيبة هتحصل.

يشتم رائحة إبطه، قبل أن يردف:

- أننا شامم ريحته... ريحة الخوف.

انشغل كثيرًا بالبلدوزر، فهو يريد أي جهد بدني يساعده على مواجهة الآلام التي يعجز عن التعبير عنها بالكلمات. هو أيضًا قابل لأن يكون إنسانًا، عاريًا، خائفًا، وحيدًا.. مثله مثل بقية البشر.

كلفته المشاركة في رالي باريس - داكار الكثير؛ عثر على راعيين، أهمهما مصنع الأسفلت، وكذلك دعمه عدد من التجار على سبيل حب المغامرة. منحوه أكثر من تي شيرت عليه أسماؤهم وشعارات متاجرهم. ساعده المال الذي جمعه من مباريات مصارعة الريست، وكذلك ما ادخره من أجره الشهري. سيكون في الأول من يناير في "مرسيليا" لبدء الرالي. وبعد ستة عشر يومًا سيتوقف الجميع في "شرم الشيخ" في مصر؛ فليس معنى أن اسمه رالي باريس - داكار أنه بديهيًّا يبدأ وينتهي هناك.

ذات يوم، عندما جاءني "جوي" ومعه خريطة كبيرة لأفريقيا، ووضح لي مسار السباق، خطر لي فجأة أن لديه دافعًا خفيًّا: "شرم الشيخ" على البحر الأحمر، وهي ليست بعيدة عن قرية "نويبع"، حيث كان بازار "بابا أفريكا" عندما التقى "ريجينا". ولكن "جوي" لم يصارحني بأي من هذا، وأنا لم استفسر منه. لملم الخريطة، ثم سألني:

- إيه رأيك أعلقها هنا؟ بالتالي تقدر تتابع أنا موجود فين.

الخريطة كبيرة، من النوع الذي يستخدم في المدارس، بمقياس رسم 1 لكل 750 مليون سم، على طراز "وينشو". ميز "جوي" مسار السباق بقلم فسفوري.

في الخارج تتمايل أزهار الخشخاش الحمراء بشكل جميل على خلفية سماء رمادية، وأحيانًا تتمكن أشعة الشمس من اختراق الغيوم فتلونها بتشكيلة جذابة في المساء. يتقافز الحمام والعقعق على سطح بيتي، وأسمع أصواتها واضحة تمامًا. تقتات على الطحلب الذي نمى فوق الإسبستوس.

صرت أتحرك بحرية من جديد، ولكن "لومارك" بدت لي مختلفة. استغربت حاجز النهر وشوارع البلدة. خمد ذلك الأمل الذي كان "جوي" يغذيه بوجوده، وعدنا كما كنا وكما سنكون دومًا. "جوي" هو المخلص من دون وعد؛ هو من يبعث في المكان حركة، حتى ولو لم ينجم عن ذلك أي تقدم. قال لي منذ زمن:

- إحنا بنبذل كل جهدنا في صنع الطيارة، علشان عايز نوصل للسر، ولكن ساعتها هنلاقي إن مفيش سر. مجرد طيارة. لكن ده مش عيب.

كأنه يلقي بتعويذة في أجواء البلدة، ولكن يبدو أن المطر بددها بعد غيابه.

***

يقترب الطريق E981 منا أكثر فأكثر، يمكنك أن ترى الآلات والمعدات من على البعد، وبعد حلول الظلام تشاهد طوفانًا من الأضواء الكاشفة هناك. الطريق السريع الإقليمي عائق كبير، والناس يشكون، ولكن بعد فوات الأوان. بينما يفرك "إيجون مانداج" يديه في قمة الفرح، فالطريق E981 في مصلحته بكل تأكيد. وأعتقد أنها في النهاية ستكون فأل شؤم على مصنع الأسفلت أيضًا؛ لأن عدم وجود مخرج سيؤثر بشكل فادح على سير العمل فيه.

اشتبك الصيف مع الخريف، بينما استعدت لياقتي وبدأت في العودة لمصارعة "هيني أوسترلو" للحفاظ على إيقاع المباريات. لا أعتقد أنني

و"جوي" سنشارك في أي بطولات هذا العام، فهو مشغول جدًّا بأشياء أخرى. وبعد رالي باريس - داكار سنرى كيف تسير الأمور.

ذات يوم، صادفت "إنديا" عند السد، كانت تتمشى خارج المنزل وتدرس في كتاب عن "الناس في غرب البلاد". يتساقط رذاذ خفيف من سماء صفراء. سرت "إنديا" لرؤيتي، ولاحظت أنها صبغت شعرها بالأسود، مما جعل وجهها يبدو شاحبًا جدًّا.

- "فرانكي"... وقت طويل من آخر مرة اتقابلنا.

أحسست أنها على وشك البكاء. فاخرجت المفكرة وكتبت أنها صارت تبدو هندية، خصوصًا مع لون شعرها هذا. كانت قطرات المطر تفسد الحبر والورقة. مرت "إنديا" بيدها خلال خصلات شعرها في تجاوب غريزي.

- الموضوع مش الشعر... دي مسألة مود.

تمشينا معًا عائدين إلى "لومارك"، وعند لحظة الافتراق، تحدثت معي بجدية:

- يا ريت تاخد بالك من "جوي" أكتر، "فرانكي". أنا حاسة إنه.. إنه تايه الفترة اللي فاتت. فاهمني؟

أفهمها جيدًا. وأعرف قصدها. راقبتها وهي تبتعد، بمعطف الجيش الزيتوني الذي ارتداه "جوي" ذات مرة، والذي هو لأبيها، فيما أعتقد. أضحى لون المعطف داكنًا بسبب المطر، وزاد ثقله على كتفيها. التفتت نحوي وحيتني بيدها تحية خاطفة.. تلك الفتاة التي لها رائحة الخوخ.

***

في 20 ديسمبر، رحل "جوي" إلى "مرسيليا"، حيث سيبدأ السباق. ليس معه ما يكفي من المال لرحلة مريحة، وسيضطر لقطع الطريق كله بالبلدوزر.

- هتبقى فرصة أختبره فيها عمليًّا.

حدد بدقة مسارًا أشبه بطريق خلفية؛ حتى يتفادى أي تعطيل أو توقيف على الطرق الرئيسية وما يصاحب ذلك من الأسئلة المزعجة. سيكون على حريته ما إن يبدأ الرالي. كم أنا معجب بتعامله الرائق مع عناصر الزمن والجهد والجاذبية.

خرج ثلاثتنا - والدة "جوي"، و"بي جي"، وأنا، في الصباح الباكر لتوديعه. الجو بارد ممطر، وتغلف العالم ظلال زرقاء. تحمل "ريجينا" مظلتها فوقي، فلا يهبط المطر إلا على جانبي الأيسر. بدا عليها التقدم في السن في صورة غير جميلة. جفت منها الحياة، بعد أن سحقها الحب.

يهدر محرك البلدوزر في موقف السيارات أمام البنك. أعلن "جوي" أنها لحظة الرحيل، وبكت "بي جي" قليلًا. تعناقا و"جوي" يهمس شيئا في أذنها لم أستطع سماعه. أومأت له في حزن، وقبلته بشجاعة. ثم حضن "جوي" أمه بقوة وهو يطلب منها ألا تقلق، وأنه سيعود بسلام. "مفيش حاجة ممكن تحصل لك وحشة بسببنا". صافحني وهو يبتسم:

- أوعى تنسى أقراص الكالسيوم، "فرانكي". أشوفك السنة الجاية.

عانق "بي جي" مجددًا، ولم تكن هي تريد أن تفارق حضنه.

- أشوفك قريبًا، حبيبتي. هاكلمك.

صعد إلى كابينة القيادة. مشهده رائع وهو فوق ذلك الشيء. ضغط دواسة الوقود، بينما تنهمك المساحات في اكتساح كل شيء يهبط على الزجاج، وبدأ الوحش في التحرك. أخرج "جوي" يده من النافذة المفتوحة، وبدأ في الخروج من موقف السيارات، وهو يطلق بوق التنبيه، ويدخل في الشارع. هذه هي آخر مرة سنراه فيها حتى أول يناير.

صرنا نتابع نشرة الأخبار على قناة RTL 5، كل ليلة من الحادية عشرة والنصف حتى منتصف الليل، فهي الفترة المخصصة لتغطية الرالي. أشاهدها في غرفة معيشة والديّ، ونرى السائقين في تجمع بالقرب من المدرج، وهناك فرقة موسيقية، بينما يبرز البلدوزر بوضوح بين بقية سيارات السباق – تغطيه ملصقات إعلانية لمصنع الأسفلت وشركة "فان باريدون" لتأجير السيارات، ومحل جزارة "بوت"، وعدد آخر من المعلنين الأقل حجمًا. لقد فعلها إذن، ووصل إلى "مرسيليا" عبر طرق خلفية، وهذا في حد ذاته معجزة. ليس عليه الآن إلا أن يقطع مسافة 8552 كيلومترًا إلى "شرم الشيخ". ونحن جالسون إلى المائدة، تمتم بابا أن "جوي" "مش مظبوط... من ساعة موضوع القنابل".

اتجهت قافلة السباق في اليوم الأول إلى "ناربون"؛ وفي اليوم التالي كانت في "كاستيلون" في "إسبانيا"، على مقربة من "فالنسيا". وفي ميناء "فالنسيا" تم تحميل كل شيء على عبارة ومن ثم إلى شمال أفريقيا. في تونس، قاد "جوي" البلدوزر تحت الشمس، وبعد يوم واحد وصول الصحراء. في بعض الأحيان، عندما يتم تصوير الرالي من الجو، يمكننا أن نلمحه ومن ورائه سحابة ضخمة من الغبار. يتجه السائقون عبر خط مباشر إلى الجنوب، وفي اليوم الرابع وصل "جوي" قبيل الوقت المحدد. لو فشل لكان عليه أن يغادر السباق على الفور. سمعته يتمتم بكلام غير واضح "الوقت المناسب تمامًا". بدا لي أنه شعر بخطئه، وأن البلدوزر ليس سيارة صحراء مثالية كما كان يعتقد. المنطقة جميلة ولكنها صعبة، وانشغل السائقون بالتعامل مع الكثبان الرملية والفجوات العميقة في الوديان التي جفت. والبقية وصلت إلى "غدامس"، وهي نقطة عند الحدود الليبية، في ذلك الجزء من العالم، حيث تستحيل الخريطة صفراء مع وجود أكثر من 6314314 كيلومترًا مربعًا من الصحراء. الآن صار "جوي" في الصحراء الكبرى حقًّا، بصحبة بلدوزر...

في اليوم السابع، وكانت هذه هي المرة الأولى، ظهر "جوي" على الشاشة بنفسه، بعد مرحلة من السابق طولها 584 كم عبر الحدود الجزائرية الليبية. كان الظلام قد حل بالفعل عندما ظهر وهو يدخل بالبلدوزر إلى المخيم. انتبهت له ماما، التي لم تكن قبل ذلك منتبهة تمامًا للشاشة:

- ده هو.

وجه "جوي" أسمر متسخ، ومصابيح الكاميرات تنيره على خلفية سماء زرقاء داكنة وخيام، وكذلك أطباق الأقمار الصناعية ورجال يرتدون سترات جلدية يتحركون هنا وهناك في سرعة. ينظر "جوي" إلى ما خلف من يحاوره ويحيي شخصًا لا نراه. يرتدي تي شيرت برعاية مصنع أسفلت لومارك، يميزه الجملة التي تضعها الشركة في إعلاناتها "لتمهيد كل احتياجاتك". سأله المحاور عن السبب الذي دفعه إلى المشاركة في السباق بلدوزر؟

- الفرق بسيط بين الشاحنة والبلدوزر. كنت فاكر إنها أفضل وسيلة انتقال في الصحراء، بعد الجمل طبعًا.

- ورأيك دلوقتي؟

ابتسم "جوي" منهكًا:

- بالتأكيد لأ.

- بتواجه صعوبات؟

- الألم في كل أجزاء جسمي. وكمان مفيش فرصة أشوف الصحراء حولي وأنا في السباق. الصحراء هي اللي جذبتني لهنا، ولكن لقيت إني لازم أركز على الطريق في كل ثانية. خصوصًا في المنحدرات والكثبان الرملية وغيرها، وساعات ألاقي الرمل أقرب لبودرة التلك. مطلوب منك تكون منتبه للطريق على طول.

- انت مشارك تحت اسم "جوي سبيدبوت"، هل للاسم المستعار ده مغزى؟

- ده اسمي، ومن غير أي قصد تاني.

- بجد؟

- طبعًا.

- أوكيه، "جوي". توقعاتك إيه لمرحلة الغد؟

- لسه ما استلمتش دليل المرحلة، الأول لازم آكل وأتزود بالوقود، وكمان أصلح الغيارات.

- أنا بانبهك إنها مرحلة صعبة جدًّا: قدامك خمسمية كيلو لحد "سَبها"، والطريق أغلبه صخور وبيمر على مرتفعات "مرزوق" الرملية. إيه شعورك؟

- هلاقي حلًا.

- جود لك بكرة، "جوي"، ونشوفك في "سبها".

ابتعد "جوي" عن الكشافات، وعرضت القناة أبرز لقطات السباق في ذلك اليوم، ومنها لقطة متسابق هولندي - هو في الاصل مشرف بناء - وهو يكابد للخروج بدراجته النارية من كثيب رملي. وفي النهاية نجح في الوصول إلى المخيم قبل "جوي" بساعتين.

هناك فرق واضح بين الهواة والمحترفين؛ فالمحترفين يصلون دومًا مبكرين إلى المخيم، حيث تكون طواقمهم في انتظارهم. ويستحمون، ويرتدون ملابس نظيفة قبل الوقوف أمام الكاميرات. أما الهواة فليس لديها طواقم، ولا حتى ميكانيكي في كثير من الأحيان. ولأنهم عادة ما يصلون متأخرين إلى المخيم، فإن تاثير الصحراء يكون عليهم أوضح. متسخون، منهكون، متوترون، وغالبًا ما لا

ينامون سوى بضع ساعات كل ليلة. ففي الساعة الخامسة من صباح كل يوم يستيقظون في ميعاد أول طائرة "أنتونوف" تغادر للمعسكر التالي، ووقتها تبزغ في الصحراء مدينة صغيرة - بكامل تجهيزاتها من مطابخ ودورات مياه وخيمة الصحافة، وأطباق الأقمار الصناعية، وحتى غرفة عمليات مجهزة تجهيزًا كاملًا - في غضون ساعات قليلة. وبعد ساعة، يكون كل شيء قد تغطى بالغبار والرمال، وتتعالى الشتائم داخل خيمة الصحافة بالعديد من اللغات.

لا يزال "جوي" محتفظًا برباطة جأشه، والسباق يتجه إلى الشمال الشرقي، ويكمل واحدًا من أصعب الامتدادات من دون أي نكسات حقيقية. ويصل إلى "سبها" بعد غروب الشمس. أعجب طاقم التصوير بفكرة وجود سائق هولندي على بلدوزر: ففي صباح ذلك اليوم صوروه وهو يغادر المخيم، وينتظرونه عند وصوله. مجرفة البلدوزر مرفوعة، بينما يشير "جوي" بإبهامه مؤيدًا وهو في الكابينة. هناك دعامتان معدنيتان مثل السلم معلقتان إلى جانب البلدوزر حتى يتمكن من تخليصه من الرمال في حال علق؛ وفي مؤخرة البلدوزر إطاران احتياطيان ضخمان.

السائقون منهكون تمامًا. وقعت حوادث كثيرة، ولقي سائق مصرعه.

بعد ظهر السبت، جاءت "بي جي" من دون توقع مني. هي في "لومارك" لحضور عيد ميلاد أمها يوم الأحد. ترتدي معطفًا يزينه فراء فضي، وتنفض الماء عن شعرها. أعددت الشاي وأنا سعيد لرؤيتها.

- متابع أخبار "جوي"؟

لمحت قطرات المطر على حلمتي أذنيها. كتبت لها "كل ليلة... أداء رائع".

طالعنا خريطة أفريقيا. بالأمس غادر "جوي" "سبها" في الصحراء الليبية: لا يظهر على الخريطة أي مساحة حضرية قبل واحة "سيوة" المصرية، بعد

الحدود بقليل، ومن المتوقع أن يصلها في الغد. هي أشبه بمحيط واسع خالي، فليس مع "جوي" إلا الرمال والنجوم.

- اتصل بي مرتين. مرة وهو في "فرنسا" والثانية من "تونس"، أظن كده. حسيت إنه لو كان على القمر كان هيبقى صوته أقرب من كده.

شربنا الشاي، وتمرنت "بي جي" على لف سجائر البفرة لأجلي. ورغم سوء حالة السجائر الملفوفة، لكني سأدخنها بكل الحب.

- بتكتب عنه... عن "جوي"؟

كنت قد عدت بالفعل للكتابة من جديد، بدافع الملل. ولكني لست مطمئنًا لأسلوب كتابتي. وجدت أسلوبي مباشرًا مستطيلًا مثل الحدود بين ليبيا ومصر، وربما هو مثلها... خالٍ من أي تورية وإيهام.

- ممكن أقراه؟... بتضحك على إيه؟

"كنت فاكرك مش هتطلبي".

- طيب، عندك مانع؟

"على شرط... تقرئيه من الأول للآخر".

- أوه.. كويس جدًّا، لإني عايزة أسمعك بتتكلم. إنت فاهم قصدي؟ الدفاتر دي هي صوتك.

بعد دقائق، كانت ترقد على بطنها فوق السجادة وأمامها رزمة من الدفاتر. الموقد مشتعل، فدخنت سيجارة وأنا أراقبها تقرأ. وضعت مصباح المكتب على الأرض إلى جوارها وكانت تقلب الصفحات بفواصل زمنية منتظمة. لما تضحك أطرق على الترابيزة؛ حتى أعرفها أني أريد أن أعرف أي جزء تقرأ.

- طريقتك في الكتابة ساخرة. خصوصًا لما تكتب عن "كريستوف"، إنت قاسي عليه فعلًا. أنا شايفاه شخص لطيف.

أفكر في "جوي"، الذي يهدر شرقًا في تلك اللحظة خلال عالم من الرمل والحجر، وحده مع أفكاره، وعينيه على الدروب أمامه. تصدر "بي جي" بعض الأصوات وهي تقرأ. تمنيت لو أني كتبت المزيد حتى أستبقيها هنا، فلا بد لهذه السعادة أن تدوم، إلى الأبد. أحاول معرفة كم من الوقت تحتاج، عشر ساعات على الأقل، وربما أطول. إلى يسارها الرزمة التي لم تقرأها بعد، وعلى يمينها ما قرأته بالفعل، وهي تلك التي تحدثت عن قنبلة "جوي" التي انفجرت في حمام الأولاد في المدرسة، وعن بريق السنوات الأولى، قبل مجيئها. تظهر "بي جي" بداية من الدفتر رقم 11 أو 12. وهي لن تصل إلى هذا الحد اليوم؛ فقد سألتني عن الساعة واندهشت لما رمقت ساعة المطبخ.

- أوكيه لو عديت عليك بكرة بدري، "فرانكي"؟ .. كويس جدًّا، ياريتني أقدر أقراها كلها مرة واحدة.

في ذلك المساء عرفت أن "جوي" لا يزال في السباق؛ يبدو أن يومه كان سهلًا نسبيًّا، فقد ظهر مرتاحًا. صار فقرة يومية في البرنامج، حتى أنها حملت عنوان "سبيدبوت وسط الرمال". تستغرق بالكاد تسعين ثانية، وتعرض لما قام به في ذلك اليوم وتنتهي بلقاء قصير يدلي خلاله "جوي" بتعليقات مرحة. يرتدي الليلة تي شيرت يحمل شعار شركة "سانتنج بينترز" للدهانات، مع إعلان عن خصومات الشتاء.

- أنا شايف إنها معركة ضد الملل. إنت في كل يوم بتشوف حاجة جديدة. مش نفس الأشخاص. ومفيش حد تكلمه غير نفسك، وفي كل ليلة بيكون عليك تتعامل مع البثور والتسلخات. كأنك عايش طول الوقت لوحدك في حارة ضلمة.

أنا من أعطاه مراهم التسلخات والبثور، فقد كانت فترة صلاحيتها توشك على الانتهاء.

- حاسس بالوحدة، "جوي"؟

- طالما أنا على الطريق الصح وما خرجتش عنه فعمري ما أشعر بالوحدة.

علقت ماما، التي كانت جالسة إلى جواري فوق الأريكة:

- "جوي" بيعرف يعبر عن نفسه كويس.

في الصباح التالي أخذت حمامًا في منزل والديّ، وانتظرت "بي جي" في حديقة المنزل. كانت ماما تريد أن تعرف مني ما إذا كنت في انتظار ضيوف. وحوالي الساعة الرابعة كان الظلام قد بدا يحل وكنت قد أجهزت على سجائري. شرعت في شرب علبة البيرة الرابعة عندما انفتح الباب وظهرت "بي جي". لم تعتذر عن تأخرها، واشرت لها أن تحضر لنفسها علبة بيرة. فتحت الثلاجة، وأخذت زجاجة وخلعت غطاءها بحركة محترفة. كتبت لها:

"عيد ميلاد سعيد لوالدتك".

- أوف... العائلة كلها كانت موجودة. أفريكان. كلامهم كله عن جنوب أفريقيا. كان يومًا متعبًا. شفت حلقة البرنامج... "سبيد بوت في الرمال"؟

"مش متوتر قدام الكاميرا".

- بيضحكني جدًّا، وكل اللي بيقوله لايق عليه.

فتشت في حقيبتها، قبل أن تخرج كتابًا. كتاب "التواريخ" لهيرودوت. فتحته وهي تبحث عن جزء بعينه.

– بابا بحث في الكتاب ده. كلام عن الصحراء الغربية في مصر. المكان اللي فيه "جوي" دلوقتي. هنا... من صفحة أربعة وعشرين.

قرأت عن "قمبيز"، ذلك الحاكم في تلك العصور، الذي أرسل جيشًا كبيرًا إلى الصحراء للقبض على أتباع "آمون".

... انطلقت القوات التي أرسلها لتعقب أتباع "آمون" من طيبة بصحبة الأدلة، ويمكن تتبعها حتى الواحة، والتي... على بعد سبعة أيام عبر الرمال من طيبة. يعرف الإغريق المكان باسم جزيرة المباركين. وكل ما نعرفه هو أن ذلك الجيش وصل إلى هناك قبل أن تنقطع أخباره تمامًا، ولم يعرف أحد مصيره. فهو لم يلحق بأتباع "آمون" ولم يعد أدراجه إلى عاصمة مصر. ولكن هناك حكاية يرويها أتباع "آمون" أنفسهم وكذلك من سمعها منهم، وهي أن الرجال حينما غادروا الواحة، وفي أثناء مسيرتهم عبر الصحراء وصلوا إلى بقعة في منتصف الطريق بين الواحة وأتباع "آمون"، عندما هبت عاصفة جنوبية عاتية دفنتهم تحت الرمال، بينما كانوا يتناولون غداءهم، وهكذا اختفوا للأبد.

– جيش كامل اتبخر. تخيل لو علماء الآثار اكتشفوا مكانهم، مدفونين تحت الرمال.. بابا بيقول إنهم كانوا حوالي خمسين ألف جندي.

"قلقانة؟".

– شوية: مش ممكن يتوه؟ ده مكان واسع وفاضي... قصدي طالما إن زمان جيش كامل اختفى فيه..؟

رمقت الدفاتر الراقدة على الأرض، تمامًا كما تركتها بالأمس:

– أنا ها أقعد أقراها. لسه عندي وقت.

بعد قليل، كانت راقدة على الأرض وقد وضعت وسادة أسفل بطنها، مشغولة في قراءة اليوميات، بينما كنت أقلب في كتاب هيرودوت. أفكر في ذلك الجيش الذي اختفى، بفعل عاصفة جنوبية رملية هائلة. "جوي" هناك، وربما عبر بالفعل الحدود المصرية في طريقه إلى واحة "سيوة". مرت ثلاثة أسابيع عليه، وهو بالفعل في منتصف الرالي، وما زال البلدوزر سليمًا، وينافس به بصورة لا بأس بها في فئة الشاحنات. أرى أن أداءه معجزة، ولكني عاجز عن طرد فكرة أن هناك شبحًا يطارده في صورة اسم.. "آخيل شتيفان".

- واو.. مكنتش أعرف إنك معجب بي.

نبرة صوتها مندهشة، وفيها غواية. وجدت أن حجري أقل مما توقعت، ربما كان هذا لأنه لم يعد بيننا أي حياء بعد ما جرى. تلك النظرة التي ترمقني بها، تقول بأن هناك شيئًا ما في الطريق، فأنا أعرف مثل تلك النظرات جيدًا الآن. نهضت وتناولت زجاجة البيرة من فوق الترابيزة.

- بس انت بتبالغ. المشكلة إنكم هنا مش متعودين. مفيش حاجة مميزة في "دوربان". وما أعتقدش إن فيه حاجة مميزة فيّ.

"فيكي حاجات كفاية علشان واحد يكتب عنها رواية كاملة".

- تقصد مذكراتك؟

"ميتز".

اندهشت للغاية؛ وأنا لم أكن أعرف لماذا وصلت بالحوار معها إلى هذا المسار، ربما كان هذا لغضبي منها بسبب تاخرها، وربما لأني ارتحت لفكرة كوني عاجزًا وأريد أن أبقى كذلك.

- إنت قريتها؟

نبرة صوتها هادئة، محاذرة. أومأت برأسي أن نعم.

- وأيه رأيك فيها؟

"كاتب كويس جدًّا".

قالت لي في حدة:

- مش ده قصدي. رأيك في اللي كتبه عني، مصدقه؟

"التصديق فعل من أفعال الحب".

- تقصد إيه؟

"إني مصدقك".

ضحكت "بي جي".

"يومياتي.. روايته.. إنتي مين؟".

نظرت إليَّ، وشردت بفكرها.

- ده، "فرانكي"، ده، هنا، دلوقتي، وده كل اللي أقدر أقوله. أنا مش بالغموض ده كله.. ده من تأليف وخيالات "آرثر".

(يبقى احنا كلنا في النهاية اسمنا "آخيل").

- آه. تقدر تقول كده. كل واحد فينا عنده "آخيل" بتاعه.

اكتشفت أن هذه هي أول مرة ينطق فيها أحد بالاسم بصوت مسموع. وانتبهت هي أيضًا، فضحكنا. وقفت، واقتربت مني.

- قلت لك قبل كده قد إيه بكون مهووسة بالراجل الذكي؟

هكذا تحول كل شيء إلى النقيض. هي نفس اللحظات المحمومة التي عايشتها يوم أن مارست معي الحب بيدها. جثت على ركبتيها إلى جواري ووضعت يديها على فخذيَّ.

– ذكاء لا يقاوم.

رأسي يلتهب شوقًا. هذا ما كنت أتمناه. لا، هذا ما كنت أصلي لأجله. فتحت السوستة، ولكني نبهتها إلى أن الستائر مفتوحة؛ وأننا هكذا مكشوفان. نهضت، وأسدلت الستائر وأوصدت الباب. والتقطت وهي عائدة فوطة المطبخ من فوق شماعتها.

– كنا فين؟ ... أيوه كده.

كنت في غاية النشوة. سألتني عن نظافتي، فطمأنتها. مارست معي الحب هذه المرة بفمها. اعتصرت خصلات شعرها، بينما أشعر بفمها دافئًا رطبًا، ورأسها لا يتوقف عن تلك الحركة الآلية. أتأمل جانب وجهها، بينما تنظر لي هي وتبتسم. هذا كثير.. فوق الاحتمال. انهرت وقذفت بكل قوة تجاه وجهها. آسف.. آسف. انتظرت حتى همدت، ثم مسحت كل شيء بفوطة المطبخ. دست يديها الساخنتين في جسدي أسفل السترة. ارتجفت بشدة. خلعت عني سترتي، فصرت أجلس نصف عارٍ أمامها. ينير ضوء المصباح بياض بشرتي، ويبرز عضلات جذعي المتناسقة، ولكنني نهضت وأطفأت المصباح. فالجنة هناك، على الأرض.

– تعالَ.

ساعدتني على الوقوف، وتحركنا إلى الفراش. تركت جسدي يسقط فوق الفراش، بينما فكت هي الأربطة الطبية. خلعت عني حذائي والبنطلون، فأصبحت راقدًا عاريًا أمامها. ترتدي سوتيان أبيض أسفل سترتها. لاحظت علامات شاحبة فوق بطنها، ومددت يدي أطلبها. مدت يداها وراء ظهرها وفكت السوتيان، وبحركة سريعة حررت نهداها. تأملتها بنظرات محمومة.

اعتصرته، قبل أن تصير هي بدورها عارية تمامًا. حدقت في ما بين ساقيها، حيث لم يسبق لي أن وصلت من قبل. صعدت إلى الفراش، وامتطت جسدي.

- عملت كده مع حد قبلي؟

هززت رأسي أن لا. اعتلته، واستقبلته داخلها شيئًا فشيئًا، وتأوهت بشدة، وانا أشعر بجسدها يرتجف، قبل أن تميل عليَّ فتحتضني. عيناها مغلقتان، وعيناي تنظر إلى كل شيء في نهم. أسندت يديها إلى صدري، بينما نصف جسدها الآخر يتحرك فوق جسدي لأعلى وأسفل بكل انتشاء. وكأن لها جسدان. أكاد أجن من فرط اللذة، وأنا أجد أن حلم حياتي يتحقق.

مال رأسها فانسدل شعرها يغطي وجهها، ومن ورائه أسمع أنفاسها اللاهثة، وأناتها، كأنها تعاني آلامًا تعجز الكلمات عن التعبير عنها. زادت حركتها سرعة وقوة، وأسندت يدي إلى مؤخرتها، ثم مررتها على أنحاء جسدها، حتى استقرت فوق النهدين المتراقصين. صاحت فيّ:

- أيوه... أيوه.. امسكهم.

داعبت حلمتيها البارزتين بشدة، بينما أشعر بنفسي تذوب فيها تمامًا. ولم أعد أشعر بجسدي. وعندما علا صوتها وارتجف جسدها وهي غائبة في لحظات الخلاص، جذبتها نحوي من عنقها، وتشبثت برأسها في جنون، وأنا أشعر بموجات النشوة التي تعصف بجسدها من دون رحمة. انهارت وهمد جسدها فوق جسدي، وهبت أنفاسها عاصفة على أذني. بقت هكذا لمدة. وبقيت أنا بلا حراك، ولكني بدأت أستعيد إحساسي بجسدي. اعتدلت "بي جي" وبادرت بالنهوض من فوقي. رقدت جواري. عدنا جسدين منفصلين من جديد.

- مش ممكن.

مدت يدها إلى جسدي. وجدته كما هو. منتصبًا. فلم تمنع نفسها من مداعبته مجددًا. أخبرتني أنها تريد مني أن أصل معها إلى النشوة مرة ثانية... أو ثالثة.

اعتدلت، ووجدتها تداعبه بفمها. تستحثني بجنون.

زادت من سرعة وقوة حركة يدها. وسرعان ما انهرت مرة أخرى.

استيقظت في الثالثة فجرًا، على صوت هسيس المدفأة، فجذبت البطانية فوقنا. اختلجت جفون "بي جي"، وابتسمت، قبل أن تستمر في النوم. لم أكن أريد أن أنام، بل أن أنظر إليها، ولكني استغرقت في النوم. صحوت مرة أخرى، بينما كانت تنهض من الفراش. الوقت لا يزال ليلًا. كانت ترتدي ملابسها.

– لازم أمشي.

همست، وكأن هناك أحدًا غيرنا في الغرفة.

مرت بيدها على جبيني في خفة، قبل أن تنصرف. وعبر الباب، اقتحمت هبة من الهواء البارد دفء الغرفة، فعدت إلى النوم مجددًا.

***

بعد ساعتين، كنت أشاهد "جوي" يخرج بالبلدوزر من المخيم في "سيوة" ليقوم بجولة حول الواحة. يقتحم الكثبان الرملية بقوة، وقد رفع الجرافة أعلى الكابينة، فصار مثل وحش وحيد القرن يغوص في أعماق الصحراء.

قال "جوي" في هذا المساء للبرنامج التلفزيوني:

– منظر جميل جدًّا. إنك تخرج من وسط الظلام وفجأة تشوف قبة نور عند الواحة. تتجه ناحيتها عبر النخيل. ولازم التركيز القوي طول الطريق؛ ولازم

برضه تسأل بقية المشاركين. والكل بيعتمد على غريزته وخبراته علشان ما يطلعش بره مسار السباق، خصوصًا مع سهولة التوهان وسط المساحة الكبيرة.

في صباح الثلاثاء، بدأت القافلة في عبور ذلك الجزء من الصحراء الذي يسمونه بحر الرمال الكبير، حيث ترتفع الكثبان الرملية إلى قرابة مئة متر. لم يكن "جوي" قد حظي بالراحة الكافية، فقد قام أحدهم بتركيب مولد كهرباء خلف خيمته، فعجز عن النوم طوال الليل بسبب الصوت الفظيع. عند الظهر، وصلوا إلى الصحراء البيضاء، وهي مساحة منبسطة شاسعة من الحجر الجيري والرمل الأبيض الناصع لدرجة يصعب معها النظر إليه. ثم هبطوا من تلك الهضبة إلى حيث واحة الداخلة. في الغد سيصلون إلى المناطق الحضرية. أنهكت الصحراء مئة سائق تم استبعادهم في هذه المرحلة، وسوف يتم استبعاد البعض الآخر؛ ولن يبقى إلا ثلاثة من كل عشرة متسابقين، وهم من سيصلون إلى شرم الشيخ.

وصل "جوي" إلى النيل في اليوم الرابع عشر. وعبر النيل إلى الأقصر، ثم اتجه في الصباح التالي إلى الصحراء الشرقية. يتجه مسار السباق إلى الشمال، وسيكون المخيم قبل الأخير في "أبو الريش" على الطريق التي تربط "بني سويف" عند النيل إلى خليج السويس. وفي اليوم السادس عشر والأخير تأتي المرحلة الأطول في الرالي كله: أربعمائة كيلومتر على الأسفلت، من "السويس" إلى "أبو زنيمة" على ساحل خليج السويس، ومنها يخرج المتسابقون إلى الدروب الصحراوية ثانيةً لمسافة أربعمائة كيلومتر عبر سيناء وفي ظل حرارة شديدة. وبعد عبور سيناء، يصلون إلى "وادي وطير". ومن عند قرية "نويبع" على خليج العقبة يعودون أدراجهم في الكيلومترات الأخيرة جنوبًا، إلى "شرم الشيخ".

***

لم أتفاجأ أو أندهش عندما سمعت خبر اختفاء "جوي" أثناء سباق الرالي قبل الوصول إلى "نويبع" ببضعة كيلومترات. آخر مرة شاهدوه فيها كانت عند

الجبال قرب الساحل، ولم يتم التبليغ رسميًّا عن فقدانه إلا عندما لم يصل إلى نهاية المرحلة في الوقت المحدد. في تلك الليلة، وفي فقرة "سبيدبوت في الرمال"، ظهر وجه المحاور أمام الكاميرا لأول مرة، وهو يذيع بنبرة مؤثرة نبأ اختفاء "جوي سبيدبوت" والبلدوزر.

كنت غارقًا في الضحك...

مفاجآت "جوي" لا تنتهي... أبدًا.



41



كنا في أواخر يناير عندما ظهر "جوي" في "لومارك". من دون البلدوزر. وأبدى سخريته من كل هذا القلق على غيابه. بدا نحيفًا جدًّا، وظهر تأثير الشمس القوية على شعره. وقد تحول لون بشرتة وجهه وساعديه إلى اللون البني المحروق.

توجه أولًا إلى "أمستردام" ليقضي بضعة أيام مع "بي جي"، قبل أن يعود الآن ليريح بال أمه.

- إيه الأخبار، "فرانكي"؟ مفيش أي جديد حصل هنا؟

سؤاله المعتاد لي كلما غاب عن البلدة لفترة. كانت في حلقي غصة، ورؤى عديدة كئيبة تتراقص أمام عينيَّ. كتبت له:

"اتفرجت على حلقاتك في قناة RTL 5".

- آه... كانت تجربة حلوة. ما افتكرش إن محل صاحبنا "سانتنج" العجوز باع دهانات كتير بعد الدعاية اللي كانت على التي شيرت. بس كفاية إنه ظهر في التلفزيون.

"إيه اللي حصل للبلدوزر".

ضحك ساخرًا.

- سبته هناك.

(مع مين؟ أوعى تقول؟ "بابا أفريكا"؟).

- خلينا نقول إنه دلوقتي بقى قادر يبتدي نشاط جديد.

تشابكت أصابع "جوي" خلف رقبته وترك جسده يسترخي في المقعد. وفجأة، أدركت كل شيء في غمضة عين، وعرفت من يكون هو بالضبط: سيبقى دائمًا سابق بخطوات. ولن يؤثر فيه غدر الأقدار. سوف يعاني لأجلنا، وبمقدوره أن يجتث غابة كاملة من جذورها وأن يغير مسار نهر فقط لأجل أن يخلصنا من آلامنا. وسيخرج من كل ذلك غير مكسور. عندما أدركت ذلك وددت لو أن الأرض انشقت وابتلعتني.

سوف يلتقي "جوي" و"كريستوف" هذا المساء، وسيعود إلى العمل يوم الإثنين. ربت على جيوبه ليتأكد أنه لم ينسَ شيئًا، قبل أن يلتقط ولاعته من فوق الترابيزة وهو يبتسم.

- أوكيه... أسيبك دلوقتي.



ومرت أعوام



هذا الذي جرى كان بعد أعوام. أعوام عديدة. حدث خلالها الكثير، وأخيرًا فهمت الحقيقة العميقة التي يتندر بها العجائز فوق مصاطبهم عند النهر: لم تعد الأمور، فعلًا، كما كانت من قبل. بل إن الأسى على هذه الحقيقة ليس كما كان من قبل. وسوف تعتاد أن تعيش مع هذه الحقائق الواضحة، مثل عظام بيضاء ناصعة.

بعد أن عاد "جوي" من "دكار"، سأله "كريستوف" بشكل مباشر عما إذا كان من الممكن أن يدعو "بي جي" إلى الحفل السنوي الذي يقيمه بيت الشباب. فهو لم يجد فرصة مناسبة أخرى.

- اعزمها انت بنفسك. بتطلب مني أنا ليه؟

هكذا حضرت "بي جي" حفل اتحاد طلاب "أوتريخت"، في رداء رمادي فضي أنيق، وسط دهشة الجميع من أن "كريستوف" يعرف مثل هذا الجمال.

في تلك الليلة مارس معها الحب. وهكذا صارت هي القاسم المشترك بين ثلاثتنا.

في الصيف التالي، وداخل مقهى في "أوتريخت"، أخبر "كريستوف" "جوي" أنه على علاقة مع "بي جي"، وأنها اختارته هو. "كريستوف". وأنها لا تريد

رؤية "جوي" مجددًا. طلبت من "كريستوف" أن يبلغه ذلك لأنها لا تحتمل المشاعر المؤلمة التي تصاحب إنهاء أي علاقة.

لم يلكم "جوي" "كريستوف"، ولم يحطم عنقه؛ بل استقل سيارته، وأوقفها خارج "أوستربيك". مشى بقية المسافة إلى منزله، وجمع حاجياته في حقيبة قبل أن يغادر المنزل تاركًا رسالة يقول فيها إنه سيتصل بهم. هذا كل ما عرفناه. والناس يقولون إنهم رأوه يعمل على بلدوزر في مشروع الطريق الجديد، وأنه أطلق لحيته، وبالتالي فمن الممكن أن يكونوا مخطئين، وأنهم رأوا شخصًا يشبهه وحسب.

هل يدهشك أن "كريستوف" هو من فاز بـ"بي جي" في النهاية؟ أنا لم أندهش؛ ووجدت من الطبيعي أن يأتي الدور عليه، ومن المنطقي أن يستغل هو الفرصة. وبوسع "كريستوف" أن يقدم لظت"بي جي" الشيء الذي لم يقدمه لها عشاقها الآخرون: النظام واليقين – فعلى مر القرون، كان هذا هو الطلب الوحيد الذي يطلبه المواطنون من سلطات الحكم في كل مكان. وبالطبع كان يمكن لهذا التأثير أن يكون محدودًا، لو أنها لم تحمل منه. وبذلت عائلة "كريستوف" جهدها لتقنعها بعدم إجهاض الجنين، ولم يمضِ وقت طويل قبل أن يقوم بلدوزر (ليس موديل كاتربيلر، ولكنه ليبير) بتنظيف قطعة أرض بين "لومارك" و"فيسترفيلد" حيث سيقيم "كريستوف" و"بي جي" منزلهما الجديد.

التحق "كريستوف" ببرنامج دراسي مكثف ليحصل على درجة القانون، قبل أن يتسلم عملًا في مصنع الأسفلت، أما "بي جي" فلم تنهِ دراستها الجامعية.

كما اكتشفت أخيرًا من يشبهه "كريستوف"، ذلك السؤال الذي أصبح مثل هوس أبدي بالنسبة لي. عثرت عليه في كتاب "مساعدو هتلر"؛ إنه صورة طبق الأصل من "هينريش هيملر"، أقسم لك على ذلك. كان هذا الكتاب على الرف في مكتبة والديّ منذ أمد بعيد. فخلال فحص طبي في معسكر "لونبورج" لأسرى

الحرب، أقدم "هيملر" على الانتحار بكبسولة "سيانيد" عندما طلبوا منه أن يفتح فمه. التقطت الصورة بعد انتحاره بوقت قصير. في أعلى الزاوية اليسرى منها تشاهد طرفًا لامعًا لحذاء عسكري، وكان "هيملر" لا يزال يرتدي نظارته وملفوف في بطانية على الأرضية الخرسانية. إنه "كريستوف" بالضبط، وخصوصًا بطريقة رقوده تلك.

أعدت اكتشاف ذلك الكتاب في الليلة التي أعقبت جنازة ماما. كانت قد توفيت بعد إصابتها بسرطان تفشى في غددها الليمفاوية. انتهينا من دفنها، وكنا نجلس في غرفة المعيشة مع الأقارب عندما لمحت الكتاب على الرف. قلبت صفحاته حتى الجزء المخصص للصور. كان "ديرك" ينظر في الكتاب من خلفي.

- شبه صاحبك بالضبط.

لا أزال أتذكر أمرًا واحدًا بكل فرحة، وذلك هو يوم زفاف "كريستوف" و"بي جي". انعقد حفل الزفاف في الكنيسة، وظهر الحمل واضحًا في فستان زفاف "بي جي"، فهي توشك أن تضع طفلها. كان القس "نيوفنهويس" يعكس كل مشاعر الحب، بينما كنت جالسًا في الممر بين الصفين. عندما غادرنا الكنيسة، رمقتني "بي جي". غادر العروسان في سيارة "بنتلي" مستأجرة. وأقيم حفل الاستقبال بعد ظهر ذلك اليوم في "مانداج"؛ الفيلا التي بناها الرجل العجوز خارج القرية بعد أن دمرت الشاحنة السكانيا منزله في شارع الجسر. الجو صيفي حار، وأزهار نباتات الخشخاش والقنطريون تتفتح. اليوم "كريستوف" محط جميع الأنظار؛ وألقى والده كلمة هنأ فيها الأمير وأميرته، ومع عبارته الأخيرة ظهر "كريستوف" من عند مؤخرة المنزل ومن ورائه فرس أبيض، هديته لـ"بي جي" في زفافهما. أعترف أنني لم أتوقع منه حركة مثل هذا. أحييه.

بكت "بي جي"، بنفس الطريقة التي كانت تبكي بها يوم غادر "جوي" البلدة فوق البلدوزر للمشاركة في السباق. قبلت "كريستوف" وربتت على عنق الحصان – هي لم تكن من هواة الخيول على أي حال. بينما وقف الضيوف في إعجاب، مطلقين صيحات الاستحسان، وابتسم "كريستوف" ابتسامة عريضة. ثم في تلك اللحظة، سمعنا في السماء صوت محرك: هدير جميل لم يلحظه أحد في البداية، ففي أيام جميلة مثل هذه تكون في السماء العديد من الطائرات الصغيرة. ولكن الصوت هذه المرة كان مغريًا ويفرض نفسه على أجواء الحفل. ونظر أحدهم لأعلى، قبل أن تتحول المزيد والمزيد من الرؤوس نحو السماء في اتجاه الصوت الذي صار فجأة قريبًا للغاية. ثم صاح أحدهم: "هذا الشيء سيتحطم!"، وهكذا اندفع الحشد المذعور كل في اتجاه، يركضون بكل قوة وكأن أحدهم ألقى قنبلة نتنة الرائحة وسطهم.

إنها طائرة سماوية اللون.

تقترب على ارتفاع منخفض وبسرعة كبيرة من عند الحقول في اتجاه الفيلا، وهي تسحب من خلفها لافتة عريضة من القماش. اصطدمت والدة "كريستوف" بمائدة وهي تركض لتحتمي خلف أي شيء، فارتعد جسدي لسماع خشخشة الزجاج الذي تهشم. بدا أن الطائرة لن تتوقف عن الهبوط نحو الأرض، قبل أن ترتفع ثانيةً في آخر لحظة وتحلق فوق رؤوسنا. لجأ كثيرون إلى المنزل، بينما امتلأ الحقل خلفه بأناس يركضون، ولكن عندما سقط ظل الطائرة على مدخل المنزل نظرت إلى السماء؛ خيل إليَّ أنه صليب هائل عملاق يوشك أن ينقض علينا فيسحقنا. ارتفع الطيار بطائرته، لمحته يرتدي نظارة الطيران، وتظهر أسنانه من خلال ابتسامة. عندئذٍ انخرطت في نوبة ضحك شديدة لم تتوقف.

تسمرت سيدة عند مدخل المنزل، وهي تحدق في الشكل الذي صنعته الطائرة في السماء: إنها "كاثلين إيلاندر". فمها مفتوح في دهشة، ورفعت يدها الضعيفة نحوها، وهي تقول:

- ده.... ده...

لا أعرف إن أمكن لكثير من الحضور أن يقرأوا الكلمات المكتوبة على اللافتة أم لا، ولكني عرفت أن الكل عرفها. قلت لك من قبل... "جوي" قادر على أن يصنع من كل يوم حدثًا جديدًا.

"عاهرة القرن".

مكتوبة بأحرف أنيقة. أكاد أختنق من الضحك. تأكدت أنه قرأ الرواية، وقرر أن يخلدها في هذا اليوم المجيد!

يا لها من رسالة مثيرة للشفقة وسط كل هذا الذعر الذي سببه الحصان، الذي تخلص من عقاله وانطلق يركض عبر الحقول إلى حيث لا يعلم أحد. قامت الطائرة بمناورة واسعة قبل أن تعود لتلقي التحية الأخيرة. في تلك اللحظة خرج "كريستوف" غاضبًا من المنزل ومعه بندقية الصيد الخاصة بوالده. صرخت والدته بينما كان يجهزها، وصوب قبل أن يطلق النار نحو الطائرة التي غابت في الأفق. يبدو أنه فشل في التصويب أو أن الطائرة كانت بعيدة بما يكفي لتفادي الطلقة. كانت تتجه نحو القرية. عدلت "كاثرين إيلاندر" أحد الكراسي وجلست عليه، وهي تراقب الطائرة تبتعد. صاح أحدهم، "الحصان!". أخذ "كريستوف" يسب ويلعن، وهو ينطلق مع آخرين راكضًا إلى حيث اختفى الحصان.

أولئك الذين بقوا وقفوا وسط الفوضى ينظرون في صمت مذهول. بينما وقفت "بي جي" مثل شراع زورق متداعٍ من الدانتيل والحرير وسط أنقاض يوم زفافها. أحسست أنها محتارة بين الغضب والضحك الهستيري. أما

ضحكاتي فلم تتوقف، والحقيقة أنها مستمرة منذ ذلك اليوم إلى الآن. نظرت "بي جي" إليَّ، ثم إلى شريط بعيد ملون من ضيوف الزفاف الذين يطاردون حصانًا أبيض وسط الحقول، وهزت رأسها قليلا. صبت كأسين من الشمبانيا من فوق إحدى الموائد التي بقيت صامدة، لامست الكأسين معًا، وروتني كأسًا قبل أن تجرع كأسها بدورها. قالت في شرود، وهي تمسح شفتيها:

- عاهرة القرن. عاهرة القرن. مش ممكن.

بعد أسبوعين أنجبت "بي جي" ولدًا، وانتقلا في ذلك الخريف للعيش في المنزل، حيث لا يزالان يعيشان فيه إلى الآن. رأيت الصغير لأول مرة عندما كان يركب دراجة في شارع "بولسفيج" بجانب "كريستوف"، وفي مؤخرة الدراجة راية برتقالية تتمايل يمنة ويسرة. حياني "كريستوف"، بينما استمر الصغير البدين في طريقه. لم يكن يشبه "هينريش هيملر".

لو حدثتك من الناحية العلمية، فإن من الممكن أن يكون ذلك الصغير ابني، فأنا مارست الجنس في مرات عديدة أخرى مع "بي جي". كما أن فحولتي وقدرتي على الإنجاب مثالية. على حد وصف "بي جي". وهي كانت تأتيني أيام يكون "كريستوف" مسافرًا. وبابا يعمد دومًا إلى غلق ستائر حجرة المعيشة، وعندئذٍ تأخذ هي راحتها معي تمامًا. بدأت التجاعيد تظهر قليلًا بجانب أذنيها، ولكن غرامي بها لم يخمد أبدًا. يكفي أنها لا تزال قارئتي الوحيدة.

لم تكن مرتاحة للفقرات التي كتبتها عن "جوي"، وعمَّا جرى بيننا. قالت لي وكأن هذا يفسر أو يبرر كل شيء:

- هو شخص حالم.

أحيانًا تطلب مني أن أحملها بذراعي السليمة، فأضع يدي تحت مؤخرتها وتوازن هي جسدها على كتفي، حتى أتمكن من رفعها ببطء. ثم تجلس لفترة وجيزة

على يدي كما تجلس فوق مقعد دراجة السباق. عندما أرفعها أشعر للحظات أني قوي مثل دب وتشعر هي أنها خفيفة مثل ريشة. فيسري في جسدها قدر كبير من المتعة. وعندئذٍ ننهار. ونمارس الجنس مثل حيوانين محمومين.

لم أتوقف عن التجوال في أنحاء قريتي، المرور على "هيني أوسترلو" في منزل الحديقة في المنطقة خلف تمثال الديك الأحمر الصغير. ما إن يراني حتى يبادر بوضع ذراعه فوق الترابيزة، بعد أن صار يربط بيني وبين مصارعة الريست في عقله المسكين، ولكني أهز رأسي رافضًا، وأحيانًا ما أستسلم في تلك اللحظات للبكاء. أتذكر كل شيء. وأتذكر شرف الـ"هارا كيري"، الذي تناله بطعنة واحدة قوية حاسمة، ولكنني في النهاية أرى أنني لم أفقد شرفي، وأسارع بالابتعاد عن المكان وعن الذكريات وأنا بعد في كامل حواسي.

افتتحوا الطريق E981. وبدأ مع ذلك النهر الأسفلتي العريض عصرًا جديدًا، وتوارت قريتنا خلف حواجز الصوت البلاستيكية شاهقة الارتفاع. وبالفعل، لم نعد نسمع أي شيء، وكذلك لم يعد يسمعنا أحد. وربما لا يعرف بنا أحد ممن يمرقون بسياراتهم فوق تلك الطريق، إلا إذا لمح بطرف عينه أعالي منازلنا، وتلك القبة التي يزينها ديك منتفخ في جسارة؛ أما خلاف ذلك فقد قرر العالم أن يوارينا عن الأنظار. ولكننا خلف ذلك الحاجز كما نحن. لم نتغير. ولم نمُت...

... نحن ما زلنا هنا.



صدر في سلسلة #كتب_مختلفة:

1. أرامل ليلة الخميس	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
2. كلي لك	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
3. مشروع زوجة	جرايم سيمسيون	أستراليا
4. الثلاثة	سارة لوتز	إنجلترا
5. شركة الحب المحدودة	أندريه سنار ماجنسون	أيسلندا
6. احترس من جوعي	لوتشانا كاستيلينا	إيطاليا
7. لم يعد الحب مناسبًا	ميلا فينتوريني	إيطاليا
8. سارق الجثث	باتريسيا ميلو	البرازيل
9. السيمفونية البيضاء	أدريانا ليسبوا	البرازيل
10. مقبرة البيانو	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
11. صانع الملائكة	شتيفان بريجش	بلجيكا
12. مخاوفي السبعة	سلافيدين أفيدتش	البوسنة
13. جامع الكتب	جوستابو فابيرون باترياو	بيرو
14. أبسنت	أيفر تونش	تركيا
15. خطايا الأبرياء	برهان سونميز	تركيا
16. أحلام محطمة	بيولانت سينوكاك	تركيا
17. ارحل قبل أن أنهار	تونا كيرميتشي	تركيا
18. امرأة صديقي	تونا كيرميتشي	تركيا
19. الصلوات تبقى واحدة	تونا كيرميتشي	تركيا
20. مينتا	سولماز كاموران	تركيا
21. ديستينا	ماين كيركانات	تركيا
22. نساء اسطنبول	مجموعة قصصية	تركيا
23. توباز	هاكان جنيد	تركيا
24. لون الغواية	هاندي ألتاليلي	تركيا
25. الشيطان امرأة	هاندي ألتايلي	تركيا
26. ديتوكس	سوزانا برابتسوفا	التشيك
27. حدث في كراكوف	بيترا هولوفا	التشيك
28. كل هذا ملكي أنا	بيترا هولوفا	التشيك
29. سرادق طائر البطريق	إميل هاكل	التشيك
30. كافكا	فرانز كافكا	التشيك
31. المواطن فانيك	فاتسلاف هافل	التشيك

32. المبعدون	أوجنين سباهيتش	الجبل الأسود
33. امرأة للبيع	أورشولا كوفاليك	سلوفاكيا
34. خلف طاحونة الجبل	مجموعة قصصية	سلوفاكيا
35. ربيع البربر	يوناس لوشر	سويسرا
36. بكين.. بكين	شيو تسي تشين	الصين
37. مصباح أبدي	يركسي هولمانبيك	الصين
38. رقصة الكاهنة	جين رينشوين	الصين
39. المغفل	إريك نويوف	فرنسا
40. المجاعة البيضاء	آكي أوليكانين	فنلندا
41. النسيان	إيكتور آباد	كولومبيا
42. القنّاص	بلايز ماينفسكي	مقدونيا
43. الواحد والعشرون	توميسلاف عثمانلي	مقدونيا
44. إلينج	إنجفار أمبيورنسون	النرويج
45. صيف بارد جدًا	روي ياكوبسن	النرويج
46. جوي سبيدبوت	تومي فيرينيجا	هولندا
47. العشاء	هيرمان كوخ	هولندا

كتب عامّة مترجمة:

48. هاربون من الموت	فولفجانج باور	ألمانيا
49. قانون التسامح	هوبرتس هوفمان	ألمانيا
50. الرجل والمرأة أيهما الجنس الأضعف؟	جيرالد هوتر	ألمانيا
51. الصراع الطبقي في أفريقيا	ليو زيليج	أمركيا
52. الهاشميون وحلم العرب	روبرت ماكنمارا	أمريكا
53. الهندي الأحمر الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا
54. يوميات صحافية إيطالية	جوفانا لوكاتيلي	إيطاليا
55. قوة المستضعفين	فاتسلاف هافل	التشيك
56. أوروبيانا	باتريك أورشادنيك	التشيك
57. الثورة التشيكية	مجموعة مؤلفين	التشيك
58. ذكريات الصين	تشين يو	الصين
59. جابو	أوسكار بانتوخا	كولومبيا
60. الجري	ثور جوتاس	النرويج
61. عقول مريضة	دور درايسما	هولندا